المكتبة الأهلية . بمصر

غرائب الغرب

كتاب اجتماعي تاريخي اقتصادي أدبي

فيه كلام على مدنية : فرنسا ، وانكلترا ، والمانيا ، وايطاليا ، واسبانيا ، وسويسرا ، والبلجيك ، وهولاندا ، والنمسا ، والمجر ، والبلقان ، واليونان ، والاستانة ، ومصر ، والشام ومقالات في علائق الشرق بالغرب ، والغرب بالشرق ، منذ الزمن الاطول ، ولا سيما صلات الغرب مع العالم الاسلامي ، والعربي منه خاصة . في جنوبي ايطاليا وفرنسا والاندلس .

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

— الجزء الثاني —

الطبعة الثانية

١٣٤١ هـ المطبعة الرحمانية – بمصر ١٩٢٣ م

الرحلة الثالثة

العربية والافرنسية

٧٠

لما رست بنا الباخرة سفنكس فى ميناء الاسكندرية منصرفنا من دمشق الى باريز (يوم ١٥ تشرين الأول) ١٩٢١ خرجت سيدة باريزية عائدة من سياحة لها قصيرة فى القطر المصرى فذكرت عند أول حديث ماشاهدته ودهشت به فى القاهرة من انتشار اللغة الافرنسية بين طبقات الشعب وجمهور الغربيين النازلين فى تلك العاصمة فقلت لها لا تعجبى فان علاقة الفرنسيس مع العرب قديمة جداً ترد الى أكثر من ألف سنة وبعبارة أصح ترجع الى القرن الأول للهجرة أيام دخل العرب الجنوب الغربي من أوربا فاتحين واستولوا على شبه جزيرة ايبريا أو اسبانيا .

ولقد سردت على السائحة بعض ماعلق فى الذهن من علاقة الأمتين احداهما بالاخرى فرأيت أن لايفوت هذا الموضوع قراء المقتبس أقدمه بين يدى نجواهم بعد طول العهد بمحاورتهم وعسانى أغنم هذه الفرصة السانحة وأحدثهم بما يقع لى فى هذه السياحة الثالثة يضيفونه الى (غرائب الغرب) التى طالما حدثتهم بها لاتزلفاً ومصانعة بل حب الفائدة والاطلاع ورجاء ان ننسج فى حضارتنا على منوال من سبقونا اليوم أشواطاً فى ديار الغرب ونستعيد بعملنا حضارتنا التى أدهشت ابن القرن العشرين وما هى الا ابنة القرن الثامن والتاسع والعاشر و نشفع عمل الأجداد بما يتلقفه الاحفاد عن أهل الحضارة الغربية الحديثة .

بدأت اللغة الافرنسية بالانتشار فى القطر المصرى فى القرون الحديثة على عهد دخول نابوليون الأول وقد صحبه جمهور من العلماء قاموا بأعمال علمية لاتزال تردها مصر بالشكر وجميل الذكر على وجه الدهر . ولما افتتح محمد على جد

الأسرة السلطانية الحاضرة القطر المصري واحتاج الى تنظيم شؤونه كان أعوانه على ذلك علماء فرنسا فأعانوه فى تنظيم رى القطر المصرى واصلاح جبايته وانشاء مدارسه وتأليف جيشه البرى والبحرى -

وما برحت تلك الروح الشريفة التى بثها علماء فرنسا فى مصر على عهدى نابوليون ومحمد على سارية فى أعصاب مصر حتى يومنا هذا حتى كانت سبب سعادتها وعلى الرغم من احتلال الانكليز القطر المصرى منذ أربعين سنة وحرصهم على نشر لسانهم شأن كل أمة راقية لم يبرح العمل الذى قام الفرنسيس بوضع أساسه فى وادى النيل يتسلسل ويجود وجمعياتهم ومجامعهم العلميـة ومدارسهم شاهد عدل على ذلك .

ولقد تركت مصر منذ اثنتى عشرة سنة وكان يصدر فيها عشر جرائد يومية باللغة الافرنسية وتصدر بها جريدة واحدة باللغة الانكليزية ولكن وجهها الثاني باللغة الافرنسية ومن هنا يدرك القارىء مبلغ تعلق المصريين باللغـة الافرنسية وكذلك من فيها من النزلاء اليونان والطليان والأرمن والسوريين وغيرهم من أمم البحر المتوسط . فاذا شاهدنا المصريين منذ أول نشأتهـم الحديثة يغشون المدارس فى فرنسا أكثر من انكلترا وغيرها من أمم الحضارة الحديثة واذا شاهدنا لغة فرنسا منتشرة أى انتشار فى القطر المصرى فلا عجب اذا ادعينا والدليل معنا ان مصر ولا مراء حسنة من حسنات المدنية الافرنسية كما هى بزراعتها حسنة من حسنات النيل المبارك . ومثل ذلك يقال عن سورية بل عن البلاد العثمانية جمعاء والأمة العثمانية كانت أشد الأمم الشرقية علاقة بفرنسا وعنها أخذت علومها وبروح حضارتها وسياستها تشبعت منذ عهد سليم الثالث . وكذلك فعلت فارس فى القرن المـاضى

تاطفت فرنسا فى بث لغتها بطرق مختلفة وأهمها المدارس الدينية والعلمانية التى أنشأتها الجمعيات وأمدتها بالمال وحمتها على مايجب وأرخصت أثمان كتبها وجرائدها وجعلت عاصمتها مثابة المتعلمين والمسترشدين منذ القديم ولا سيما من

سكان الشرق الاقرب فاستحكمت على الزمن علائق الحب بين الأمتين العربية والافرنسية وان ماتراه اليوم من الحركة الاجتماعية السياسية فى مصر والشام وآسيا الصغرى ان هو الا من آثار الجامعات الافرنسية ونور سرى فى عقول العرب والترك فى هذه الديار فانبعثت منه هذه الشعلة التى نراها ويعجب بها الغرب قبل الشرق . فنور الشرق الابعد لعهدنا ظهر فى جامعات السكسونيين ونور الشرق الأقرب تجلى من معارف الفرنسيس اللاتين

ومن الأدلة على توطد الصلات القديمة بين العرب والفرنسيس ومنها كان انتشار لغة هؤلاء بيننا ان العرب أطلقت على أمم أوربا اسم الافرنج أو الفرنجة وهو تحريف (فرنك) Les Francs

وما الفرنك فى الحقيقة الا الفرنسيس أنفسهم اذ كان للغتهم الكفة الراجحة بين لغات أوربا فى الحروب الصليبية فى بلاد الشام ومصر فقد ذكر ميشو [1] المؤرخ فى كتابه الحروب الصليبية ان الافرنج فى سورية لم يكونوا يتكلمون فى الحرب الصليبية بغير اللغة الافرنسية وكان اسم فرنسا فى الحروب الصليبية يمتزج بجميع الحوادث العظيمة فى تلك الحرب ويسمون المستعمرات التى وراء البحار فى هذا الشرق بفرنسا الشرق

وهذا ولا جرم مبدأ جعل اللغة الافرنسية لغة دولية رسمية بين أمم الحضارة منذ الزمن الاطول فكانت المفاوضات والاجتماعات والعقود والعهود السياسية والتجارية تجرى باللغة الافرنسية بينهم وخلفت هذه اللغة اللاتينية فى أوربا فى هذا المعنى وكان لها المقام الأول الى النصف الأول من القرن الماضى وقد كانت فرنسا هى المرجع الأول فى السياسة الاوربية ولم يكن ذلك بصنع رجال السياسة من أبنائها فقط بل بصنع علمائها وما توفروا عليه من خدمتها أمثال باسكال وموليير وفولتير ومونتسكيو الذين أقاموا دعائم مجدها ودعوا ساسة الامم الى الاعتماد عليها فى السياسة والتجارة والاصطلاح عليها فى المخاطبة والمكاتبة

(1) Michaud : Histoire des Croisades

لما فيها من الخصائص ولانها من بين اللغات الاوربية أكثرهن وضوحاً ومنطقاً وبياناً ولان النثر الفرنساوى تام فى ذاته لامثيل له فى آداب الامم الاخرى بشهادة كثير من الالمان والانكليز .

نعم كانت الافرنسية وما زالت شائعة عند أبناء الطبقات المستنيرة والشريفة فى روسيا وفنلندا والدانمرك وألمانيا والنمسا وايطاليا والمجر وهولاندا واسوج ونروج واسبانيا والبورتقال بل وفى انكلترا . دع رومانيا واليونان والتشكوسلافاكيا واليوغوسلاف ومصر والجزائر وتونس وغيرها ولم تضعف العناية بها الا بانتشار فكرة القومية بين الشعوب المتحضرة فاضحت كل أمة تعنى بلغتها الوطنية قبل كل لغة وتنقل الى لغتها جميع ماتحتاجه من العلوم والصنائع عن أشهر علماء الأرض ومع هذا ظل للافرنسية المقام الأول بين لغات الغرب وان كان الناطقون بالانكليزية والالمانية أكثر عدداً

في الأرض مائتان وثمانون مدرسة جامعة، من صنوفها تنبعث منها أشعة المدنية وفرنسا يصيبها من هذا المجموع سبع عشرة [1] فى أرضها وأربع فى البلجيك تدرس بالافرنسية وأربع فى سويسرا كذلك فلغة يتعشقها أهل الطبقات المستنيرة فى الارض وتخدمها فى كل العلوم خمس وعشرون جامعة هى لغة حية يحتاج الناس اليها بحسب قربهم وبعدهم عن بلادها وعلائقهم الحاضرة والغابرة بأهلها

مواطن اللغة الافرنسية

٧١

انتشار لغة الامة تبع لحاجة الناس اليها ولسياسة أهل تلك اللغة وتفوقهم

---

(١) أنشئت جامعة باريز فى سنة ١١٥٠ وجامعة مونبليه نحو ١١٨١ وجامعة كرونوبل ١٣٣٩ واكس مارسل ١٤٠٩ وزانسون ١٤٨٥ وبوردو ١٤٤١ وكان ١٤٣١ وكلرمون ١٨٠٨ وديجون ١٧٢٤ ليل ١٥٣٠ ونانسي ١٥٧٢ وليون ١٨٠٨ وبواتيه ١٤٣١ ورين ١٧٣٥ والجزائر ١٨٤٩ ستراسبورج ١٨٧٢ وتولوز ١٢٣٠

فى مضمار الصنائع والتجارات . ان تاريخ نشوء اللغة الافرنسية لايتجاوز العشرة قرون فمن المؤرخين من يرى ان ذلك يرد الى معاهدة فردون التى عقدت سنة ٨٤٢ ولكن هـذه اللغة لم تؤلف حقيقة الا فى القرن الحادى عشر وكلما كانت سياسة فرنسا تقوى تزداد لغتها انتشاراً ويعتمد عليها فى كتابة العقود والعهود والمخاطبات فأصبحت على الزمن لغة علم وسياسة ودامت محتفظة بهذه المكانة الى أواسط القرن الماضى

جاء في تاريخ اللغة والآداب الافرنسية [1] ان هذه اللغة لاسباب سياسية كثيرة ولكثرة مالقيت فرنسا من المصائب والانتباه العام فى روح القومية فى شعوب أوربا المختلفة كل هـذه الأسباب جعلت من المستحيل بقاء الامتياز الذى كان لفرنسا فى القرن الثامن عشر . واذا بقيت لغة السياسة فذلك أشبه بالسلطان في احتفاظه بالاستانة لان خروجه منها يولد منافسات كثيرة ولم تعد اللغة التى يضطر الرجل المهذب ان يحسنها كما يحسن لغته

وما برح الناس من مدريد الى بطرسبرج يعتبرون تعلم اللغة الافرنسية من دواعى الظرف والبهجة والفائدة ولئن نازعت اللغة الانكليزية الافرنسية في عالم التجارة وأصبح الناس فى أكثر الموانى البحرية يفهمونها وكذلك انتشرت الألمانية وأضرت فى بعض المحال باللغة الافرنسية وكذلك عم التكلم باللغة الايطالية فى البحر المتوسط فان الافرنسية مازالت منتشرة فى مستعمرات فرنسا القديمة مثل سان بير ومكلون والكوادلوب والمارتينيك والرينيون ولوزيان . وعدد النازلين فى تونس والجزائر من أصل فرنساوى ٣٢٢ الفاً عدا الجيش . وقدروا سكان كندا الفرنسيس بنحو مليون و نصف وكذلك سكان دومينيك وسانت لوسى وموريس وسيشل .

ومن المتعذر تقدير عدد المتكلمين فى أوربا الغربية باللغة الافرنسية أو باللهجات الفرنسية ولا يغرننا الظن ان كل من يسكنون أرض فرنسا لا يتكلمون بالافرنسية الى مليون ونصف من سكانها يتكلمون بلهجات اخرى من أصل جرمانى أو سلتى أو

(1) Petit de Julleville : Histoire de la langue et de la littérature française.

ايطالى أو لغة أخرى ومنها جزيرة كورسيكا وفوق ذلك فان نحو أربعة ملايين نسمة يتكلمون باللغة الافرنسية خارج حدود فرنسامنهم ٢،٨٧٧،٠٠٠ فى البلجيك و٩٠٠٠ فى بلاد ... دى فى بروسيا الرنانية و٢١٧ ألفاً فى الالزاس واللورين و٦٤٣ ألفاً فى سويسرا وفى تورين فى أودية الالب بضع مئات الالوف يتكلمون الا... أ... لذلك سكان جزائر الانكليز النورماندية فانهم يتكلمون بلهجة نور... يمكن تقدير من يتكلمون باللغة الافرنسية فى أوربا الغربية بأ... ...يادة

... قليل بالنسبة للشعوب التى تنمو سكانها نمواً كبيراً كالشعوب ... والشعوب السلافية ولذلك رأينا كثيرين من فلاسفة فرنسا ... بها ينادون بتلافى هذا النقص ابقاء على مجد أمة عظيمة عاشت بمعنوياتها ... كما عاشت بمادياتها ومنهم الفيلسوف فوليه فى كتابه نفس الشعب الافرنسية (١) قال : الى الموانع الحربية والاقتصادية الناشئة من قلة السكان يجب أن نضيف تقهقر لغتنا من العالم فقدكان يتكلم بها فى العالم الأوربى ٢٧ فى المئة من السكان واليوم لا يتكلم بها فى العالم كله سوى ٤٦ مليوناً (فرنسيس وسويسريون وبلجيكيون وكربليون وكناديون) فى حين يتكلم بالالمانية مئة مليون وبالانكليزية ١١٥ مليوناً و١٤٠ مليوناً من الخلق لغتهم الرسمية هى الانكليزية . قال: والتجارة لا تكون خاصة الا بين الشعوب التى تتكلم لغة واحدة فمن الاسف ان عدد الذين يتكلمون بالافرنسية ينقص اه

هذا ماقاله عالمان حجتان بشأن انتشار اللغة الافرنسية ونحن نرى انها آخذة بالانتشار كثيراً فى المستعمرات الافرنسية وفي البلاد التى لها علاقة سياسية أو تجارية مع الفرنساويين ولكن المسألة الصعبة هى في حل معضلة تناقص نفوس الفرنسويين بالنسبة لجيرانهم وبهذا كتب التفوق لهم فقد قيل كثرة العيال أحد اليسارين

(1) A. Fouillée : Psychologie du peuple français

ومن أجمل ماقاله أحدهم مؤخراً اننا اذا لم نغلب معاشر الفرنسويين بكثرة عديدنا فسنغلب على الدوام بنبوغنا وعبقريتنا . اما لغتهم فتعد فى الطبقة الاولى بين لغات الغرب وان عرضت لها بعض العوارض كما يعرض للافراد والامم فانها بالذكاء واتخاذ الاسباب تزول وتضمحل .

وبينا انا أنشيء هذه السطور جاءت الصحف تحمل خطبة للمركيز روبير دى فاليرا أحد أعضاء المجمع العلمى الباريزى (في اللغة الافرنسية والحرب) قال في جملتها : منذ وجد البشر وأخذوا يتكلمون نشأت لهم ثلاث لغات واستحقت ان تدعى عامة وهى اليونانية والرومانية والافرنسية فقد قالوا ان اليونانية ترشحت من غناء الارباب والزيزان Cigales فاصبحت لغة الجمال أما لغة الرومان فقد تألفت من جهاد المطامع التى كانت تنبعث من عمل المقننين والجنود فأصبحت لغة الحكم والسلطة وكانت اللغة الافرنسية لغة الظرف والعقل المسالم بتساوق نغمتها ووضوح عبارتها . وهذه خاصية غريبة عرفت بها على الدوام ولا شك ان ذلك أتانا من تمازج العنصر السلتى باللاتينى ونعم التمازج وذكر ان شارلكان كان يقول بانه لو أحب ان يخاطب المولى لخاطبه بالاسبانيولية ولو أحب أن يخاطب النساء لخاطبهن بالطليانية واذا أحب أن يخاطب حصانه يخاطبه بالالمانية ولكن اذا أحب أن يخاطب الرجال فيكلمهم باللغة الافرنشية قال فاللغة الافرنسية هى من بين اللغات اللغة البشرية وبها انتشرت معظم الحقائق على الارض وبالافرنسية أعطيت اجمل الوعود وجرى العمل بها .

قال جان جاك روسو أن لغات الجنوب هى ابنـة الفرح ولغات الشمال ابنة الحاجة وقالت مدام دى ستايل ان اللغتين الايطالية والاسبانيولية هما موزونتان للايقاع والتلحين بل هما كالغناء الرخيم . والافرنسية لائقة بالمحاضرات والتخاطب ومناقشات النواب . والنشاط الطبيعى فى الامة الانكليزية قد أورث لغتها حالة فى التعبير تتوم [illegible] السجع فى اللغة . واللغة الالمانية أكثر فلسفة من الايطالية وأكثر شعراً [illegible] الافرنسية وأكثر ملاءمة للقوافي فى الشعر من الانكليزية ولكن [illegible] المدرسة [illegible] على النالب في كونها لم تستعمل فى المجتمع [illegible]

علائق العرب بالفرنسيس

٧٢

ان البحث فى علاقة العرب بالفرنسيس يحتاج الى محاضرات طويلة فنقتصر من لباب هذا الموضوع على هذا القدر معتمدين على ماقاله سيديليو صاحب كتاب تاريخ العرب وهو من الذين أنصفوا العرب جداً فى التفلسف في تاريخهم كما أنصفهم كثير من علماء الغرب ممن لم يتأثروا بالعوامل الدينية والسياسية ولا أعمتهم الاغراضُ التجارية والاستعمارية

حدثنا التاريخ ان العرب استولت من أرض فرنسا على اقليم سبتمانيا فى الجنوب الغربي من غاليا (فرنسا) على ساحل البحر المتوسط وعلى مدينة ناربون وجعلوها قاعدة أعمالهم الحربية واستولوا أيضاً على مدينة كاركاسون ونيم واتون وبون وسانس وافنيون وبوردو (1) ولما أراد الامير عبدالرحمن ان يستولى على تور قام له بين هذه المدينة وبين بواتيه رجل اسمه شارل مارتيل من أمراء تلك البلاد وصده عن بلاده فتراجع العرب ولو ظفروا فى تلك الواقعة لانتشر الاسلام فى فرنسا وسرى منها الى سائر أقطار أوربا

ثم استولى العرب على مرسيليا وأرل بل وعلى أقليم البروفنس فى جنوبى فرنسا ووصلوا كما قلنا الى بواتيه وهى على ٢٣٢ كيلو متراً من جنوبى غربى باريز . حمى شارل مارتيل شمال فرنسا من غارة العرب (٧٣٢ — ٧٣٩ م) وترك للعرب اقليم سبتمانيا حيث أقاموا أماكن دائمة وعقدوا عهوداً مع أهل البلاد وأدخلوا كثيراً من كلماتهم فى الاصطلاحات اليومية فى الحياة وكان رجال الكهنوت في تلك البلاد يؤثرون حكم العرب على حكم الغزاة من الجرمانيين لان هؤلاء لا يستنكفون ان يستولوا على أملاكهم الكنائسية . وقد أخذت الصلات العديدة

(1) Sedillot ; Histoire générale des arabes.

تنعقد بين المسيحيين والمسلمين فتزوجت احدى بنات الدوج دا كيتين من أمير عربى

ولما رجع العرب عن اقاليم سبتمانيا سنة ٧٥٩ احتفظت العرب هناك باملاكها وبيوتها وعلى عهد شارلمان توطدت العلائق بين العرب وشارلمان ملك فرنسا وتبودلت الهدايا بين هذا وبين هارون الرشيد

وبينما كان التوحش ضارباً أطنابه على غاليا وجرمانيا كان العرب قابضين على زمام الاحكام فى جنوبى فرنسا من جبال البيرينات الى جبال الالب يحملون من مستعمراتهم الى بورغونيا وسويسرا فى الشمال والى التيرول ولومبارديا فى الجنوب ماتعلموه من العلوم في مدارسهم

وفى ذاك العهد انتقلت الى الغرب عادة استعمال الأرقام العربية والكسور العشرية وبقيت أسماؤها مع مالحقها من التعديل عربية صرفة ويذكر سيديليو ان التعابير النادرة جاءت اللغة الافرنسية من العربية أكثر من اللاتينية وان كان فى الافرنسية على عهد أول نهضتها لفظة واحدة يونانية مقابل خمسمائة لفظة لاتينية فمن العدل ان يقال انه كان مثل ذلك من اللغة العربيـة قال فالعرب اساتذتنا فى العلوم بل فى سائر المعارف البشرية

ومع أن علاقات العرب بالاسبان كانت أكثر من علائقها مع الفرنسيس فان عبد الرحمن الثالث الاموى كان على اتصال دائم مع أمراء من اسـبانيا وفرنسا والمانيا والممالك السلافيـة (الصقاليـة) وكان القصر الملوكى في تولوز (فرنسا) صورة من صور قصر الخلافة فى قرطبة يتبارى فيه الشعراء ولما انتقل أحد أمرائهم ليتولى عرش فرنسا سنة ٩٩٩ ادخل ماأخذ عن العرب تبدلا حقيقياً فى باريز من حيث الأخلاق و[illegible] .

[illegible] الصليبية ([illegible] — ١٢٩١) فقد ساعدت على هـذه الحركة [illegible] الفرنسيس خاصـة بالعرب فى الشام ومصر ولا [illegible] فى الشرق وكان لفريدريك الثانى

المعاصر لهذا الأمير حرس من العرب ويستقبل في قصره أبناء ابن رشد الفيلسوف وكان علم الفلك والرياضيات والعلوم الطبيعية تقرأ في كتب العرب

ولما انجلى العرب عن اسبانيا (١٤٠٣ — ١٥٧١ — ١٦٠٩ م) جاءت قبائل عربية كثيرة الى فرنسا من جديد ونشرت فيها أسماء بيوت جديدة وكذلك كان من فتح الجزائر فانه أدخل في الافرنسية ألفاظاً عربية كثيرة ولا شك ان هذه الصلات التي لم تنقطع مدة قرون بين العرب والفرنسيس قد نقلت الى الافرنسية عدداً وافراً من التعابير والمصطلحات الشرقية

ومن البديهي ان العرب كانوا سادة البحر المتوسط في القرن السابع وبعده فاعطوا الطليان والفرنسيس الالفاظ البحرية وكان الطب العربي أساس علم الطب عند الفرنسيس أخذوه مع كثير من الألفاظ العربية . وكان ملوك فرنسا من أهل العنصر الثالث يقلدون العرب في كل شيء والعرب نقلوا الى الغرب علوم أثينة ورومية وعنهم وبلغتهم وصلت الى أوربا بل الى أهل المدنيات الحديثة . ويقول الأب لامنس [1] في كتابه ملاحظات على الالفاظ الافرنسية المشتقة من العربية ان نحو تسعمائة لفظة أخذتها اللغة الافرنسية عن العربيـة وأدخلتها في معجمها واستعمالاتها .

هذا مثال صريح من اختلاط الامتين منذ القديم وكان من أثره تأثير لغة العرب في لغة الفرنسيس ونقل كثير من العادات الشرقية العربية الى أواسط أوربا وغربها والفرنسيس ولا سيما سكان الجنوب أشبه بالعرب في طبائعهم ومناخ بلادهم . لاجرم ان طول العشرة تؤثر في كل مظاهر الحياة في الأمم ولما كانت الشعوب اللاتينية أقرب بلادها من بلادنا في أوربا وآسيا وأفريقية كانت سابقة الأمم الى الحضارة ومنها انتقلت هذه الى جرمانيا وبريطانيا وغيرها . فكان تأثرنا بها وتأثرها بنا أكثر من غيرنا من أمم الشرق الكبرى كالصين والهند فسبحان المعز المذل المحول المقلب

(1) Lammens ; Remarques sur les mots français dérivés de l'arabe

الامراء العلماء

٧٣

دعانى صديق الأستاذ المسيو كابريل فران من رجال المشرقيات فى باريز الى حضور محاضرة له يلقيها فى مجمع الابحاث الاوقيانوسية. وهذا المجمع العلمى يبحث فى كل ماله علاقة بالشؤون البحرية أنشأه من ماله ألبر الأول أمير موناكو وهو من فضلاء رجال البحر خدم العلم البحرى خدما جلى، ومما قام به انشاء مسابير (جمع مسبار) لمعرفة أعماق البحار قاس بها الى تسعة آلاف متر فى المحيط الباسيفكى وأخذ ينفق عن سعة زائدة على هذا المجمع وغيره مما يخدم علم البحار وخص بذلك فرنسا لأنه تعلم في مدارسها وتأدب بأدبها وبلاده صغيرة لاتحتمل هذه العناية ومساحتها عبارة عن بضع مئات من الكيلومترات، وأهلها بضعة ألوف من الخلق فقط لا يزورهم الا قاصدهم.

وأول ما يذهب الذهن اليه عند دخول هذا المعهد الفخم، ومعرفة تاريخ امارة موناكو وأميرها وافضاله على العلم يخلد بذلك اسمه ويخدم البشر

ترى ماذا عمل أغنياء الترك وأغنياء العرب للخير العام منذ أربعة أو خمسة قرون الا اذا كانوا استحلوا أكل الأوقاف وعرقوا لحم الفلاح، ونهبوا أموال الأمة بالطرق المحرمة فى العقل والنقل، ومع هذا يحترمهم بعض الاغمار ويسجد لسلطانهم عبيد الدنيا وان لم ينالوا من أفضالهم ونوالهم وكان من حقهم أن يجبهوهم ويرذلوهم لانهم كالحلمة الطفيلية فى جسم أمتهم يغتذون من دمائها ولا يعطونها واحداً من مئة مما يجب عليهم اعطاؤه

بجاد عليكم بأموالكم وتعطون من مئة واحدا

وخلاصة محاضرة المحاضر السلامة البحث فى البحرية فى الشرق، ولا سيما ... ادب ... وجزره وسواحل بلاد العرب وبحر القلزم والأبيض والظلمات

وذكر أيادى العرب على علم البحار فى القديم وبعض الاسفار البحرية التى قام بها الملاجون من أجدادنا فى القاصية وأثمرت الثمرات المطلوبة الى أن تطرق فى الكلام الى ذكر ابن ماجد الملاح البصرى الذى قام بأعمال بحرية كبرى فى عهد الملاح البورتقالى فاسكو دى غاما الذى كان أول ملاح مهد سبل السير فى البحار على الغربيين وقال ان الملاح العربي اجتمع بالملاح البورتقالى وأظهرله نواقص سفينته وعلمه مالم يكن يعلم .

ولابن ماجد هذا كتاب فى الملاحة دخل دار الكتب العربية بدمشق نسخة منه وتكلم عليها فى أحد أجزاء مجلة المجمع العلمي العربي ، وظفر المحاضر بنسخة منه فى مكتبة باريز وهو الآن آخذ بطبعها بالعربية كما ألفها مؤلفها لانها حوت من الحقائق عن طرق البحار قبل ايجاد البخار ولا سيما فى المحيط الهندى وما يلزم للابحار فيه وما يعترض في طريق سالكه من الجزر والتيارات والأهوية وغيرها ما هو العجب العجاب

وبعد أن أفاض على هذا النحو تعرض لذكر الخليفة المأمون العباسى وعدد ماله من اليد البيضاء على العلم ، وذكر كيف جمع العلماء على اختلاف نحلهم من أقطار البلاد التى كانت مشهورة بارتقائها فى عهده للبحث فى العلوم والصناعات وعلمهم بعمله التسامح وكيف لما غلب ملك الروم طلب اليه أن يسلمه كتب العلم التى عنده وهو عمل مدهش لم يعهد لملك ولا لحكومة ان طلبت مثله من عدوها في القديم ولا فى الحديث ، وبه يعرف قدر المأمون وتفانيه في خدمة الانسانية .

وقال ان عملا واحداً مما عمله المأمون أفضل مما ينسب لوالده الخليفة هارون الرشيد من ليالى ألف ليلة وليلة .

ذكر هذا والحماسة قد بلغت منه مبلغها حتى سرى من كهربائيتها شظايا نالت قلوب الحضور فى ذاك البهو البديع ، وبعدان استرسل على هذا النحو فى الكلام على مدنية العرب ، وان على الاوربيين أن يعرفوهم أكثر مما عرفوهم تفضل

وذكر اسم كاتب هذه السطور وذكر له عمله العلمي فى بلاده ، ثم علق آمالا على دمشق وسورية وخدمة علمائها للعربية والمدنية ورد على من قال من الانكليز ان الغرب والشرق لا يجتمعان وقال بل يجتمعان ويتمازجان وينتفع أحدهما بأخيه كما هو حاصل الآن وكلما تعارفا زالت الوحشة وزادت الفائدة والعائدة وختم المحاضرة بعرض بعض صور السفن الشرقية القديمة والحديثة بالفانوس السحرى وانفض الجمع وكان من طبقات مختلفة

قلت وكلام العالم المحاضر على الشرق والغرب خاصة كلام من ذاق وفهم وعاشر وسامر . ومعظم أرباب الفهم من علماء المشرقيات في الغرب على هـذه الصورة فى تقريب القلوب ، ورفع غشاوات الجهل والتجاهل ، والامم لا تتحد الا باتحاد المقاصد وبالتساند والتعاضد والشرق محتاج الى الغربي والغربى كذلك وهذا لا يتم الا بالاختلاط ، وأخذ المتأخر عن المتقدم ما تشتد حاجته اليه من العلوم والصناعات .

احتفال الفرنسيس

بالادب والعلم

٧٤

فى الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم الثالث من شهر تشرين الثانى سنة ١٩٢١ احتفل المجمع العلمى الفرنساوى تحت قبة مازارين المشهورة وهى مقره فى مدينة باريز بقبوله للمسيو جوزيف بديا عضواً فى المجمع العلمي خلفاً للمسيو ادمون رستان المتوفى منذ ثلاث سنين وقد حضر الاحتفال جمهور كبير من العلماء والادباء والساسة والقادة والأمراء والفضلاء من أهل هـذه العاصمة لا يقل [illegible] مائة انسان وكان فى مقدمة الحضور المسيو ميلران رئيس الجمهورية

الافرنسية بصفته أحد أعضاء مجمع العلوم الأخلاقية والسياسية لا بصفته رئيساً للجمهورية ، وجلس على كرسى الرئاسة المسيو بارتو مدير المجمع العلمى ، وناظر الحربية والمسيو فريدريك ماسون أمين سر المجمع الدائم ، وجلس أعضاء المجامع الخمسة فى مقاعدهم ناحية .

تكلم العضو الجديد أولا فذكر طرفاً من منشأه ، ثم أفاض فى بيانه ما شاء وشاءت الاجادة وعدد أيادى سلفه الشاعر روستان على الأدب ، وما كان من احسانه فى شعره وروايانه الشخصية التى أدخلت فى التمثيل الفرنساوى روحا جديدة أقر بها أكبر النقاد والباحثين من أهل العلم حتى من كانوا يقاومون سراً شهرة الشاعر ويضعون العثرات فى سبيل نبوغه

ولما استرسل على هذه الصورة من تحليل روح سلفه الشعرية والأدبية ، وأورد شيئاً قليلا من قصصه وأشعاره ومراميه السامية جاءت النوبة للمسيو بارتو فأجاب العضو الجديد معدداً له خدمه العلمية ونشأته ومن تخرج به من الناشئة منذ عشرين سنة وهو أستاذ فى مدرسة دار المعلمين العالية ثم أستاذ فى كوليج دي فرانس ، ثم تطرق الى ذكر الشاعر روستان وأشار الى حسنات أخرى له وحلله من وجهة ثانية تحليلا كياويا أدبياً ببيان هو آخر ما وصل اليه البيان الفرنساوي بعد معالجة أهله له عشرة قرون

دهشت وأيم الحق بما تلا العالمان من خطابيهما اللذين تمثلت لى فيهما الآداب الفرنسوية بأجمل مظاهرها والبلاغة الحقيقية التى أخذت باهداب الموضوع من عامة أطرافه فكان اللفظ فى كلامهما على قدر المعنى والتفنن فى الابداع بالغاً الغاية فى النيقة ، وقد حوى كلامهما من جمال الأسلوب وسحر البيان ما يشهد لهذه الأمة بأنها سابقة الأمم الغربية بأسرها فى البيان والتبيان

سمعت ماتلاه الخطيبان وقرأته في المساء بحرفيته بامعان وكنت أود لو أعربه لقراء المقتبس لولا أن فيه جملا تحتاج الى شرح حتى يدرك المقصد منها من لم يتأدب بآدابهم من أبناء العربية على ان ترجمته باساننا نستغرق أعمدة أربعة أعداد من هذه الجريدة على الاقل

بل فيمن يعلم ويعمل . فهل يتعلم قومى يا ترى حتى ينبغ فيهم أمثال أعضاء المجامع العلمية فى باريز وأساتذة جامعة مونبليه حتى يضعوا اسمنا فى قائمة الأمم المتحضرة الحديثة

***

كتب مؤخراً أحد كتاب اسوج كتاباً سماه سر الحكمة الفرنساوية عدد فيه أهم الصفات التى اشتهر بها الفرنساويون فقال (١) الذكاء وسرعة الفهم (٢) العشرة اللطيفة والانسانية (٣) فكرة الاسرة (٤) الفردية وحب الذات (٥) تصلب الرأى (٦) حب الاقتصاد (٧) احترام المرأة

صفحة من تاريخ فرنسا (١)

٧٥

عرفت معظم أمم أوربا بالتنقل فى البلاد من القديم ، وزاد فيها هـذا الخلق مع الحضارة زيادة كبرى . وكلما استفاضت الحضارة كان التنقل أكثر وأفيد . ومن الناس من يحب الهجرة ، فاذا نزل بلداً ليصرف فيـه ابتغاء الكسب أشهراً أو أعواماً ، يستميله حب ذاك البلد فيقيم فيه ، وربما اتخذه بعـد ذلك وطنه ، ونزل فى سبيل حبـه عن مشخصاته ومقوماته ، وتلبس بعادات الأمم التى نزل عليها ، وتعلم لسانها وأصبحت عاطفته مع الزمن عاطفة أهلها . والشعوب الانكلوسكسونية أكثر حباً للهجرة والاستيطان فى أرض الغير من الشعوب اللاتينية ولاسيما الشعب الافرنسى منها الذى عرف بأنه أقل الشعوب هجرة وسياحة لجماله بلاده وحبه لها ولانها بلاد عريقة فى المدنية حوت كل شىء . ومنذ عهد

---

(١) اعتمدنا على كتاب زهرة التواريخ الافرنسية لهانوتو Hanotaux : La fleur des histoires françaises وعلى كتاب التاريخ العام للافيس ورامبو Lavisse et Ram Band : Histoire generale وعلى تاريخ الحضارة لسينوبوس Seignobses · Histoire de la civilisation

الحروب الدينية لم يعهد أنه هجر أرض فرنسا عشرات الألوف من الفرنسيس صبرة واحدة كما فعلوا يومئذ وراحوا يهاجرون الى أرض وجدوا فيها منفذاً لحريتهم الوجدانية .

لا يكفى الانسان أن يعيش ويسمن وان ينتقل من مسكنه فمن فطرته أن يتحرك وينتقل . هو فى حاجة الى الحركة واستعمال رجليه ليذهب الى القاصية يرى غيره ويحادثهم ويأخذ عنهم أموراً ويقايضهم لا فى أصناف السلع والبضائع فقط بل يتبادل واياهم الافكار والعواطف . ينتقل ليستعمل قوته العاقلة وينمي موارده ويوسع دائرته . البشر سواء كانوا منظمين أهل أوضاع وشرائع أو همجا لا يدخلون تحت نظام وسواء دعوا قبيلة رحالة أو أمة ساكنة شأنهم شأن الفرد فان الشعوب تنهض وتضرب فى طول الأرض وعرضها لترى ماذا كان فيها وما يكون .

كان الغاليون أجداد الفرنسويين مولعين بالحوادث يركبون الاخطار لنيل الفخار ولم يكن العالم القديم فى نظرهم من السعة بحيث يكفيهم فى حملاتهم ورحلاتهم ولا عجب فهم من نسل أولئك الشعوب الرحالة التى انتقلت من سهول آسيا وكانت العالم القديم من عامة أطرافه وقد نقلوا الى أخلافهم هذا الدم المتحرك فى أجسامهم ومن القبائل من يحب الاعتصام وراء جباله ومنهم من يحب الاستكانة على سواحله والفرنسيس يحبون الأرض والبحر على السواء . وقد تجلت فكرة التنقل تجلياً غريباً فى الحروب الصليبية فلم يستهو ذلك الفرنسيس فقط بل استهوى معظم أمم أوربا وكثرت العوامل التى قادت الى هذه الحروب وأدت الى غزوة الغرب للشرق على تلك الصورة دهراً طويلا . وكيف كانت الحال فان من هذه الحروب بدأ انتشار الفرنسيس فى الشرق وعرف أهله وعرفوهم .

ولما رجع الفرنسيس فى احدى الغزوات الصليبية من سورية دعتهم فى الطريق مدينة سالرن الى الأخذ بناصرها وتخليصها من أيدى العرب الذين كانوا أخذوا بمخنقها فهب منهم رجلان مهذبان من أهل نورماندیا وهما ولدا تنكريد دى هوتفيل : روبر لافيزى وروجر فأعانوا القوم على تحريرهم ثم انصرفوا ولما كانوا

قد تذوقوا جمال تلك البلاد المنيرة عادوا اليها وأسسوا فيها ملكا طال عهده قرنين وبواسطتها عرف فى صقلية وايطاليا الجنوبية اسم فرنسا وأخلاقها وعلومها كما عرفت فى الشرق كله أو شرق البحر المتوسط وأصبحت بلرم ومسينا ونابل الايطالية اليوم مدناً أفرنسية أمس وترى فى بعض بيع صقلية الهندسة الغوطية الى جانب الهندسة اليونانية القديمة ومعها الهندسة العربية والهندسة البيزنطية وقد تركوا أسماء افرنسية وشارات افرنسية فى تلك الارض التى هى أول مااستعمره الفرنسيس .

أتت عدة قرون والمسألة الايطالية والصقلية والنابولية كانت مما يهتم له ساسة الفرنسيس ودام ذاك الى عهد حروب ايطاليا التى جمعت مصالح الشعبين الافرنسي والايطالي واجمعا على مقصد واحد فى المدنية وقاما بما سمي « النهضة » . أن النورمانديين وهم ملوك البحر لم يقتصروا على دائرة خاصة فى تطوافهم وفتوحهم بل كانت سفنهم منذ أوائل العهد الاطول للقرون الوسطى تمخر عباب البحار الاسبانية والبورتقالية وتجتاز جبل طارق وتسير مع شواطيء افريقية فعرفوا جزائر آسور وكناريا والرأس الاخضر وقيل أنهم أسسوا مراكز تجارية لهم في شاطىء الذهب وشاطىء العاج حيث قامت فى العهد الحديث مستعمرات افرنسية مهمة حتى لقد أدعى بعضهم أن هذه الرحلات البحرية التى وصلها النورمانديون الفرنسيس قد سبقوا بهاخريستوف كولمبس فاتح أميركا الى معرفة العالم الجديد ورأوا أرضاً وهم يشقون العباب على سفنهم الشراعية .

ومن المحقق أن أحدهم جان دى بيتانكور احتل سنة ١٤٠٢ جزائر كناريا باسم ملك فرنسا ولكن حرب المئة سنة فى فرنسا قطعت الرغبة فى مثل هذه الأعمال . ولما كشف فاسكو دى غاما الملاح البرتغالى طريق رأس الرجاء الصالح وخريستوف كولمبس الجنوى قارة أميركا ، فكشفا بذلك طرق العالم الجديد الكبرى كانت فرنسا مستعدة للدخول فى هذا العراك .

كانت المدنية الى ذاك العهد محصورة فى عبر البحر المتوسط فقط ، وقامت

المدنيات القديمة ، وعاشت على ضفافه وفي القرون الوسطى كانت رومية مركز الدائرة العقلية والأدبية في الأرض ومواني البحر المتوسط برشلونة ومارسيليا وجنوه وبيزا والبندقية وسيطات التجارة مع بلاد الشرق .

وعلى عهد النهضة انبعثت المدنية الحديثة من شبه جزيرة ايطاليا التي ورثت مباشرة تقاليد بيزانطية وتراثها . ومالبث القوم في أوربا ان عرفوا بوجود أراضي واسعة وراء ماعرفوه من الشرق ومن بلاد الهند التي طالما طمع فيها الطامعون وأيقنوا أن وراء البحار جزائر وقارات ثمينة وسكاناً ودعاء ينزلون بلاداً كثرت فيها مواد القوى الطبيعية وأصبح معينها فائضاً لا ينضب . ولما عاد أرباب الرحلات الاول من تلك الاصقاع النائية ذكروا لقومهم عظمة البلاد التي رأوها متجلببة بجلباب الغنى والسعادة وحدثوهم عن الانهار العظمى وماتظل من البقاع البكر وعن وفرة المناجم وغناها وعن سهولة العيش في تلك المشاهد الغريبة .

ولم يمض زمن طويل حتى قامت الاساطيل التي كانت حصرت وكدها في التطواف فقط في الابعاد المحدودة في البحر المتوسط تطوف في بحر الظلمات والبحر الغربي كما كان الاوربيون يعرفونه . ففتحت في العالم طرق عريضة للعمل واستسهلت المخاطر والرحلات الطويلة التي تحتاج الى كثير من الاقدام واقتحام العظائم واقتضى لتلك الثروات الجديدة رجال جدد وعقول جديدة . فعلى شواطىء ذاك المحيط قبالة تلك القارة التي ظهرت من العدم الى الوجود نشأت ونمت بطول العراك والنشاط العظيم شعوب قوية بعيدة مجرى الهمم طموحة الى العلاء والنماء فكان للاسبانيين والبورتغاليين المقام الاول المحمود في هذا الشأن ثم للفرنسيس والانكليز ثم جاء الهولانديون والالمان وكلهم من سكان شواطىء بحر الظلمات وبحار الشمال فكانوا على استعداد لاجتياز البحار اذ كانت هذه أملاكهم وعلى ضفافها بلادهم وكانوا عرفوا طرقها أيام تشرد بعض أبنائهم في أسفارهم البحرية فأخذوا يقذفون بأنفسهم في تيار هذا المعترك فاعتمموا ان احتلوا أرض خريستوف كولمبس التي أحرز أمريكو فيسبوسي الملاح القلودنسي

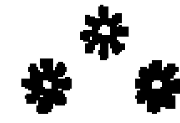
شرف نسبتها اليه (أميركا) فأنشأوا فيها أمماً جديدة ، وأحدثوا مدنيات هي بنات علومهم وآدابهم ، وهكذا قبضوا على قياد المسائل العظمى بين البشر

وبينا كان الفتور يعرو الأمم البحرية ويضجرهم العمل حتى أوشكوا أن يتركوا خوض البحار ويزهدوا في البحر المتوسط وخوض لججه قام مهندس افرنسي مسوقا بنابل من نبوغه وقريحته الى فتح ترعة السويس ، فوصل الشرق بالغرب وعادت قوى الأمم الى نشاطها ، وأخذت كل أمة تفكر بايجاد مملكة لها على البحر كما لها مملكة في البر . وكان للفرنسيس في ذلك شأن عظيم . ففي سنة ١٥٠٣ اكتشف ملاح نورماندي فرنساوي البرازيل وفي سنة ١٥٠٦ وصل ملاح فرنساوي آخر الى الأرض الجديدة وفي سنة ١٥٢٩ وصل آخر الى صومطرا وقد طاف أمثال هؤلاء الملاحين جميع شواطئ أفريقية ، واستعمر الفرنسيس الأرخبيل الفرنساوي . ثم استولوا على كندا ، ومع كل هذا فان البرتغاليين والاسبانيين ثم الانكليز والهولانديين قد كتب لهم النجاح في مستعمراتهم أكثر من الفرنسيس ، فان هؤلاء لم يستطيعوا لاختلاف كلمتهم في الداخل أن ينشئوا ممالك باقية لهم كما فعلت الأمم البحرية الاربع .

بدأت فرنسا باستعمال السنيغال وسيراليون وشاطئ العاج وورينيون وجزيرة موريس في أفريقية وبعض أجزاء الهند في آسيا وجزائر الارخبيل وكويان ولوزيان وكندا وذلك في أوائل القرن الثامن عشر ، وأظهر بنوها استعداداً للاستعمار من المفاداة والجرأة والعمل حتى صح أن يقال ان كل حفنة من تراب تلك البلاد جبلت بدم افرنسي لأنها كانت تكره نزول الغرباء عليها . حتى اذا انتصف القرن كان ريع تلك المستعمرات عظيما جدا .

وكان من نتائج اشتغال فرنسا بحروب لويس الخامس عشر أن فقدت مستعمرتين عزيزتين عليها كندا والهند . وذهب عمل أبطالها وعقل علمائها ومنظميها أدراج الرياح . ولما شغلت بالثورة لم تضع الأزمة أوزارها حتى لم يبق لفرنسا بحرية يعتد بها وفقدت زهرات من مستعمراتها .

وفى القرن التاسع عشر بدأ الفرنسيس بالانتشار فى الاقطار وصحت عزائمهم على الاستعمار فبدأوا باستعمار الجزائر منذ سنة ١٨٣٠ فافتتحوها عقيب حروب هائلة مستخلصين لها كما قال هانوتو من شعب صعب القياد لا يخضع ولا ينقاد ، ثم خفق العلم الفرنساوى على خاليدونيا الجديدة وأرخبيل تاهيتى فى المحيط ، وأخذت فرنسا الكوشنشين من مملكة انام سنة ١٨٦٣ وعلى عهد الجمهورية الثالثة الحالية تم امتلاك الجزائر بالاستيلاء على تونس ، وانضمت الى مستعمرة الرينيون الحقيرة بلادمدغسكر وأراضى الأرخبيل المحيطة بها ثم كومور ومايوت وتومى بى وأضيفت الى خاليدونيا الجديدة بلاد الهبريد الجديدة ، وانضم الى الكوشنشين كمبودج وانام والتونكين الى حد مكونج ، لا جرم ان أهم مستعمرات فرنسا هى على مقربة منها فى شمالى أفريقية ، فاذا تم لها استصفاء مراكش مع ريفها خفق علمها على جزء عظيم من بلاد العرب فى الغرب الأقصى والأوسط والأدنى ، واتصل ذلك بمستعمراتها فى داخل أفريقية وغربيها فتنشر بذلك تجارتها ولغتها وأخلاقها وامجادها وتكثر بأهالى تلك البلاد سوادها



اذا القينا رائد الطرف على تاريخ فرنسا نجدها ظهرت فى مظاهر الحياة فى حالتى بؤسها ونعيمها ولما تمت لها وحدتها واستدارت رقعتها واتسعت فى القاصية مملكتها رأت كما قال مؤرخوها أن المرء لا يعيش منفرداً بل هو يريد أن يحب ويحب وأن الكامل من صدر عن كرم ودعته الحاجة الى التفكر فى خير الناس وأكثر الشعوب قوة من اذا آنست من نفسها ذلك رأت دافعاً منها يدعوها لان تعمل ما حولها وأن تنشر فى الخارج شيئاً من مواردها وأن تفيض ذرواً من فضل نشاطها الذى غرسته الطبيعة فيها . قالوا : ولطالما تكرر لفرنسا بل ربما أتت ذلك مئة مرة فى خلال القرون الماضية أن أثبتت شجاعتها الادبية بأن خفت الى معاونة الشعوب الضعيفة والمغلوبة ومن خانها نكد الطالع وسوء البخت فافتقرت وتقطعت أوصالها فقدمت اليهم معاونتها المادية وبذلت نحوهم عواطفها وكثيراً

ما كانت تهب دفاعاً عن عاطفة أو تأييداً لفكر وقد انتقدتها الأمم الاخرى على هذه الاخلاق وعدوا ذلك فضولا منها ودخولا فيما ليس من شأنها وكثيراً ما كان ذلك يضر بها ويجلب نفعاً لغيرها ولكن هذا الخلق على ما يظهر طبيعى في الفرنسيس فقد فطروا على حب الدعاية و بث الدعوة لما جبلوا عليه من حب التآلف والميل الى الانس والتعارف

حب العشرة حاجة من حاجات القلب والسعى فى التقرب ممن لا يعرفك هو مبدأ حبه لك وحبك له ومن عادة الذكاء الافرنسى ان اشتدت حاجته الى التفاهم والاتصال بالغير ولذلك زعموا أن من أول امتيازات اللغة الافرنسية ان كان فيها من الوضوح والجلاء ماليس فى غيرها من لغات الغرب . وما دام الفرنساوى لم يستول على قلوب من يحفون به لاشراب قلوبهم ما يعتقده حقاً فانه يفتش على أساليب فعالة لافهامهم ما يراه هو بنفسه فالرجل الفرنساوى اذا كانت له عقيدة لايكون سعيداً الا اذا شاركه في ذلك من يحب من الناس ولذلك كثرت أسماء الفرنساويين فى قائمة المجاهدين فى سبيل بث فكر أو نشر مذهب فى كل قرن وتجلى ذلك فى القرون الوسطى فامتزج فى أجدادهم حب الايمان بحب التنقل فى البلدان فكانوا يحجون الأراضى المقدسة ويزورون المعتقدين بحسب عرفهم . وكان لرومية والقدس وسان جان دى كومبوستل ولورد وغيرها نصيب وأى نصيب من تلك الزيارات كما تزور الامم اليوم باريز ورومية وآثينة لانها مهد مدنيات عظمى . وكانت هذه الرحلات فى القرون الوسطى من أعظم الاسباب فى التواصل والتعلم والتحسس فيلتقى الناس على الطريق و يتفاهمون ويقص بعضهم على بعض أموراً ويأخذ أحدهم عن الآخر أشياء . ومن الأغانى القديمة نشأ فى الفرنسيس الميل الى طرد العرب من أرض فرنسا بعد أن استولوا منها على شطر عظيم . من التغنى بتلك الأغاني أولع قومهم بالحج الى بيت المقدس وقبر المسيح وأثرت فيهم مواعظ رجال الكنيسة والرهبان الذين رأوا أن ينشئوا في عالم النصرانية مذهبا أدبيا واحداً باسم الكثلكة الرومانية بتلك الاغانى

استعدت الافكار للقيام بحملات فى القاصية ولا سيما على المسلمين وبذلك نشأت المفتوة والفروسية فيهم والقسورة عندهم هم الذين يفادون بمالهم وراحتهم وحياتهم ليقوموا على الارض بعمل عظيم من الشجاعة والعدل وطيب السريرة ثم فسد هذا المثال من الرجال ولكن كان فى ابان انتشاره من أشرف ماتطمح اليه النفس البشرية من مظاهر الشرف والفخار على رأى هانوتو اذ كان واحدهم يرمى الى مقصد عال من خدمة الدين والعطف على اليتامى والمنهوكين والاخذ بأيدى المقهورين والعاثرين . وسرت العدوى عدوى التجنن بالصليب فى فرنسا كما وصفها كتابهم واستولت على أفئدة السذج وكان داعية ذلك بابا افرنسى الأصل اسمه أوربانوس الثانى وراهب وهو بطرس الناسك وهما اللذان أوقدا جذوة الحروب الصليبية وجمعا الناس فى فرنسا لغزو الاراضى المقدسة وسكانها فهرعوا ألوفاً ألوفاً وقضوا فى الوصول اليها زرافات ووحداناً وبعد سنتين فتحوا أنطاكية ثم بيت المقدس وغيرها وكان معظم الامراء الذين استولوا على شطر من سورية من الفرنسيس ولكن عرضت لهم معايب ومصاعب اضطرتهم بعد سنين طويلة الى ان يرجعوا ادراجهم ولو كتب لهم البقاء لكانت دعوتهم فى البلاد التى غزوها سرت من ذلك الحين بيد أن قواتها خانتهم ومن وراءهم من الامم لم تمد اليهم أيدى المعونة ورفعت فرنسا صوتاً مرات فى حمل الامم الغربية على مناصرتها فلم تفلح فلما جف لديها معين الاقناع لم تر الا الرجوع ونادت بالرحيل

ثم جهزت حملة ثانية بدعوة القديس برناروس وبمعونة ملكهم لويز السابع الفرنساوى وكونراد الثالث أمبراطور المانيا فأخفقت أيضاً وهكذا اشترك الفرنسيس فى الحملات الصليبية الثماني التى حماها الغرب على الشرق . وكانت السابعة والثامنة بقيادة أعظم ملوكهم القديس لويس الذى كان يرى أن يهاجم القوة الاسلامية فى أهم حصونها أى فى مصر وتونس لا فى فلسطين وسورية فاستولى على دمياط ومصر وغلبه المسلمون فى المنصورة وأسروه فى تلك الوقعة ولم يطلق سراحه الا بارجاع دمياط ثم جهز حملة قوية سنة ١٢٧٠ على تونس وهلك

هناك بالطاعون ولكن الفرنسيس لم ينسوا تونس فجاؤها سنة ١٨٨٠ يجددون ذكر ملكهم الشجاع التقى فى نظرهم الذى عبد أمامهم الطرق الى فتحها

وبعد قرنين استخلص العرب من الصليبيين بلادهم فى سورية وابلى الفريقان فى ذلك بلاء حسنا وبذل الفرنسيس خاصة دماء وشجاعة وبسالة واقداما . وقد عادت هذه الحروب على شعوب أوربا بالفوائد العظيمة فحركت دمها ومازجت بين عالمين وعرفت قصور مدنيتها وأدركت أموراً من مدنيات قديمة واتسع أمامها مجال العمل والاقدام وكان فى تجدد الحملات الصليبية تجدد النهضة وكان الاشتراك بها يعد من الكمال البشرى لان الانسان قلما فادى بحياته فى سبيل غاية كل هذه المفاداة المخلصة وكان لفرنسا المقام الاول فى هذا الباب لما أحرزت من المجد فانتشر ابناؤها على شواطيء البحر المتوسط وتنقلوا من الغرب الى الشرق ومن الشرق الى الغرب وبينا كان الفكر الدينى هو العامل الاقوى فى الفرنسيس على عهد القرون الوسطى جاء دور النهضة العلمية ويطلقون اسم « النهضة » على العصر الذى جاء بعد القرون الوسطى مباشرة وليس معنى ذلك أن القوم قطعوا ما بينهم وبين الماضى من الصلات وطلقوا الغابر ليأخذوا بأهداب الجديد الحاضر فان ذلك صعب والتاريخ كالطبيعة لا يعمل طفرة ولا ركضا وعمله تدريجى . وقد اختار من سبقوا من الكتاب أن ينعتوا ذلك العصر بعصر النهضة لانهم كانوا مأخوذين بلطفه الذى يشبه الربيع فان البذور التى رقدت طويلا فى الارض أخذت فجأة تقوى وتنمو فانبعثت المدنية كما تزهر الاشجار فى آذارها وكان العامل الاقوى فى هذه النهضة استمتاع الناس بحياة حرة أكثر من العصور السالفة وتمتعهم بعيش طيب فيه البذخ والرفاهية مظاهرات الى ارتقاء الفكر ارتقاء محموداً والى الابداع فى التصوير والنقش

خلصت القوميات فى أوربا من قيودها . واذ كان عمل الجماعة أقوى وأثبت واشد احكاماً مما كان عليه فى القرون الوسطى أصبح الميدان فسيحا لعرض الافكار الحرة والمقاصد التى تحتاج لنعمل الى زمن ولم يعد الاشخاص فقط ولا

جماعات خاصة ولا المدن ولا النواحي تعمل وتستحصل مشتركة بل كان العامل في ذلك الشعوب والاوطان وكانت المدنية ترمى بجد ذاتها الى مقاصد فتحت لها منافذ واسعة الى العالم والمستقبل وأخذت الامم يختلط بعضها مع الآخر ويتبادلون الافكار والاكتشافات وقد استفاضت في حوض البحر الابيض خصوصاً تجارة مهمة عقيب الحرب الصليبية وسكنت بعض السكون نفحة الطوائل والثارات بين جميع الشعوب البحرية سواء كانوا كاثوليكا أو روماً أو مسلمين . وكانت بين مدن البندقية وبيزا وجنوة ونابل وبلرم ومارسيليا وبرشلونة وبين الاستانة والاسكندرية وتونس والجزائر صلات مستديمة وكان تعليم الملاحين في البحر المتوسط متحداً ويتكلمون لسانا واحدا وكانوا حيث يحلون يعثرون بآثار نخيمة من عظمة القدماء وهم اليونان والرومان . وأخذ الناس في كل مكان يتغالون في أوربا باقامة البيع واعلاء قبابها ونصب التماثيل وأعمال العمران من ملاعب وميادين وحجار وموان وعمد وأروقة وأهرامات . وأنشأ أهل الشمال يجلبون صنائعهم الهندسية وعلومهم العملية يمزجونها بما لدى سكان الجنوب فظهر من ذلك نور أخذ بالابصار أو كاد وحصل من ذلك صنائع سموها بضائع النهضة وكانت النهضة ايطالية بادىء بدء ولكنها تأثرت بمؤثرات سكان الشمال فنشأ في ايطاليا من نوابغ المهندسين والمصورين أمثال ليونارد دي فنسي وميكال آنج ورافائيل لم ينبغ في جميع الامم الاوروبية أمثالهم في عصرهم ولا في الذي بعده

ولم تكف في قيام صنائع النهضة مسحة (ملعقة) البنائين ولا ريشة المصورين ولا مقراض النقاشين . بل زاد ولوع الناس بالتعلم والحكم على الأشياء بفهم وأخذوا يتطلبون من كل مكان الكتب وكانت نادرة ثمينة بحيث بنيطونها الى سلاسل في حزائن الكتب القليلة التي كانت تجعل فيها وكان تطلب الكتب عاما والاسفار الى ذاك العهد تنسخ ببطء واحدا بعد واحد لتحفظ في قلايات الاديار ويخص بمطالعتها الملوك وكبار السادة والأعيان أو أغنياء الرهبان ، أما الطلبة ومحبوا الاطلاع فكانوا يكتفون بتلقيها وتلقينها بالكلام أو بالتصوير

والعالم طامح الى التعلم والمعارف . وفي هذه الاثناء اخترع غوتنبرغ الطبع فكثرت المؤلفات والكتب وتناولتها الأيدى بسرعة فوحدت الافكار والذكاء البشرى ووسعت العقل فتوسع العالم وبينا كان غوتنبرغ يخترع الطبع كان فاسكو دى غاما وخريستوف كولمبس يكتشفان أميركا . فاشتركت فرنسا فى هذه النهضة المباركة العجيبة ، ونزلت فى الميدان الذى فتح أمام الذكاء الغربى وبينا كانت البندقية وجنوة وبيزا فى ايطاليا آخذة بالانحطاط كانت بوردو ولوريان ونانت والهسافر من بلاد فرنسا آخذة بالاستفادة والارتقاء . فكانت فرنسا فى الصف الأول بين الممالك المتحدة الموحدة وكانت لها ميزة على الأمم الغربية لان ملوكها جلبوا اليها من حروب ايطاليا كل ما استطاعوا اقتطافه من ثمرات النهضة وذلك لاختلاطهم بسكان شبه جزيرة ايطاليا قبل غيرهم .

هذه صفحة جليلة من تاريخ الفرنسيس وتنقلهم فى البر والبحر وماأبدوه من مظاهر الشجاعة فى الدهر الغابر بحسب عرفهم وتصورهم وعلى ما تقتضيه درجة ارتقائهم وتطورهم وكيف غزوا الشرق يوم تدنيهم باسم المدنية . واستعمروا بعض أقاليمه يوم نهوضهم باسم المدنية ، فسبحان مبدل الأفكار ، ومكور الليل على النهار .

قصر فونتينبلو

٧٦

عمر الملوك منذ ألف البشر اجتماعهم قصورا كثيرة ذكرها التاريخ ولكن قل فيها ما تعاورت الأيدى على تنميقه مثل قصر فونتينبلو على ٥٩ كيلو مترا من باريز ، ونظن كثيراً من القصور التى اشتهرت في القديم اذا جعلت الى جنبه تعد أكواخا وبيوتاً ضئيلة ، قصر تبهجتك عظمته لان فيه ما حوت العظمة من

المعاني في المباني ، قصر تتجلى فيه الصناعة والهندسة والتفاني في الابقاء على آثار الأجداد ، اذ كان ظاهره كسائر القصور باهت لانه بني بحجر وآجر غير رونقهما الدخان وتطاول الأزمان ، فان في الداخل مالا يكاد يتصوره العقل من آثار الصناعة والتفنن ، زرته في اليوم الثامن عشر من كانون الاول ١٩٢١ والشمس مشرقة تحدج بأشعتها أعاليه وساحاته وغاباته فما أبهج وما أعظم .

لا يزيد سكان المدينة التي قامت بالقرب من هذا القصر على خمسة عشر ألف نسمة وكان يأتيها السياح من العاصمة ومن الآفاق بالمئات يقضون ساعات أو أياما على مقربة من عادياتها التي تدل على ان العظمة تسلسلت في فرنسا منذ زهاء خمسة قرون ، وان ما اشتهر بنيها من سلامة الذوق وقوة الابداع حقيقة لا يتمارى فيها اثنان .

ذكرت فونتينبلو في التاريخ لأول مرة في القرن الثاني عشر وكانت قلعة بادئ بدء وأقام فيها لويز السابع بيعة ووسع سان لويز القصر وأقام فيها شارل الخامس دار كتب وهي التي نقلت بعد الى باريز وكانت النواة التي منها ألفت دار كتب الامة في عاصمة الفرنسيس . ولقد كان فرانسوا الأول هو الموجد الحقيقي لقصر فونتينبلو فخاطب كبار الرسامين والنقاشين والبنائين من الطليان فلم يجبه منهم الا أناس كانوا يعدون في الطبقة الثانية بعد ميكل آنج وليوناردي فنسي ورافائيل وظل هنري الثاني يداوم على العمل الذي بدأ به سلفه فرنسوا الاول

وكان هنري الرابع بعد فرانسوا الاول أكبر بان لقصر فونتينبلو . فعمل في بنائه منذ سنة ١٥٩٣ الى سنة ١٦٠٩ وأنفق فيه مليونين ونصف مليون ليرة وجاء لويز الثالث عشر وعمل أيضاً في بناء القصر ، وكان لويز الرابع عشر يأتي فونتينبلو كل سنة وأصلحت ماري انطوانيت بعض جهات من القصر . ولما نشبت الثورة الفرنساوية ترك القصر زمناً . ولما قبض نابليون الاول على زمام الملك أنفق فيه اثني عشر مليون فرنك وأصلحه . وفي هذا القصر كتب هذا الامبراطور صك تنازله عن الملك سنة ١٨١٤ وفي قاعة كتب القصر اليوم

مسودة هذا الصك وفيه ودع حراسه فسمي المكان الذى خرج منه صحن الوداع وقال فى مفكراته عن قصر فونتينبلو ، وهذا ولا شك منزل الملوك بل منزل العصور .

وما زال القصر منذ وجد يزوره ملوك أوربا ويأتون اليه في الاوقات الرسمية ويغشاه رجال فرنسا من ملوك ورؤساء جمهورية زائرين متصيدين

يتألف القصر من عدة أبنية مختلفة بنيت كما رأيت فى مختلف العصور بدون رسم خطة معينة ، ولذلك دعى بمجمع القصور وفيه نموذج من مدنيات خمسة عصور فى البناء والفرش والآنية والرسم والنقش وكل قصر بل وكل شعبة من قصر صرفت فى تزيينها القرائح وبذلت في ايجادها الاموال . فترى فيه سرر الملوك والملكات ، وغرف زينتهم ومطالعتهم وجلوسهم وأماكن حظياتهم ووصيفاتهم وكتمة أسرارهم وغرف انتظارهم زوارهم وقاعات استقبال العظماء في المواسم وجوقات موسيقاهم ومحال رقصهم ومناضدهم ومقاعدهم ومتكآتهم وساعاتهم وأدوات تسليتهم وخزانة الكتب التى وضعت فى ممشى طوله ثمانون متراً فى عرض ستة أمتار وزيادة وفيها نحو ثلاثين ألف مجلد مذهبة وكثير من المخطوط القديمة والعاديات فى النقش والرسم مالو أردت وصفه لاستغرق عدة صفحات .

أما الغابات المحيطة بالقصر فهى من أجمل ما خلق الخالق وتعاورته الايدى بالتحسين وساحتها ١٧ عشر ألف هكتار ولها ألفا كيلو متر من المماشى والطرق و ١٦١٦ هكتاراً للمتنزهات و ٤٠٠٠ هكتاراً من الصخور وفيها من أشجار السنديان والزان والصنوبر والسندر ، والسنديان أكثر الشجر وهى من العظمة والضخامة على جانب لا تشتغل الفأس فيها الا مرة كل ثلاثين سنة وريعها نصف مليون فرنك ؛ ولكل ناحية من هذه الغابة مزايا وفضائل أفردها القوم بالتأليف وغالوا في درسها والبحث فيها ولا سيما أحجارها وأشجارها . ومن أشجارها ما دعوه باسم آلهة القدماء تنويها به وجعله المفكرون متنزههم والشعراء مدعاة

قرائحهم والعاملون سلوى نفوسهم ، وأدهش ما يدهشك في القصر : والغابة فى فونتينبلو تسلسل الفكر فى الفرنسيس وتفانيهم على اختلاف الادوار التى أتت عليهم من ملكيات مطلقة ومقيدة وجمهورية فى الاحتفاظ بالقديم والعمل على تحسينه وتزيينه لتذكر الاحفاد ماعمل الاجداد . فلاعجب اذا كانت فونتينبلو بهجة النفوس وهى خلاصة قرائح كثيرة وأيد لا يعلم عددها . فونتينبلو احدى العاديات التى تفاخر بها فرنسا وحق لها أن تفخر لأنها تنم على عظمتها وثروتها .

الموسيقى الغربية

٧٧

مدعاة السرور ، مجلبة النشأة ، مسلاة الحزين ، مفرجة الكروب ، مهونة الخطوب ، عنوان الحياة الداخلية ، مظهر الاخلاق القومية ، مصورة الفواعل النفسية أصدق عامل على التحمس والتحسس ، أقوى دافع الى النهوض ، معلمة أنفع الدروس الشريفة . مذكرة بالمطالب العالية مما لا يعلمه الضعف ، دافعة عن مزالق الشباب وطيش الحلوم ، فيها يتجلى العقل البشرى الفعال بأشارات وأى اشارات ، تعمل عملها فى الافئدة والوجدانات

هذه هى الموسيقى وهذا ما يتوخاه الغربيون منها ولذلك تجدها فى كل صقع من أصقاعهم نغمة ورنة ، وفى كل مملكة من ممالكهم وتراً خاصاً ، بل أوتاراً تهز القلوب ، وتعمل عملها فتقوى الضعيف . وتجبر الكسير ، وتهيب بالمستمع الى ميدان المضاء وتمكن فيه أواخى الحزم والعزم ، وتطرد عنه الوساوس والهواجس ، وتجعله فى الذروة يشرف على التصورات البشرية ، فيتدبرها في سره ، ويهيم ويتعلم ، ويطرب ويسلو .

تدخل الموسيقى عندهم في معظم مظاهر الحياة الخاصة والعامة ، فلا مجتمع

دينياً كان أو مدنياً ، ولا ملهى ولا مسرح ولا ملعب ولا مرقص ، ولا مطعم ولا فندق ، الا وللموسيقى فى الغالب دخل كبير فيه يتعلمونها صغاراً ، ويرضعون حبها مع اللبن ، لان الحاجة اليها مغروسة فى الفطرة البشرية ، والدافع اليها الطبع أولا ثم التطبع ، فكيف بهما اذا اجتمعا ، ولذلك يحسنها أو يستحسنها رب الاسرة وصاحبة البيت ، والطفل والابنة ، والفتى والفتاة ، والسيد والمسود ، والموسر والمعسر ، والعامل والماهن ، والكبير والصغير ، والقائد والجندى ، تساووا فى حبها ، واجمعت كلمتهم على عموم نفعها . والاخذ بحظ منها .

قال لى من طاف أميركا الشمالية وتوغل فى ريفها وقراها ان أصغر فلاح فيها يملك آلة البيانو يطرب عليها هو وأهله وأولاده وأصحابه . وقالت مدام دى ستايل انك لاتجد فى سكان المدن ولا القرى ولا الجنود ولا الحراثين من لا يعرف الموسيقى فى المانيا ففى أحقر كوخ تسمع صوت الموسيقى على نحو ماتسمع ذلك فى ايطاليا الا قليلا والاولاد والطلبة يطوفون يوم الاحد فى الشوارع يمجدون الله وينشدون الاناشيد الحماسية

آلات الموسيقى متحدة في الغرب ولكن الصور التى تخرجها مختلفة وان أسمعوك فى بلد ماهو من صنع غيرهم فتسمع فى كل أمة ألحان رجال الفن في أمة أخرى ، وأمم الغرب مهما تباعدت في المقاصد وتباينت فى المصالح لاتجدها الا متفقة فى تمجيد المغنين من الموسيقيين يضربون أوتارهم غير نكير ولو بلغ الحقد أو التنافس أو التنابز مداه فى صدورهم فليس لهم شئ أجمعوا على تقديسه مثل نغمة تصدر عن يد صناع ولحن يلحنه نفس نفيس

الشرقى أمام الموسيقى الغربية كالمقلد بالسمع . أو كمن يسمع بأذن غيره يطول به العهد حتى يطرب لما طرب أهلها بها لان موسيقاه وأغانيه تخالف موسيقاهم وأغانيهم ولانه ألف نغمات أخرى . وان لم يفهمها ولكنها قريبة من مصطلح قومه مؤتلفة مع مناخه ومحيطه . ودرجة رقيه وتاريخه . فالعربى يطرب من الموسيقى التركية وبالعكس للمجاورة والألف . والفارسى يحب الموسيقى العربية

لتمازج تاريخ أمته بالعرب . وكلما قويت الروابط بين الامم . وسهلت الشقة وارتفعت تأثيرات التخوم . والمبعدات بين القلوب . زاد طرب الجار من نغمة جاره .

سمعت الموسيقى فى أكثر بلاد الغرب فى ايطاليا والنمسا والمجر وسويسرا والمانيا وانكلترا وفرنسا وهولاندة والبلجيك واسبانيا فكان طربى بالموسيقى الاسبانية اكثر من غيرها لانها تترشح من الانغام العربية لتمازج تاريخ العرب بتاريخ الاسبان ، وكذلك تطرب النفس بالموسيقى التركية ، لأنها ترشح من موسيقانا ، وقد أتت قرون والعرب والترك متلاحمون فى البلاد ، مشتدة روابطهم ، متحدة كلمتهم

ولقد طربت من موسيقى أهل الغرب الأقصى وأهل الجزائر وأهل فارس طربى من الموسيقى الشامية ودون طرب كل عربى بالموسيقى المصرية لأنها أرقاها وقد بلغت بالنسبة الى سائر البلاد مرتقاها . تأثرت مرة لنغمة فارسى كان ينشدني قصيدة من نظمه فى الحرية ، وتأثرت مرة من فتاة صربية فى قطار كانت ترنم بنغمتها الوطنية ، وأنا لم أفهم معانى للفارسى ولا الصربية . ولكن ماذهبت اليه النفس من التذكارات ، فعل فيها فعله فأخرجها عن كثافتها ، وسمعت مؤخراً مغنية اسبانية فى مسرح الاولمبيا في باريز تتغنى بالاسبانيولية وتبيع بنفسجاً ترشقه على الحضور فكان منظرها وحركتها ونغمتها من أجمل مارأته العين فى الغرب ، وطربت به حقيقة . وما ذلك الا للأثر الناتج عن تأثيرات الموسيقى ، وما يتذكر الانسان من الوقائع والحوادث

كانت لنا فى بر الشام موسيقى راقية فكادت تندثر لزهد الناس فى هذا الفن لأنه دليل ارتقاء الأمة ، والأمة كانت مشتغلة بنفسها ترجع القهقرى ، وكان المشتغلون بهذا الفن مرذولين ممتهنين ، فبينا نجد الموسيقار والمنشد فى الأمم الأخرى عشير الملوك والرؤساء والعلماء منعما مرفهاً اذا مات مشى في جنازته

العظماء — كما فعل الفرنسيس بجنازة سازه ساين الموسيقار — وعدوه من المفضلين على أمتهم ومجدوه وقدسوه ، ترى مثيله فى أرضنا مهاناً لا يؤبه له ، ان أخـذ بفنه عاش فقيراً ومات خاملا حقيراً ، وكم من نابغة فى الموسيقى عندنا تخلى عن هباته خشية ان يلحق به العار ، وزهد نفسه طوعاً أو كرهاً بما يحبه ، وكان فى مستطاعه أن يبرز فيه لعامه بضيق العيش من هذا الباب ، ولأن صاحبه لا يعد فى الطبقة التى هو حرى ان يعد فيها

جاء دور كان الفقهاء يعدون ساقطاً من العدالة كل من يغنى عندنا ولا سيما اذا كان غنى بالأجرة [1] ويتسامحون مع من يغنى مع جماعة من أصحابه وكانوا يعدونه فناً يفقر صاحبه ولكن الغرب على العكس من ذلك ، يفاخر بهـذا الفن أعظم عظيم ، ولا يستنكف أن يأخذ نفسه بادبه ، ويرزق عشرات الألوف منه ، فاذا مات مات عن ثروة طائلة وخلف لأهله مجداً وغنى .

لغة عامة

٧٨

بعد انتظام سير القطارات والسيارات والمركبات الكهربائية فى البر والسفن فى البحر والطيارات فى الجو اشتد اختلاط الأمم بعضها ببعض وأصبح الشرق لا يستغنى عن الغربى ولا الاوربى والاميركى عن الاسـياوى والافريقى والبشر فى حاجـة تزيد مع الايام مساساً الى التخاطب والتكاتب والتعامل والتواصـل للاتجار والاستثمار والعلم والسياسة وغير ذلك من مقاصد الحياة والاجتماع . أمسى البشر فى حالة من احتكاك أبناء اللغات المختلفة لاسبيل معها الا الى التفاهم لان حياتهم مناط ذلك وهذا يشعر به حق الشعور من ساح فى بلاد بعيدة ونزل على

(١) الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد للادفوى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ

أمم وعناصر متباينة . ان من يحسن الانكليزية أو الافرنسية من لغات الغرب ومن يعرف العربية أو الفارسية من لغات الشرق مثلا قد تسهل عليه السياحة أكثر من غيره فى الغرب أو فى الشرق ولكن هذا غير كاف للاختلاط والتعارف والكسب والتعلم وكم من دانيمركى أو هولاندى أو أسوجي أو فنلاندى أو بوهيمى أو بورتقالى أو مجرى أو عربي أو فارسى أو تركى أو جاوي أو يابانى أو صينى لايحسن غير لغته فاذا جئت تتجر معه أو تأخذ عنه شيئاً من مظاهر الحياة التى لاتجدها عند أمتك تخفق لعدم فهمك وفهمه .

أكثر الطبقات المستنيرة فى الأمم تعرف لغة أو أكثر غير لغتها فالافرنسى المتعلم قد يعرف الانكليزية أو الالمانية والايطالى قد يحسن الافرنسية والالمانية واليابانى قد يتمكن من الانكليزية . ولكن العبرة لا بالفرد بل بالمجموع فانك اذا كنت على بضعة كيلومترات من الجنوب الغربى في فرنسا ودخلت أرض اسبانيا وكنت لا تعرف غير الافرنسية لاتجد فى الشعب من يكلمك الا بالاسبانية وكذلك اذا اتجهت صوب الشمال فنزلت انكلترا أو هولاندة أو السويد أو نروج فالحال كذلك . اليك الحال فى أوربا والخطب فى أميركا أقل لان الأكثرية في شمالها تتكلم الانكليزية وفى الجنوب يتكلمون الاسبانيولية والبورتقالية وفى كندا يتكلمون الافرنسية والانكليزية . أما أوربا وآسيا وأفريقية فهى برج بابل بتبلبل السنة سكانها وناهيك بهذا عائق عن التمازج والتعامل فقد اعتصمت كل أمة فى حدودها وتناغت بحب لغتها ولا سيما بعد تقرير مسائل القوميات وجعلها فى الاغلب المعيار الأول لان يكون علمها واحداً

دعت الحاجة تيمورلنك فى القرون الوسطى وكان جيشه مؤلفاً من عناصر تتكلم بلهجات شتى وهو فى حاجة الى توحيد مقصده فألف لغة الاردو أي الجيش ليتفاهم جيشه فرسخت هذه اللغة المصطلح عليها فى الهند حتى كادت تكون أكثر لغات تلك البلاد انتشاراً وساعدته على فتوحه وارتفعت بها اشكالات عظيمة . واخترع أحد ضباط الروس منذ بضع سنين لغة سماها « الاسبرانتو » أخذها من

أصول اللغات اللاتينية على الأكثر لتكون واسطة التخاطب فى العالم فنجح فى بث اختراعه وعلى كثرة مالقى من معارضة المعارضين أربى عدد المتكلمين بلغته الجديدة على مليون متكلم يتعلمها المرء فى ثلاثة أشهر كما أكد العارفون بها وأصبح الدعاة اليها كثيرين من رجال العلم فى الغرب قائلين أن نحو لغة الاسبرانتو يتعلم فى ساعة ومفرداتها خصوصاً لمن يعرف احدى اللغات اللاتينية كالافرنسية والايطالية والاسبانية والبورتقالية يمكن حفظها فى أسبوع ويكتب بها من يتعلمها عقيب الشهر من بداءته بها على أيسر وجه وفى ختام الثلاثة أشهر يتكلم بها جيداً ويكتب بها فيجيد وقالوا أن من الفوائد المادية والمعنوية التى تنشأ من انتشار هذه اللغة أن تتحاب الأمم فى الغالب لانهم يتفاهمون في الحال على اختلاف مداركهم وطبقاتهم وكم من مشاكل حدثت لسوء التفاهم وكم بغضاء تأصلت ومنشؤها عدم الفهم والتفاهم .

وعلى مافى هذه اللغة الجديدة من السهولة يكون السبق فيها للشعوب اللاتينية أو لمن يحسن فهم احدى لغاتهم وعدد هذه الشعوب في أوربا وجنوبى أميركا يربو على مائتى مليون نسمة يؤلفون كتلة مهمة امام اللغات الانكلوسكسونية والسلافية والجرمانية التى يزيد المتكلمون بها كل يوم لوفرة سكانهم ومواليدهم . أما الانكليز والاميركان والجرمان مثلا فيردون على الاغلب هذه الفكرة فكرة اللغة الواحدة ويقولون كان علماؤنا فى القديم يتخاطبون ويتفاهمون قديماً باللغة اللاتينية وناهيك بها من لغة ونحن اليوم نتفاهم مع الشعوب الأخرى باحدى اللغات الحية كالانكليزية والالمانية والافرنسية ثم أن احدنا قد يحسن التخلص بتعلم احدى هذه اللغات فى بضعة أشهر لسهولة طرق التعليم والتدريس وخير للانكليزى أن يتعلم الافرنسية مثلا لغة حوت أجمل القرائح وهى لسان عشرات الملايين من الخلق من أن يتعب نفسه بلغة ملفقة كلغة الاسبرانتو لا نبوغ فيها ولا عبقرية .

قال أحد الدعاة الى تعلم الاسبرانتو وهو من كبار رجال العلم فى فرنسا بعد

أن عدد مزاياها ولا يتوهمن واهم ان نشر هذه اللغة خيال فى خيال أو تقويم باطل أو حلم حالم فان عدد من يتكلمون بهذه اللغة ويكتبون بها الآن فى العالم مليون انسان فاذا بذلت العناية قليلا بها لا تلبث النتائج أن تزيد والفائدة أن تعم . ولعله يأتى يوم وليس ببعيد يعجب فيه أبناؤنا توقفنا فى الاصطلاح على لغة عامة سهلة التعلم وكيف لم نقبل على الاخذ بها بادئ الرأي . لاجرم أن صغار احفادنا سيتجاوزون حد الاستغراب متى قرأوا الحجج الصبيانية التي يدلى بها المعارضون لفكرة اللغة الواحدة . أن دعاة التقليد واعداء التجديد وانصار الارتجاع واحباب التقهقر والساخرين والمماحكين المدعين والمتعالمين ورثة من كانوا يهزأون بالقائل بدوران الارض ويقبحون مكتشف حركة الدم ومخترع السكك الحديدية والسيارات والطيارات — أن المدافعين عن كل قديم مهما رث وبلى قد اخترعوا لهم اعتراضات صبيانية لقلة الفهم ولذلك نقيم لهم الاعذار فعدم الفهم معذرة وعلة. نعم أنهم لم يدركوا أن تعلم لغة بسرعة خارقة للعادة ليس فى قواعدها شاذة ومفرداتها لاتينية معدلة قد يغير وجه العالم كل التغير وذلك يوم يستطيع البشر أن يتبادلوا العبارات باللسان والقلم وبهذا الايجاد السهل المختصر ينشأ عهد جديد فى صلات الانسانية .

هذا ملخص ما قاله شارل ريشه أحد اعضاء المجمع العلمي فى باريز وقال أن طبقة المتعلمين ممن يصرفون اليوم سنين طويلة فى تعلم لغة أو لغتين غير لغتهم ثم هم لايحسنونها يخلصون من هذا العناء الثقيل وتصرف كل أمة وكدها الى تعلم لغتها الخاصة وتكون اللغة الحديثة معواناً للكل ولا يؤثر ذلك فى سير لغة من اللغات الحية المتعارفة بل تزيد العناية بها أكثر من ذى قبل . قلنا تزيد العناية بكل لغة بين أهلها ولكنها لا تنتشر عند الامم الاخرى فالناس اذا انتشرت الاسبرانتو لا يحرصون كثيراً على تعلم غير لغتهم مهما بلغ من سمو آدابها وحوت من المعارف والفوائد وربما جاء زمن على الاسبرانتو ان تكتب بها كل العلوم وتكون لغة السياسة والتجارة العامة وينبغ فيها الشعراء والكتاب

والممثلون والخطباء فان لم تتراجع اللغات الحية فذلك يقل الراغبون فيها . على أن جامعة باريز نفسها أخذت تلقي دروساً بالاسبرانتو على طالب تعلمها وتجد في بعض البلاد الهولاندية قد كتب على احدى نوافذ دور البريد عندهم « هنا يتكلم بلغة الاسبرانتو » ويوشك أن تكون العناية عامة بهذه اللغة بين الامم على كثرة المقاومين والمعارضين وستأخذ قاعدة بقاء الانسب حكمها على شدة المعارضة والمقاومة في الامور المفيدة موقتة لا تثبت الا عشية أو ضحاها فسبحان من جعلنا شعوباً وقبائل وجعل من آياته اختلاف ألسنتنا وألواننا .

البلجيك

٧٩

كنت أظن بعد أن أصيبت البلجيك في الحرب العامة بوطأة الألمان وخربت ليج وبروكسل ولوفين ونامور ان هذه البلاد أصبحت قاعاً صفصفاً ولما زرت عاصمتها بروكسل في شهر كانون الأول ١٩٢١ رأيت فيها ما أدهشني . رأيت في طريقي جميع القرى والجسور والمحطات التي خربتها المدافع الألمانية قد أعيدت الى أحسن مما كانت ولم يبق لتلك الحرب الطاحنة الا آثار في ماليتها لا يراها الغريب .

أظهر البلجيكيون في حربهم الى جنب الحلفاء (فرنسا وانكلترا وايطاليا وأميركا) انهم من أول الشعوب في أمور الحرب كما هم من أول شعوب العالم بالصنائع والزراعة . ولقد أردت زيارة نموذجات من مدارس البلجيك لازورها كما زرت كليتها الحرة في بروكسل فقيل لي انها كلها تنسج على منوال المدارس الفرنساوية أما أنا فلم أصدق ذلك لأني رأيت للبلجيكيين أسلوباً مخالفاً للألمان والانكليز والفرنسيس في بعض مظاهر مدنيتهم فالأولى أن يكون للمعارف قسط من هذا الخلاف

كان نابوليون يدعو بلجيكا «ساحة حرب أوربا» وسماها الجغرافى اليزه ركاو « ساحة تجربة أوربا » وما من مملكة في العالم ضيقة النطاق الى هذا الحد يبذل فيها أبناؤها مثل هذه الهمم والعزائم . فقد وقفت الامة البلجيكية فى مقدمة العالم من حيث سير الافكار الاجتماعية وهذا وجه مكانتها . نشأ لها ذلك من دووبها على الاخذ بأسباب الارتقاء . وان جميع المسائل الكبرى التى تهيج لها أعصاب الشعوب العظمى هياجاً قل أو كثر لتحدث فى البلجيك غليانا دائماً فيجد لها أبناؤها أساليب من الاصلاح يحلونها بها أحسن حل [1] . فأصبحت البلجيك بحياتها المجتمعة وقوتها الداخلية والخارجية المزدوجة ونشاطها البطىء فى الظاهر ولكنه منتج خصيب لانه متواصل وشجاعتها العتيدة وصحتها المتينة وعقلها الرشيد — أشبه بمعمل اجتماعى بديع .

ولقد تنشأ من ذلك أعراض التسمم الزائل فى ذاك الجسم اذ يصاب بشىء من تأثيراته بيد أن تركيب الشعب البلجيكى قد بلغ من القوة بحيث يحتمل كل ضروب التجارب بدون خشية . ومما لا جدال فيه ان الافكار مهما كان نوعها اذا دخلت بوتقة العقل البلجيكى تتركب تركيباً مقولا وتلبس صوراً حقيقية من المنافع . لا تصنع بلجيكا الماس بل ينحت فيها الماس الخام فيصبح حلياً فى السوق تعمل منه كميات كبيرة . البلجيك بلاد معامل الحديد وتصفيحه وتحليله فهى معامل لكل فكر جديد كما هى معامل للحديد .

البلجيك بلد الصناعات والتجارة وأحسن الاقطار بزراعة تربتها فهى من أغنى بلاد الارض وان موقعها الممتاز بين ثلاث ممالك كبرى هى منبعث أشعة المدنية — انكلترا وفرنسا والمانيا — قد جعلها كالصلة والعائد بين هذه المدنيات والكلمة العامة الشاملة وهى تستدعى أعجاب الممالك الأخرى وتفوق عليها بخصب تربتها ففى أرضها البالغة ثلاثة ملايين هكتار تجد جميع أنواع التربة . ومعادن الحديد لا تبعد كثيراً عن سطح الارض . ولذلك زكت أرضها ونمت صناعتها وتفردت بتجارتها .

(١) بلجيكا الحديثة لهنرى شاريو Henri Charriaut : La Belgique moderne

قالوا أن الاندلس « حديقة الزهور فى أوربا » ويقال فى البلجيك بما فيها من كل نافع تنتجه أنها « مبقلة أوربا » . وليس فى البلجيك الا كل نافع وفيها اللطيف أيضاً . ونعنى بذلك مناظرها الجميلة وجبالها التى يأتيها سياح الغرب كما يأتون سويسرا يلتمسون الراحة والهناء فى ربوعها وحماماتها البحرية المقصودة وعلى ضفاف أنهارها البديعة · وفيها من آيات البناء والنقش والتصوير بدائع مدهشة وفى بروكسل وبروج ولوفين أجمل دور البلديات فى أوربا وفيها من العاديات كل بديع جميل . فى ثلاث ساعات يقطع القطار هذه المملكة وأنت تتنقل فيها من غريب الى أغرب . بروكسل من أجمل عواصم العالم وأنفرس من أهم موانيها واذا وافيت الفلاة والخلاء فكأنك رجعت بضعة قرون الى الوراء

ان الشعب البلجيكى مثال الشعوب الصغيرة بعددها الكبيرة باعمالها فعدده ٧،٥٧٢،٠٠٠ ومساحة بلاده ٢٩.٤٥٦ كيلومتراً مربعاً عداما أضيف اليها من مقاطعتى أوبين ومالميدى بعد الحرب وصادراتها ٣٩٥١ مليوناً ووارداتها ٤٩٥٨ مليوناً وخطوطها الحديدية ٩٤٦٤ وينزل فى كل كيلو متر من أرضها نحو ٢٦٠ شخصاً وهو اقصى مابلغته أرض غصت بسكانها . وهى على البحر الشمالى تمتد على ضفافه من الشمال الغربى ٦٧ كيلو متراً ويحدها من الشمال والشمال الغربى هولاندة على ٤٣١ كيلو متراً ومن الشرق المانيا على ٩٧ كيلو متراً ودوقية لوكسمبورغ الكبرى على ١٢٩ كيلو متراً وتحدها فرنسا من الجنوب والغرب على ٦١٤ كيلو متراً . وامتازت البلجيك بمهندسيها وتطريق الحديد وتوليد الكهرباء حتى ان معظم شركات الكهرباء فى مصر والشام هى ملك شركات بلجيكية كما امتازت بمصوريها ونقاشيها وموسيقيها . ولها فى الشعر والادب مقام محمود منذ استمتعت باستقلالها السياسى سنة ١٨٣٠ ومن كتابها فى أيام الر[illegible]ات [illegible] كانوا يكتبون باللغتين الافرنسية والفلامندية على السواء · وهاتان الا[illegible] [illegible] ا[illegible]د تتقاسمان السكان نصفين ففى الجنوب والغرب الافرنسية و[illegible] والشرق اللغة الفلامندية وهي أشبه بالهولاندية احدى ف[illegible]

ان اختلاف البلجيكيين فى اللغة لم يفصل عراهم فى الوطنية كما هو شأن كثير من الامم يختلفون بلغاتهم ولكن كلمتهم واحدة في سياساتهم . فقد رأينا السويسريين يتكلمون أربع لغات ولايحبون أن يقولوا أربعة عناصر بل جميعهم وطنيون سويسريون لافرقا بين الذى يتكلم الالمانية والافرنسية والايطالية أو الرومانشية . ورأينا الغاسكونيين والبروتنيين والبورغونيين والسافوايارديين والباسكيين وغيرهم يتكلمون لهجات مختلفة وتجمعهم الجامعة الافرنسية وشاهدنا الكاتالانيين والاندلسيين والجلالقة والبيسكانيين يتخالفون فى عاداتهم وطبائعهم ولهجاتهم ثم تجمعهم جامعة الاسبانية فيقال لهم كلهم اسبانيون

ومن الغريب فى البلجيك أن ترى شعباً نازلا فى هذه البقعة الضيقة من الارض ولا تمتزج اجزاؤه بعضها الى بعض ولا يتداسى مشخصاته على حين تجمع بين هذين العنصرية وهم الفالونيون والفلامنديون المصالح المشتركة والخطوط الحديدية والطرق النهرية الى غير ذلك من ادوات التمثيل والامتزاج . بعض المواد اذا جعلتها في بوتقه واحدة تنتهى بفعل الحرارة ان تتحول الى مادة جديدة وتذهب مميزاتها بتة . وان اقليمي الفلاندر وفالونيا اللذان تتألف منهما بلاد البلجيك لتزحهما بوتقة مدنية واحدة محصورة فيختلطان ولكن لا يتمازجان ويظل كل عنصر سالماً من مؤثرات جاره واجتماعهما صنعى لا طبيعى .

رأينا الشقاق بين أهل هاتين اللغتين على أشده فى كل مكان بين الخاصة والعامة ولم يفت اختلافهما فى عضد الوطنية ومع هذا لا ترى فى البلجيك الا فالونيين وفلامنديين مادل على أن الدولة لا تتحول كما أن طبقة الشعوب كذلك فالوطن فى الحقيقة كما قال توسيديد مجموعة مدن وبيوت وقلاع واسوار بل الوطن هو الروح الحية فى المدينة وما تقرأه فى قلوب الوطنيين ان هو الا بقايا مما كان فى قلوب الاجداد .

الى اليوم ترى الخصام على أشده بين هذين الشعبين اللذين يؤلفان شعباً واحداً فى معظم مظاهر الحياة ولكنهم فى المسائل الوطنية لا فرق بين ابن الشمال

وابن الجنوب . فيتقاتلون بالمدى كما يتقاتل أبناء البلاد الحارة كالاسبان والطليان ولكن كلمتهم فى الشدائد سواء على نحو مارأيناهايوم الحرب العامة فكانوا مثال الوطنية كما هم أجمل مثال فى المدنية .

وما برح الخصام بين الفلامندية والفرنسـية مستحكمة حلقاته فقد تحررت البلجيك من هولاندة واسبانيا والنمسا بالتأثيرات الافرنسية واللغة الافرنسية وما زال شعار الفلامندية منذ نحو قرن «حرية بلا لسان» وشعار مدينة أنقرس للنساء الفلامنديات :

لاتسمحن أن يجرى الحديث بالافرنسية
فان لغتنا الوطنية تموت

وبعد فقد أحرز البلجيكيون على الرغم من تطاحنهم فى مسائل الاشتراكية والدين واللسان مقاماً عالياً فى مظاهر الحضارة حتى صحت فيهـم كلمة سـتوارت ميل : « لا تعمل أعمال كبرى برجال صغار » فالعظائم للعظام وعمل العظيم عظيم

زرت قاعدتى البلجيك بروكسل وأنفرس ورأيت منافستهمافي طريق المدنية واختلاف صورها كاختلاف لسانهما واختلفت الى المتاحف والقصور وعجبت من تبريز أهلها فى كل مرة كيف لم يجعلا ولو فى احدى الجامعات البلجيكية (بروكسل ـ لوفين ـ غاند ـ ليج) درساً للعربيـة تبلغ فيـه عن الاقل مستوى الدانيمرك وسويسرا واسوج ونروج فهذه من الممالك الصغيرة التى لا تميل الى استعمار قطر من الاقطار العربية ومع هذا تجـد فى جامعاتها نصيباً من العناية بالعربيـة لغة المدنية القديمة

في البلجيك زهاء سبعة آلاف مدرسة ابتدائية فيها نحو مليون من الاولاد الذكور والاناث ومع هذا تجد عشر أهلها أميين على حين لاتجد فى هولاندة أكثر من ٢٣ فى الالف وفى فرانسا ٤٧ فى الالف . والاحزاب المتغلبة فيها ثلاثة أحزاب حزب الاحرار والحزب الدينى وحزب الاشتراكيين وليس فى بلجيكا كما تقدم روح بلجيكية كما ليس فى المانيا روح المانية ولا فى فرنسا روح فرنساوية

ولا فى انكلترا روح انكليزية . ومامن شعب فى الارض يملك روحاً خاصة بل هو مزيج أرواح مختلفة ولكنها مؤتلفة .

رأيت فى بروكسل صورة جميلة من الحياة أحب أن لايفوتنى تدوينها . رأيت رجلا فى الثانية والخمسين يمسك بيده ولداً عند بائع القند والسكر عمره أربع سنين يبتاع له بقدر مايستطيع أن يحمل ثم التفت الىّ أبوه وخاطبنى بقوله يجب أن يقوى هذا الولد أتدري أى نمرة هو بين أولادي ؟ قلت لا. قال : هو ابنى الثامن عشر فدعوت له ولاولاده بالصحة والهناء . وفى ذلك دليل كبير على كثرة تغالى هذه الأمة بتكثير نسلها ومبلغ العناية باولادها ممايشهده الغريب فى كل دقيقة وهو سائر فى الشوارع فيرى الأم تحمل طفلها وهى سائرة مبتهجة به واذا ركبت فى المركبات الكهربائية أو دخلت فى محال الزحام يوسع لها ليرتاح طفلها وبقدر ماتجد في الشوارع من أبناء العاشرة أو العشرين مثلا تجد من أبناء الاشهر أو السنتين والثلاث ولذلك كان مستقبل البلجيك باهراً لتوفرها على النسل وكان أهلها كثيرين جداً اذا قيسوا بالأرض التى ينزلونها .

عمران هولاندة

٨٠

هولاندة أوندرلاندة أو الفلمنك أو بلاد القاع هى من البلاد الغربية بتركيبها الطبيعى كلها بسائط لاجبل فيها اللهم الا أكمات على الحدود الالمانية لايتجاوز أعلاها ثلثمائة متر أى علو برج أيفيل فى باريز أما من جهة البحر فان سواحلها نازلة عن الشواطىء قليلا ولذلك سميت بلاد القاع .

بلاد صغيرة اذا قست طولها من الشمال الى الجنوب لايتجاوز الثلثمائة كيلومتر ولا يكاد عرضها من البحر الى تخوم ألمانيا يتجاوز المائتى كيلومتر ومجموع مساحتها

السطحية ٣٨ ألف كيلومتر مربع منها ٣٣ ألفاً أرض تصلح للزراعة و ٥٠٠٠ كيلومتر ماء . وتعد من حيث مساحتها السطحية المملكة السابعة عشرة ولكن عظمة الممالك لا تقوم بكبر رقعتها بل بما فيها من مواد العظمة الحقيقية وأدوات الحياة الطيبة .

ليس فى الارض مملكة تحارب المياه والمياه تحاربها مثل هولاندة ففيها على ضيق مجالها أربعة انهر كبيرة وهى الرين والموز والاسكوت والايسل . واقنية لا تكاد تعد تقطع القرى والمدن وتجرى الى كل وجهة وبحيرات داخلية بل بحر داخلى ويسمى الزويدوزيه تبلغ مساحته ٣٥٠ ألف هكتار ويشغل جزءاً مهما من أرض البلاد فهولاندة تعيش بهذه المياه تحمل الى تربتها الخصب واذا غفلت عنها داهمتها من البر والبحر ولا سيما من البحر فاخربتها وهنالك البلاء . ولذلك ترى الهولاندى أبداً فى حرب دائمة مع الحياة منذ العصور المتطاولة . ومن أجل وهذا قالوا : ان الخالق خلق العالم ماعدا هولاندة فان الهولانديين أوجدوها . وقالوا في أمثالهم القديمة التي يتغنون بها : من لم يوقف سير المياه لا يستحق أن يملك ارضا .

وكم من أرض كانت بحراً فردمها الهولانديون فاصبحت مباقل ومباخس وكم من ارض طغا عليها البحر فاصبحت جزراً وجزيرات . عراك منذ القديم بين الهولانديين والمياه وفى هولاندة « وزارة المياه » كما فيها وزارة مالية ووزارة مستعمرات مثلا . خصوصية لها لا يشاركها فيها غيرها ولها فى سطو البحر عليها وسطوها على البحر تاريخ خاص غريب .

فى ثلاثة وثلاثين ألف كيلومتر مربع من الأرض ينزل نحو سبعة ملايين من الهولانديين ويعدون من أغنى شعوب أوربا وأكثرها عراقة فى الحضارة وأشدها اختلاطاً بالأمم وتعلماً للغات المختلفة وقد يحكم على المتعلم فيها أن يدرس الالمانية والانكليزية والافرنسية خلال التعليم الابتدائى والاوسط وقلّ أن تلقى متعلماً لا يحسن التخاطب بلغة أو لغتين ماعدا لغته وكثير منهم يتعلم اللغتين الجاوية والملايو لارتباط تجارة بلادهم بالهند الشرقية

قالوا فى الهولاندى ان بشرته قست وطبعه جف [1] بما يهب عليه من هواء البحر وندى المياه وان الشعوب كالاطفال فكما ان الطفل الذى قاسى العمل يختلف عن الولد الذي عاش فى النعيم والسعادة هكذا الأمم التى عاشت فى الهناء والمجد ليست بتصورها كالأمم التى ارتقت فى العمل وتحت التهديد وضربات الايام والليالى . لاجرم أن ألفة التجارة بل الذوق الطبيعى فى الهولاندى لها يفسر ولو بعض شىء ماتراه فيه من الحذر والاحتياط . فأخذ الهولاندى باسباب الحيطة حتى لايخدعه أحد من الناس قد جعل فيه طبيعة خاصة . ثم ان النزاع القائم بينه وبين المياه منذ الزمن الاطول ومدافعة الناس عن حدوده كحروب هولاندة مع اسبانيا وحروبها مع فرنسا وانكلترا وحروبها الدينية التى كانت على أشد حالاتها فى بلادها نشأ منها هذا الخلق فى الهولاندى خلق الحذر والجفاء . وكان آخر المحن التى أورثته شيئاً من هذا القبيل تجنيد هولاندة ستمائة ألف جندى خمس سنين خلال الحرب العامة حتى نجت من شر الحرب اذ كان الالمان يمسكونها من البر ويريدون أن يدخلوها في الغمار والانكليز وحلفاؤهم يشدونها من البحر يريدونها على الاشتراك معهم فانجاها الله بحيادها وفرط استعدادها .

الهولاندى رجل عمل لامثيل له فى موضوعه ويعتبر الهولانديون فى مقدمة تجار أوربا فان روح التجارة تحمسهم أبداً . للهولاندى رأس موزون بصير كل البصر فى المسائل . عملى لاينظر الى مابعد بل يتقن النظر الى ماقرب منه ويعمل ما يعمل مدفوعاً بعامل الفكر فى الحكمة أو الحساب أو لاستعداد فطرى فيه يدعوه الى أن يتلبس بالعدل فهو عادل والعدل يفضي به الى المساواة التى يحبها .

اشتهر الهولانديون بنظاماتهم الاجتماعية وشركاتهم ونقاباتهم بحيث ترى

---

(١) كتاب روح شعب وحياته أو هولاندة فى العالم لهنرى أسلين : Henry Asselin
L'âme et la vie d'un peuple.. La Hollande dans le monde

بلادهم كلها مجموعة شركات واتحاد جماعات ونقابات فى كل ضرب من ضروب الاجتماع والتعاون . الهولاندى كالصينى يحتقر الوقت بعض الاحتقار ويتجاهل الساعة خلافاً للانكليزى الذى يقول الوقت نقد وترى الهولاندى مع هذا يعيش جيداً ويعمل جيداً ويربح كثيراً ولا يتعجل ويسرع خطاه . هو يصحو من نومه متأخراً ويأتي الى عمله فى الساعة التاسعة أو العاشرة وينصرف فى الخامسة أو السادسة ليستقبل ضيوفه أو يذهب الى التمثيل أو يتعاطى شيئاً من غير أعمال النهار . فالهولاندى لايضبط نفسه بالساعات فى العمل بل يعمل على هنيته عملا متقناً يفيد فى مجموعه .

عرفت المرأة الهولاندية بأفراطها فى حريتها وهى فى ظاهرها ربة دار تعنى باصلاح داخليتها وتتولى نظام مسكنها ومطبخها على أنها فى الحقيقة راقية بعلمها تميل كل الميل للمسائل العقلية وتحب الاطلاع على أعمال الفكر الانسانى تطالع كثيراً وفى أربع لغات على الأقل ولها وقوف على أقوال الحكماء والأدباء والحركة العلمية وتشدو شيئاً كثيراً فى العلم والادب . ولا تعرض بضاعتها من ذلك لأنها الى السذاجة والعزوف عن الظهور .

ولقد فطر الهولانديون على الحرية فلا تسمع منهم ماتسمعه اذا لقيت أحداً من الشعوب اللاتينية كقوله انه سر للتعارف اليك وانه ليفرح اذا لقيك فى منزله ومحله فان هذه الالفاظ لا أثر لها فى حديثه فاذا قال لك الهولاندى أنه يسر ان يستقبلك فى داره أو يحترمك فان كلامه خال من كل رياء يمكنك أخذه على ظاهره لانه الحق المجرد خال من المبالغة والحشو والظرف المألوف عند الطليانى والاسبانى والفرنساوى .

زرت أحد علماء المشرقيات في ليدن وانصرفت من لدنه بعد ساعة لزيارة خزانة جامعتها فتقدم الي أحد تلامذته وخاطبني باللغة العربية بقوله أن السيدة فلانة زوجة استاذى تدعوك مع زوجها غداً الى تناول طعام المساء فى دارها على أن لاتستصحب معك الترجمان . فمن يسمع لاول وهلة بطرز هذه الدعوة

يحسبها جافة والحقيقه أن فيها كل الظرف خصوصاً والترجمان لافائدة له لان الداعى وعقيلته يتكلمان الافرنسية . وطبقة التراجمة في الغالب من احط الفئات فى أوربا فلا يليق أن تجاس الى مائدة أمثال تلك الطبقة الراقية العالمة .

وبعد فقد سبقت هولاندة غيرها من الامم بحريتها ومعاهدها الحرة المنظمة وبينا كان الفرنسيس وغيرهم يقاتلون الملوك ورجال الدين والنبلاء لاستحصال حرياتهم كان الهولانديون قد تخلصوا من ظالميهم ممتعين بحريتهم حتى لقد جلا اليهم من فرنسا وحدها مئة الف برتستانتى فى الحروب الدينية عقيب أن أهلك الكاثوليك في فرنسا عقيب مذبحة القديس برتلماوس مئة الف انسان فى خمسة أيام وهنأ البابا ملك فرنسا اذ ذاك على ما أتاه ورجاله من هذه المنقبة ! وبينا كانت المراقبة شديدة على الافكار في فرنسا كان روسو وفولتير وأمثالهما من الحكماء يطبعون كتبهم فى هولاندة هربا من ظلم الظالمين وسخافة المراقبين .

ومع هـذا فقد كان شارلكان ملك اسبانيا وأمبراطور ألمانيا وسيد سبع عشرة ولاية هولاندية هو الذى حكم على لوثيروس صاحب المذهب البرتستانتى في فورمس وتعهد بسحق الاصلاح الدينى الذى كان سرى في انحاء أوربا وكان العدو اللدود للوتيريين والكالفيين من الهولانديين . وكانت شدة ديوان التفتيش الدينى الذي أقيم فى جنوبى هولاندة أى فى أرض البلجيك اليوم لمصادرة العقول من جملة اتفصال الهولانديين عن ابن شارلكان فيليب الثانى . والبرتستانتية هى المذهب السائد الآن فى بلاد القاع و٦٢ فى المئة من أهلها برتستانت أوانجيليون و ٣٥ كاثوليك و ٢ من الاسرائيليين فالبرتستانتية هى دين الحكومة وفى هولاندة كما في البلجيك أربع جامعات وهى جامعـة ليـدن وأوترخت وامستردام وغرونغ ويكفى أن يقال أن ستة من علماء هولاندة نالوا جائزة نوبل مما لم تحصل عليه أمة من أمم الأرض . وفى هذا برهان على كثرة نوابغهم وعلمائهم فى كل فن ومطلب . زرت أمهات مدن هولاندة والمسافة بينها قريبة فى السكك الحديدية مثل ليدن ولاهاى واوترخت وامستردام وروتردام ورأيت

كثيراً من قراها واكثر بنائهم بالقرميد والآجر لقلة مقالعهم وكم من دار مررت بها وقد كتب عليها أنها عمرت في سنة كذا من القرن السادس عشر وحيثما طفت ترى عناية الامة بالغة باطفالها فتراهم يتنزهون في البرد الكالح ودرجة الحرارة ١٨ تحت الصفر والوجوه باسمة مستبشرة . والهولانديون كثير نسلهم بحيث اكد أحد علماء الاحصاء أنهم سيبلغون ثلاثين مليوناً بعد عشرين سنة

هولاندة والاسلام

٨١

الهولانديون قليل عديدهم ضيق نطاق أرضهم كثيرة فعالهم متسعة مستعمراتهم . شعب في الغرب عدده سبعة ملايين يقود في الشرق أربعة وأربعين مليوناً من البشر . ونعني مستعمرة الهند الهولاندية أوجاوة وما اليها من مئات من الجزائر . وقد شبهها أحد كتاب هولاندة بنطاق من الزمرد يتثنى على طول خط الاستواء . ومساحة هذه المستعمرة ٣١ر٣٥ ميلاجغرافياً مربعاً أي مساحة قارة أوربا ما عدا روسيا الوسطى وروسيا الشرقية [١] تزرع الشاى والقهوة والخيزران والقطن والارز والمطاط وقصب السكر والقرفة والفلفل والصمغ والطبرخة « غوتاپرشا » وجميع أثمار البلاد الحارة والمعتدلة وبقولها حاصلاتها وفيها من المعادن البترول والبنزين والكازولين والقصدير والذهب وغيره .

دخل البورتقاليون هذا الارخبيل قبل أن يفتحوا ملقة سنة ١٥١١ ببضع سنين وجاء الاسبانيون خصماؤهم من الشرق الى جزائر الملوك فلم يلبثوا ان تراجعوا الى جزائر الفيلبين الشمالية وفي أواخر القرن السادس عشر توفق بضعة شعوب من الاوربيين الى بلوغ تلك الجزائر فجاء الانكليز سنة ١٥٩٤ والهولانديون سنة ١٥٩٦

---

(١) مقالة الهند الهولاندية في الموسوعات الاسلاميه
Indes Néer landaises dans L. Encyclopéodie de L' Islam.

ثم الفرنسيون والدانيمركيون والاسوجيون على سفنهم الحربية ليبتاعوا الابازير والافاوية والاحجار الكريمة وغير ذلك من الحاصلات . وكان البرتقاليون والصينيون وسكان آسيا الجنوبية قد احتكروا لانفسهم هذه الاصناف . وفى سنة ١٦٠٢ توحدت الشركات الهولاندية الصغرى وكانت عديدة تتجر فى تلك البلاد باسم شركة الهند الشرقية الممتازة فتوسعت أعمالها خلال القرن السابع عشر وزادت نفوذاً فى السياسة والاقتصاد وامتدت كلمتها من أفريقية الى اليابان وعلى شواطىء جنوبي آسيا وأرخبيل الهند الشرقية وتوطدت أقدامها فى تلك الاصقاع الى أواخر القرن الثامن عشر . وفى سنة ١٨٠٠ نزلت هذه الشركة الى حكومتها عن جميع حقوقها فكان شأن هولاندة مع شركتهم هذه شأن الشركة الانكليزية التى فتحت الهند . وكانت الشركة الهولاندية تدير شؤون البلاد وتعقد مع بقايا أمراء المسلمين محالفات ولما فقدت هولاندة استقلالها فى حرب نابليون انتقلت أحكام هذه المستعمرة الى أيدي الانكليز ثم تقرر فى مؤتمر فينا إرجاعها الى هولاندة فأخذت تنظمها وتستثمرها وفى سنة ١٨٢٥ حدثت فيها ثورة اضطرت معها هولاندة الى أن تقوم ببعض الاصلاحات وتأصلت كلمتها فيها فتوطدت العلائق بين الوطنيين والهولانديين ومعظم السكان من أهل الاسلام بلغوا (١) خمسة وثلاثين مليوناً وفيهم كثير من الهنود المولدين وألوف من العرب الحضارمة أهل حضرموت وقد وصفوا كلهم بالذكاء وأخذوا يقتبسون المدنية الغربية وان من أبناءهم من أدهشوا باستعدادهم الفطرى أقرانهم من الهولانديين في جامعات أوترخت وامستردام وليدن ومدرسة الادارة فى دلفت

قام استعمار هولاندة بين الجاويين على تبادل المنافع وارتبط الهولانديون بالجاويين برباط المصاهرة وقد يصبح الهولاندى وأولاده جاويين أكثر مما يصبح

---

(١) سياسة هولاندة الاسلامية لسنوك هرغرونج
J. Snouck Hurgronje. Politique musulmane de la Hollande

الجاوى هولانديا . وذلك لما عرف به الجاويون من التسامح وحب السلام ولما عرفت به ادارة هولاندة من اللين فى الجملة بعد شدتها خلافاً لما تعامل به دول الاستعمار ـ فيما قيل ـ البلاد التى يسكنها سكان من الجنس الاسود أو الأحمر أوالأصفر . ومن دواعى الفخر لهولاندة مما يصح ايراده دليلا على حسن استعمارها ان سكان الهند الهولاندية مازالوا على نمو متصل خلافاً لما عرف من أن الشعب المظلوم المستعبد يقل نسله ويتراجع أمره فان سكان جزيرة جاوة وحدها وهى أكبر تلك الجزائر وأعظمها جمعاً بين المدنية الاسياوية والمدنيــة الاوربية قد بلغ فى الأحصاء الأخير ثلاثين مليوناً منهم ٢٥٠ ألفاً من الصينيين و٦٥ ألفاً من الاوربيين وكلهم من المولدين فى الجزيرة على حين لم يكن عددهم سنة ١٨٩٥ سوى خمسة وعشرين مليوناً

ترك الهولانديون للمسلمين حريتهم الدينية يحجون ويزكون ويقيمون الصلوات ويحلون مشاكل الزواج والطلاق وغيرها على مايشاؤن . والغالب ان الاسلام دخل الجزيرة منذ سبعة قرون فتم اسلام أهلها فى ثلاثة قرون وأخذ بعض شبانها منذ قرنين ونصف قرن يرحلون فى طلب العلم الى مكة المكرمة ويعودون الى بلادهم ينشرون كلمة التوحيد بين الوثنيين والبوذيين فيزداد الاسلام انتشاراً بواسطتهم وبواسطة التجار وهم ناجحون فى هذا الشأن أكثر من الأديان التى لها دعاة منظمون وجمعيات تنفق للدعاية الى مذهبها عن سعة .

وقد انحصرت تجارة الداخلية بالحضارمة والوطنيين على الاغلب والتجارة الخارجية بالأوربيين ولا سيما الهولانديين . وللعرب هناك زهاء بضع صحف عربية تكتب بلغة لا بأس بها وهذا دليل على كثرة من يقرأون العربية ، وكما راعت هولاندة قاعدة حرية الاديان مع الأكثرية من المسلمين رخصت لدعاة البرتستانتية والكثلكة بانشاء مدارس فى تلك البلاد فاسسوا زهاء ألفى مدرسة فيها ١٥٠ ألف طالب وفي مدارس الحكومة أكثر من ٢٧٠ ألف طالب وربما بلغ عدد تلاميذ المدارس فى تلك المستعمرة ٤٣٠ ألفاً اذا حسبت المدارس

الخاصة ، وهناك مدارس عالية لتدريس الطب والصنائع النفيسة والحقوق وغيره تتمة سلسلة التعليم العام . والمستعمرة متصلة مع سائر موانى الشرق والغرب بسفن تجارية آية بنظامها ونظافتها . ويتكلم بالهولاندية كثير من الوطنيين من تجار وموظفين ومتعلمين بحيث انتشرت لغة هولاندة هنا انتشارها فى جنوبى أفريقية بواسطة من توطنها من الهولانديين .

فى هذه المستعمرة اليوم حركتان سياسيتان وهى عبارة عن حزب كبير يدعو الى الاستقلال الادارى فى البلاد لاعتقادهم ان الوطنيين أصبحوا قادرين على رؤية شؤونهم بأنفسهم وحزب صغير وهو مؤلف من هنود ووطنيين ، يقول بالاستقلال المطلق لتلك الجزائر ونزع ربقة الحكم الهولاندى ، وهناك أناس يخافون من هذا الاستقلال اذا تم مخافة أن يرفع على البلاد العلم اليابانى أو الانكليزى يوم يرتفع عنها العلم الهولاندى

ولا تعمد هولاندة فى الغالب الى القوة فى قتال هذه الأفكار التى تضر بمستقبلها خصوصاً وهى تعرف ان الجاويين ليسوا أمة حربية ، وقد جعلت لهم جيشاً مؤلفاً من أبنائها وهم نحو ثلثه لحفظ النظام . ولهذه المستعمرة أسطول حربى خاص بها . وقل ان حدثت فى الماضى حوادث بين المستعمر والمستعمر كما حدث فى الهند والجزائر مثلا اللهم الا ثورة سنة ١٨٢٥ ومعظم شؤون الهند الشرقية بأيدى الوطنيين ولا يزال هناك بعض أمرائهم من المسلمين الذين أبقت عليهم هولاندة يتمتعون بحقوقهم الا قليلا وترجع الاعمال الكبرى الى أناس من الهولانديين والحاكم هولاندى يعينه ملك بلاد القاع .

هولاندة والعرب

٨٢

سألت العلامة الأستاذ هوتسما Houtsma مدير دائرة المعارف الاسلامية وعضو المجمع العلمي العربي وناشر كتاب زبدة النصرة للعماد الأصفهاني وتاريخ ابن واضح اليعقوبي والاضداد لابن الانباري وغير ذلك من كتب العرب — عن منشأ الاستشراق العربي في هولاندة والسبب الذى دعا اليه فأجابني حفظه الله وهو الحجة الثقة في هذا الباب بما تعريبه : « عملا بوعدى أرسل اليكم عجالة في مبدإ الدروس العربية وارتقائها ويرد ذلك الى الزمن الذي أسست فيه جمهورية الولايات الهولاندية المتحدة أواخر القرن السادس عشر التى نشأت من معارضة البرتستانت للحكومة الكاثوليكية الاسبانية . وأول ما صرفت اليه العناية فى تعليم اللاهوت البرتستانتى درس تفسير الكتاب المقدس ودرس اللغة العبرية واللغات السامية الأخرى ولا سيما العربية وهناك سبب آخر كان يدعو الى تعلم العربية وهو كثرة اتجار الهولنديين مع سكان البلاد المغربية (مراكش والجزائر وطرابلس) وأهل الشرق الاقرب .

وربما كان الأستاذ توما اربنيوس[1] Th Erpénius المتوفى فى ليدن سنة ١٦٢٤ هو مؤسس هذه النهضة . وذلك انه كان تلقف من اللغة العربية حظاً صالحاً مستغربا بالنسبة لمصره وعزم أن يرسل الى الشرق لان الكتب المطبوعة بالعربية كانت على عهده نادرة جداً ومن بواعث الاسف انه اضطر الي العدول عن سياحته هذه فبلغ فى رحلته الى البندقية ، ولكنه توفق الى الاجتماع في باريز وغيرها بعرب من الجزائر ومراكش وجمع كمية من المخطوطات العربية فتوسعت معلوماته . ولما عاد الى ليدن نشر (سنة ١٦١٣) كتابا فى نحو اللغة العربية .

(١) فى معجم لاروس اربن Erpen ولعله هو هو

واللاتينية وفى سنة ١٦١٥ نشر حكايات لقمان وأعد للطبع كتاب التاريخ العام للشيخ المكين الذى طبع بعد وفاته سنة ١٦٢٥ ولطبع هذه الكتب أنشأ بنفسه فى ليدن مطبعة جهزها بأمهات الحروف العربية ما زالت الى اليوم باقية على ما تعاورها من التغيير الذى اقتضاه الزمن ٠

وكان تلميذه يعقوب غوليوس Y Golius أسعد حالا منه فانه رافق بعثة الولايات الهولاندية المتحدة الى مراكش سنة ١٦٢٢ — ١٦٢٤ ثم زار الشرق وقد دخل أخوه بطرس فى الرهبنة الكرملية وقضى جميع حياته فى الشرق ، وترجم كتباً مسيحية بالعربية وبقى يعقوب فى ليدن ودرس العربية الى حين وفاته سنة ١٦٦٧ ونشر معجما عربياً لاتينياً وأعد للطبع كتاب الفلك للفرغانى الذى ظهر سنة ١٦٦٩ وقد ظل طول حياته على اتصال مع أصحابه من العرب الذين لقيهم فى سياحاته ، أو من كانوا يأتون نادراً الى هولاندة ، وعنى كل العناية بابتياع مخطوطات عربية لخزانة كتبه الخاصة ولخزانة المدرسة الجامعة ، وقد اغتنت مجموعة الجامعة بعد قليل من الزمن بوفاة وارنير L. warner من تلاميذ غوليوس وسفير هولاندة فى الاستانة (١٦٥٥ — ١٦٦٥) الذى وقف عليها مجموعة كتبه العربية والفارسية والتركية وكان أكثرها من خزانة حاجى خليفة المشهور بعرفة الكتب[1] ومن تلامذة غوليوس أيضاً رلاند A. Reland أستاذ فى جامعة اوترخت فى بداءة القرن الثامن عشر ؛ وصاحب التصانيف الكثيرة بالجغرافية والآثار القديمة فى فلسطين وكتاب فى الدين المحمدى (١٧١٨) خلا من شوائب التعصب للنصرانية وكتب لغاية علمية صرفة . ولم تلبث العناية

(١) من غريب الاتفاق ان كاتب شلبى أو الحاج خليفة صاحب كشف الظنون وجامعا وغيرهما من الكتب الجيدة قد أخذ الرياضيات والطبيعيات والجغرافيا وغيرها فى القسطنطينية عن عالم هولاندى جاء تلك العاصمة ليدرس اللغات الشرقية ودان بالاسلام ولما هلك كاتب شلبى بيعت كتبه فاقتنى أكثرها السفير الهولاندى وهى التى وقفها على جامعة ليدن فكانت المادة المهمة لتميز مجموعة الكتب العربية في ليدن عن غيرها لانها انتقاء عالم كبير مثل كاتب جلبى وفيها لباب العلوم ولم تؤخذ سقيا وزعياً وليس فيها الغث والسمين ٠ لهولاندة على كاتب شلبى يد بيضاء بتلقينه علوما لا عهد لاترك بها تعلمها وألف فيها وأفاد وقابلها على صنيعها بان أعطاها من علوم العرب والاسلام مالا عهد لاهولانديين به (المترجم)

بالدروس العربية بعد الأستاذ رلاند ان ضعفت عن القرن السابق . وذلك لأن التجارة مع الشرق لم يعد لهـا تلك المكانة التي كانت لها سابقاً . وأصبحت الصلات مع الشعوب الذين هم من أصول عربية تقع على الندرة فلم يرحل الى الشرق عالم واحد ليأخذ عن أهـله علومهم . وقل الاتصال مباشرة مع الحياة الشرقية . ولم يعد للغة العربية من فائدة الا لعلماء اللاهوت ممن رأوا فيها غناء فى فهم الكتاب المقدس وأشهر هؤلاء المستعربين شولتنس A. Schultens من أساتذة جامعـة ليدن (١٧٢٩ — ١٧٥٠) الذى حاول ارجاع معنى الكلمات العبرية الى أصل عربي وبهذه الصورة يتأتى شرح جميع مشكلات التوراة وكان من أمر ابنه وحفيده وكلاهما أستاذ فى العربية ان سارا على خطته مثل كثير من المستعربين فى ذاك العهد . وقد نشر شولتنس (١٧٣٢ — ١٧٥٥) سيرة صلاح الدين لبهاء الدين . وعلى ذاك العهد كسف مجد علوم المشرقيات فى هولاندة وأصبحت فى ظلمات بانبعاث النور من ناحية المشتغلين بالمشرقيات من الفرنسيين بنبوغ سلفستر دى ساسى Sylvestre de Sacy أوائل المائة التاسعة عشرة وكادت تعجز عن مجاراة علماء المشرقيات من الألمان وعلى هذا فلا أقول شيأ فى هاماكير Hamaker ونينس Neynis وجونبول Juynboll وغيرهم من أساتذة العربية وان نشر الأخير عدة كتب منها جزء من تاريخ أبي المحاسن والمعجم الجغرافى مراصد الاطلاع .

وما الداعية الحقيقى للغة العربية فى هولاندة الادوزى R.P.A.Dozy أستاذ جامعة ليدن (١٨٥٠ — ١٨٨٣) الذى وسد اليه ويا للأسف تدريس التاريخ العام بدلا من تدريس العربية الذي كان يشغل منبره اذ ذاك الاستاذ جونبول وقد عنى لأول أمره بتاريخ العرب فى اسبانيا الذى جلاه للأبصار بسلسلة من المطبوعات مثل كتب عبد الواحد المراكشى (١٨٤٧ — ١٨٨١) والبيان المغرب لابن عـذارى (١٨٤٨ — ١٨٥١) وابحاث على التاريخ السـياسى والأدبى فى اسبانيا خلال القرون الوسطى (الطبعة الثالثة سنة ١٨٨١) وتاريخ مسلمى

اسبانيا (١٨٦١) وهو من أجمل ما كتب فى بيان النبوغ العربى ومن حيث أسلوب انشائه . ولم تقتصر ابحاثه على تاريخ العرب فى اسبانيا بل نشر سنة ١٨٤٨ معجما مطولا في أسماء ألبسة العرب ونشر فى آخر عمره (١٨٧٧ — ١٨٨٠) ذيلا علما لمعاجم العربية وهو من أهم المصنفات لكل المستعربين الأوربيين . وكذلك كتابه فى تاريخ الاسلام الذى كتبه سنة ١٨٦٣ باللغة الهولاندية ونقله شوفين الى الافرنسية وأظنه ترجم أيضاً بالعربية .

وهنا أنجز معروضى الوجيز عن الدروس العربية فى هولاندة فان ما قام به تلامذة دوزى فى هذا الشأن مثل دي خوى[1] M.j.de Goeg ويونغ P. de Jong معروف لديكم فلاأطيل بتكراره هنا .

ولكم بما رأيتم من هذا البيان الجلى أن تحكموا بأنفسكم على ما بذله الهولانديون من الغيرة التى لا تعرف النصب ليتمكنوا من معرفة لغتكم الشريفة ويدركوا أسرار الآداب العربية وبديهى ان علماء المشرقيات من الهولانديين يهتمون جد الاهتمام للعمل الباهر الذي تقومون به فى الشام لاحياء هذه الآداب لتعيدوا للعرب ما كان لهم قديماً من المقام المحمود فى ساحة العلم البشرى اه .

هذا ما تفضل به صديقنا الكريم من المعلومات النافعة عربناه شاكرين له يده البيضاء على آدابنا ولغتنا . ولا شك ان القارىء قد تبين له مبلغ عناية الهولانديين بل معظم أجيال الغربيين بالعربية وآثارها . ولا عجب فهم مثال الدؤوب على كل عمل نافع وقد أفادوا بما نشروه من آثار أسلافنا تاريخ مدنية باهرة . ولا بأس بأن نشير بهذه المناسبة الى المطبعة الشرقية التى أعانت المشتغلين

---

(١) أن العلامه دى خوى المتوفى سنة ١٩٠٩ ناشر كتاب تجارب الامم لابن مسكويه والعيون والحدائق ومكتبة الجغرافيين العرب وهى مؤلفة من جغرافية الاصطخرى وابن حوقل والمقدسى وابن الفقيه وابن خردادبة وابن رستة وابن واضح والمسعودى مع الفهارس وناشر تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبرى — قد عدّ من أعظم علماء المشرقيات فى الغرب لاحيائه هذه الكتب النفيسة ولاسيما المكتبة الجغرافية وتاريخ الطبرى فهو من مفاخر هولاندة بلا مراء . أما الاستاذ يونغ فهو ناشر كتاب المشتبه للذهبى وكتاب الانساب لابن القيسرانى المقدسى ولطائف المعارف للثعالبى وكتاب الخراج لابن آدم وغيره فيعد من كبار المستعربين أيضاً (المترجم)

بالمشرقيات من بلاد القاع وغيرها على نشر ما أحيوه منذ ثلثمائة سنة من كتب السلف الصالح فى ضروب المطالب المدنية كالتاريخ والجغرافيا والرحلات والفلسفة والآداب واللغة والشعر والاجتماع بل والحديث والفقه والاصول . وما زالت هذه اللغة من لطف الله بها يخدمها الاعاجم ويغار عليها من ليسوا من أبنائها . فيحسن خدمتها الدخيل أكثر من الاصيل . وكيف لا نهنئ الهولانديين وقد خدموا لغتنا وشرعوا بنشر آثارها يوم لم يكن لنا مطبعة واحدة فى جميع بلاد هذا الشرق القريب ولا من يفكر من علمائها وأدبائها فى طبع رسالة أو كراس أو كتاب من علومها يوم كان الانحطاط باديا فى جميع مظاهر حياتنا

كانت المطبعة التى أسسها فى هولاندة مؤسس النهضة العربية فيها هى التى أنشأها فى ليدن المستشرق اربنيوس بمعاونة حكومته . وما زالت هذه المطبعة تنتقل من يد الى أخرى حتى كان مديرها سنة ١٨١٢ جوها لابريل Brill ثم تولاها ابنه . ثم صارت شركة مغفلة بهذا الاسم يديرها اليوم أحد الشركاء السيد بلتنبورج C. Peltenburg وقد طبعت حتى الآن نحو ٣٥٠ مصنفاً باللغات الشرقية ولا سيما العربية فان نحو نصف ماطبعت بالعربية جاء مثال جودة الطبع والوضع والعناية . وهى تطبع من اللغات الشرقية باللغة المصرية أى بالحروف الهيروغليفية ولغة كهنة المصريين ولغتهم العامية وباللغة القبطية ومن اللغات السامية بالاشورية والبابلية والعبرية والآرامية (السريانية والسامرية) والحبشية والعربية وتطبع باللغة التركية وبالفارسية والسنكريتية وهما من اللغات الآرتيه ومن لغات مالايو البولونيزية باللغة الجاوية والمالاوية والمادورية والباتاكية والروتية ومن لغات الشرق الاقصى بالصينية واليابانية والسيامية

وقد اعتمد علماء المشرقيات فى أوربا وأميركا على هذه المطبعة حتى فى الممالك التى فيها أحسن المطابع العربية كالمانيا وانجلترا ومطبوعاتها غالية الثمن لانهم يطبعون منها عددا قليلا بقدر حاجة علماء المشرقيات والمجامع العلمية الا قليلا ، ومن الكتب والرسائل التى طبعت فيها ومنها ما نفد ومنها ما أعيد

طبعه ثانية كتب ابن سينا والفارابي والجاحظ والغزالى والطبرى واليعقوبى وابن الأثير والخوارزمى والبلاذرى والمقـدسى والذهبي والاصطخرى وابن حوقل وابن الفقيه وابن رسـتة والهمداني وابن تغرى بردى والجحى والمسـعودى والدينورى والادريسى وابن قتيبة وابن بدرون وابن هشام وابن القيسراني وابن خطيب الدهشة وابن مسكويه وابن الانبارى والثعالبي والشيرازى والبخارى وابن حزم والاصفهانى والسجستانى والمقريزى والمقرى وابن آدام وابن خرداذبة وابن منقذ وابن سعد وابن سعيد وابن قوطية وابن ولاد وابن اسحق والرازي وارسطو والميموني والرامهرمزى وابن جبير وغيرهم من كبار المؤلفين المحققين.

وآخر ما تطبعه مطبعة بريل الموسوعات الاسلامية Encyclopédie de l' Islam وهى تصدر باللغات العلمية الثلاث الألمانية والانكليزية والافرنسية ، وقد وصلوا بها الى أواخر حرف J. فتكلموا فى الـكراسة السادسة والعشرين على الاسلام ويؤازر فى هذه الموسوعات كبار علماء المشرقيات فى الغرب ومنهم بعض الهنود والجزائريين . وقد نشرت هذه المطبعة من دواوين الشعر طائفة صالحة منها حماسة البحـترى ، وديوان أبي فراس وديوان عبينة بن الابرص والمفضليات والهاشميات وصريع الغوانى وحسان بن ثابت والقطامى ونقائض جرير والفرزدق وغيرها . وكما تطبع ليدن الـكتب العربية والشرقية فان مدينة هارلم الهولاندية تطبع الطوابع الفارسية ولا يستغرب ذلك من مملـكة صغيرة فيها نحو خمسمائة مطبعة وأربعة عشر ألف عامل فى الطباعة وألف ومائة جريدة ومجلة . هولاندة بعيدة عن الشرق بموقعها ولـكنها قريبة بما تنشره له وماتعقده من الصلات الحسنة الادبية .

معاهد انكلترا

المتحف البريطاني ـ جامعة اكسفورد ـ جامعة كمبريج

٨٣

لم يكتب لي أن أقضي في انكلترا سوى أربعة أيام صرفت نصفها في لندرا لزيارة المتحف البريطاني وابتياع كتب من مطبوعات الغرب وخصصت اليومين الآخرين بجامعة اكسفورد وجامعة كمبريج

ان مدينة لندرا وحدها وسكانها ثمانية ملايين ونصف تؤلف اليوم نحو عشر عواصم كالقاهرة بمساحتها وسكانها وتبلغ وحدها مقدار أربعين مدينة من مثل مدينة دمشق تحتاج ولا جرم الى أن يصرف المرء فيها أشهراً حتى يزور معاهدها وقصورها ويعرف نموذجاً من اداراتها ونظاراتها ومتاجرها ومصارفها فما بالك به اذا سمت همته لان يزور معامل لنكشير ومناجم الفال ومافي ولاياتها من الصنائع والبدائع ولا سيما في ليفربول ومنشستر وبرمنغهام . ولذلك اكتفيت بنموذج مما يهمني من المدارس والمتاحف والمكاتب . أما البحث في مدنيــة الانــكليز وأخلاقهــم فمرجعه الكتب ولم يبق الباحثون فيها مقالا لقائل ولا مجالا لجائل .

ركبت السـيارة أطوف في أحياء لندن وضواحيها بضع ساعات وما أظنني لمحت الا جزءاً منها وناهيك بعاصمة هي مجموعة بلدان وحواضر وقرى وناهيك بعاصمة فيها من أنواع المحطات للسكك الحديدية عشر محطات كلها آية في الضخامة واذكر اني خرجت من احداها وأنا قاصد الى كمبريج في القطار وعلى جانبي قطاران آخران يخرجان في نفس تلك الدقيقة من المحطة . وكل شيء هنا يدل على عظمة الانكليز وتغاليهم في الرفاهية والصحة وما أذكر اني رأيت بلداً في الغرب أشبه بلندرا أكثر فيه التأنق في المطاعم واستجادة ابنيتها وأثاثها وضروب الراحة فيها ولا أكثر نظافة من مركباتها الكهربائية والبخارية ومن محطات سككها الحديدية

وسككها الكهربائيـة . أما محال الاطمئنان العامـة فى الشوارع فهى على غاية مايتصور من الاتقان والنظافة ولا عجب فهي منـذ القديم مضرب الامثال بفرط نظافتها .



المتحف البريطاني فى لندرا بمثابة خزانة كتب الأمة ومتحف اللوفر فى باريز وفيه الكتب والعاديات معاً . أسس سنة ١٧٥٣ ولم تكن فيـه اذ ذاك الا بضع مجموعات فلم يلبث أن اغتنى بسرعة غريبة وبنى بناؤه الحالى بين سنتى ١٨٢٣ـ١٨٥٢

المتاحف والمكاتب دليل محسوس على ارتقاء أمة وانبساط ظل سلطانها وعظمة تاريخها الغابر والحاضر . وناهيك بانكلترا أعظم حكومات الأرض بمستعمراتها وقد بلغ المتفيئون ظلالهـا زهاء أربعمائة مليون من البشر أو نحو ربع سكان المعمور . ولا عجب اذا كان متحفها وكليتها آية الآيات وموضوع إعجاب الامم بأسرها وفى دار كتبها اليوم ثلاثة ملايين من المجلدات أو تزيد . فيها أنفس المجاميع المخطوطة الانكليزية وغيرها من اللغات ومجموعة المخطوطات العربية وحدها تعد بالالوف جعل فهرستها فى ثلاثة مجلدات كبرى . وجعلت المكتبة تحت قبة عالية أعلى من قبـة كنيسة ماربطرس في رومية وأحط من قبـة كنيسة البانتيون بباريز . وجعل حوالى القبة التى يجلس تحتها ستمائة مطالع بالراحة دون أن يشوش الواحد منهم على جاره ـ مخازن الكتب على رفرف من الحديد طبقات بحيث يسهل الاتيان بمـا يطلبـه الكاتب منها وكتب المراجعـة كالمعاجم والفهارس ونحوها جعلت تحت القبة يتناولهـا المطالع حالا وهى تربو على عشرين ألف مجلد وهناك غرفة خاصة بمن يريدون الرجوع الى الصحف والوثائق السياسية والبرلمانية .

وقد جعل المتحف على صورة عملية منظمة مستوفاة شروط الصحة فيه . وهو من أغنى متاحف العالم قسم أقساماً وكل قسم حوى آثار أمة من الامم اذا رأيته تظن المتحف البريطانى لايحوى غيره لكثرة ماجهز به من الآثار وبذل فيه من العناية فنها آثار المصريين والهنود والصينيين واليابانيين وغيرهم من أمم الغرب

ولا سيما بريطانيا العظمى لحدث عما حوت فروعها ولا حرج من النواويس والقبريات والدروج والبردى والالواح والنقوش والاوانى والسلاح والقيشانى والمفصص والمجصص والمنحس والمصفح والمذهب والمفضض

وميزانية المتحف البريطاني مليون جنيه فى السنة ويقسم الى اثنتى عشرة دائرة يتولى كلا منها حافظ من الحفاظ وهم حافظ المطبوعات والمخطوطات والعاديات الشرقية والقرون الوسطى وأصول الشعوب والآثار اليونانية والرومانية والنقود والايقونات والمصورات والخرائط والرسوم المطبوعة والصور المختومة والنبات والحيوان ومطمورات الارض ومعادنها . ولا أغالى اذا قلت أن الزائر اذا أحب أن ينظر فى كل قطعة من عاديات المتحف ويبحث فى كل فرع من فروع المخطوطات والمطبوعات فى خزانة الكتب يحتاج الى صرف سنة من عمره ويخرج بعد ذلك وهو غير كثير الالمام بما حوت تلك البقعة من المفرد والمركب والقديم والحديث ولذلك اكتفيت بالالماع الى ماهنالك لان وصف مافيه يحتاج وحده الى مجلد برأسه

***

فى بريطانيا العظمى سبع عشرة جامعة منها عشر جامعات فى انكلترا أقدمها جامعتا اكسفورد وكمبريج والجامعات العشر جامعة لندرا ودورهام وما نشستر وليفربول وليدس وبرمنغهام وشيفلد وبريستول وأكثرها حديثة انتظم أمرها في العقد الثانى من القرن التاسع عشر أو فى أوائل القرن العشرين وقد كثرت الجامعات عقيب ارتقاء المدارس الوسطى (الكوليجات) فى انكلترا وفى ايكوسيا أربع جامعات وهى جامعة سانت أندرى وجامعة غلاسكو وجامعة ايردين وجامعة اديمبورغ وجامعة والس فى بلاد الغال وجامعة دوبلين والجامعة الملوكية فى ايرلاندا

وقد وصف منذ ستين سنة جامعتى اكسفورد وكمبريج عالمان كبيران أحدهما عربى وهو « أحمد فارس» والثاني فرنساوي وهو «تين» فقال الاول : واعلم أن

كمبريج واكسفورد هما مدينتان فى بلاد الانكليز كل منهما يحتوى على نحو عشرين مدرسة وألفى طالب ففي الاولى تعلم الهندسة والرياضيات والالهيات وفى الثانية علوم الأدب والفقه والمنطق والفلسفة ولا يمكن التعلم فيهما الا بنفقة زائدة وما أحد يقصدها الا أولاد الكبراء والاغنياء ولاسيما اكسفورد فهناك ترى طالب العلم شامخاً بأنفه مصعراً خده كأنما هو طالب ملك الصين والهند وأكثرهم يصرف همه فى ركوب الخيل واللذات وينبذ العلم ظهريا فمتى حان وقت الامتحان عرف مايريد الشيخ أن يمتحنه به من المسائل اذ هى محصورة معدودة فيجتهد فى حفظها وترسمها فاذا سردها عليه وأحسن سردها أجازه بصك يذكر فيه انه نال مرتبة المعلمين وهى عندهم متنوعة ولكل من هذه المدارس أوقاف يعيش منها القسيسون الملازمون لها وربما كان أيضاً من غير القسيس فان كل من نبغ فى علم من العلوم أجرى عليه الرزق من الوقف وفى كل من المدينتين مكتبة عربية غير أن كتب اكسفورد أكثر اه.

وقال « تين » ان اكسفورد مجموع أربع وعشرين مدرسة أو معهد خاص مستقلة ولكل واحدة ريع يقدر على الاقل بخمسة عشر ألف جنيه ومنها مايبلغ ريعه أربعين ألف جنيه فصاعدا وفيها جامعة للاساتذة جعلت مركزاً للمدارس ويقبض المدير من ألف الى ثلاثة آلاف جنيه فى السنة والمعلم من ٢٠٠ الى ٣٠٠ جنيه والمعيد المراقب من ٤٠٠ الى ٥٠٠ والجامعة عندهم أشبه بجماعة من الاساتذة يشبهون أساتذة الكوليج دى فرانس فى باريز فالطالب غير مضطر الى حضور الدروس وراتب معظم الاساتذة من خمسمائة الى ستمائة جنيه ومنهم من يقبض أقل من ذلك ومنهم ألف جنيه ومن أساتذة اللاهوت من يقبضون ١٧٠٠ جنيه فى العام وقد يقبض العميد فيهم من ١٠٠٠ الى ٣٠٠٠ جنيه ماعدا الدار التى يسكنها والحديقة التى يتمتع بثمارها وبقولها وهؤلاء الأساتذة مضطرون أن يعيشوا عيشاً مرفهاً وان يقروا الضيوف ويعاونوا فى جميع ضروب الاعانات بحيث انهم ينفقون فى الغالب جميع رواتبهم شأن الاساقفة ومعظم كبار الموظفين [1]

(١) يقبض قاضي القضاة فى لندرا ٢٥٠ الف فرنك فى السنة أو عشرة آلاف جنيه والقضاة العاديون ١٥٠ ألفا وفيهم من يقبض ٢٠٠ الف وقضاة المقاطعات يتناولون ٣٧٥٠٠ فرنك

فى اكسفورد نحو ١٣٠٠٠ طالب وفى كمبريج ١٢٠٠ ومنهم فى لندرا وهذا الدرس المتمم العالى هو خاص فى العادة بطبقة الأشراف والأغنياء من الاقليـة وذلك لانه يكلف نفقة طائلة (من ٢٠٠ الى ٣٠٠ جنيه فى السنة وتكثر جداً أبواب الصرف) ولان هذا الدرس هو من الكماليات للذهن (الرياضيات المجردة واللغتان اليونانية واللاتينية) ولأنه يؤخر الدخول فى الاعمال المثمرة . ولكل طالب غرفتان أو ثلاث غرف فى المدرسة بحيث يتألف منها خليـة نحل . وعلى الطالب أن يحضر صباحاً فى الكنيسة ويحضر درساً واحداً ومن يتخلف مساء عن الساعة التاسعة يعاقب فى الغالب بغرامات ماليـة والتلميذ الصغير أكثر حرية من الطالب الكبير واليافع عند مايكبر لا يتنقل من نظام ديرى الى اسـتقلال مطلق بل ان تنقله مدبر بحكمة فهو يترك في المدرسة لنفسه فى شؤون كثيرة اما فى المدرسة الجامعة فلا يخلى وشأنه بالمرة ومثل هـذا الاحتياط جميل فى باب عـدم الافراط فى الحرية . واعتياد الحرية ضمان أخلاق والمراقبة ضمان طبيعى . ثم ان اكسفورد وكمبريج مدينتان صغيرتان فلا ينزل الشاب عاصمة تدعوه ملاهيها ولذائذها الى اضاعة وقته بل يعيش فى الخلاء ويعانى الرياضات البدنية ولا يبحث عن ملهيات فى دور التمثيل والمقاهى والجواد العظمى ويبتعد عن اغراء المغرين وحديث المحدثين ولذائذ المتلذذين . وليس فى هاتين البلدتين شىء من الفحش ومن تميل أنفسهم اليه يذهبون الى القرى المجاورة أو الى لندن ونصف الطلبة أعفة طاهرة ذيولهم وأهم نقص فيهم الميل لتعاطى الخمر . وكانت المسكرات شائعة هنا منذ خمسين سنة شيوعا كثيراً كما هو الحال بين أهل الطبقة العالية فأصبح تعاطيها الآن نادراً . ويبقى الطالب فى هاتين الجامعتين على شىء من التدين ويقل فيهم الانحلال ولو بالصورة الظاهرة بل هم يدينون بالبرتستانتية أو مايتشعب عنها من مذاهب المصلحين .

مدة التدريس ثلاث سـنوات ويراجع الطالب في السنة الأولى المواد التى تعلمها في المدرسـة والفحصان الاولان يجريان فى النحو واللغة وهما عبارة عن البحث في مؤلفين أو ثلاثة من مؤلفى اليونان واللاتين ومساجلة باليونانية أو

اللاتينية نثراً أو شعراً وبعض أسئلة فى الانجيل والتوراة . والفحص الثالث عبارة عن المساجلة فى نفس المواد ولكن بصورة أوسع نظراً وأوفر نقداً وأشد عناية بالتاريخ والفلسفة . ثم يكون للطالب الخيار في اختيار أحد الاربعة الفحوص النهائية والاول فى الرياضيات والثانى فى العلوم الطبيعية والثالث في الآداب واللغات القديمة والرابع فى التاريخ الحديث والشريعة والاقتصاد السياسى . وأهم ما يتعلمه الطالب تهذيب خلقه وتوجيه ارادته وتعريف ميوله . ولما كان معظم الطلبة من أبناء النبلاء أو الأغنياء كان عيشهم على أسلوبهم الخاص ودبدبتهم المعهودة وكثير من الاغنياء يبعثون بأولادهم الى هاتين الجامعتين ليتعرفوا الى أهل تلك الطبقة التى تأوى الى المدرسة وتكون لها بمثابة ناد ومجمع وقد يكون التمييز على أشده بين النبلاء وغيرهم فى بعض المدارس سواء كان فى الطعام واللباس ومنزلة الطلبة وثروتهم مما يعتد به كثيرا ومن الطلبة من يصرفون خمسمائة جنيه وأكثر خرجهم الخاص .

هذا ما قاله العالمان فى وصف الجامعتين الانكليزيتين اللتين تخرج برجالهما رجال انكلترا أمثال ايراسم وميلتون وباكون ونيوتن وبايرون ودريدنودون سكوت وفيكليف . ولا شك ان بعض الاحوال قد ارتقت وبعض المصطلحات قد تغيرت بطول العهد . ففى جامعة بكريدج اليوم زهاء ثلاثة آلاف طالب فى ١٩ مدرسة أو دائرة منها ثنتان للسيدات وفى المدينة نحو خمسين ألف ساكن ويرد تاريخ انشاء جامعة كمبريج الى القرن الثالث عشر وكذلك جامعة اكسفوردوهذه مؤلفة اليوم من خمس وعشرين مدرسة . وفى اكسفورد مكتبة البودلين المشهورة وفيها مجموعة مهمة جداً من المخطوطات والمطبوعات العربية نشرت مجموعتها الاولى منذ قرن ونصف .

ولا تزال تلك المباني الشاهقة الشائقة كما كانت يوم بناها بناتها ومنها ما يرد تاريخه الى القرن الثالث عشر مثل مدرسة الثالوث فى كمبريج فانها من أجمل ما رأته العين من أبنية القرون الوسطى فى الغرب .

المجتمع الانكليزى

السياحة والانكليز ـ توريث البكر ـ الجمعيات والمنتديات ـ أشرافهم و نبلاؤهم

٨٤

أكثر الامم الغربية جرأة على الضرب فى الأرض وغراماً بالارتحال الأمة الانكليزية كما هى أكثر الامم أقداماً على العظائم . وحيثما انقابت فى الغرب وفى الشرق فى القطارات اوالسفن فى الفنادق والأماكن العامة لاتجد الا انكليزاً رجالا ونساء يسيحون على اختلاف طبقاتهم . وسواء عندهم الرحلة البعيدة والقريبة . ينفقون النفقات الطائلة فى هذا السبيل مما لا تستطيع سائر الأمم أن تجاريهم فيه اللهم الا سكان الولايات المتحدة وهم انكليز أيضاً ان لم يكونوا بعنصرهم فبتربيتهم . السياحة دليل النشاط وأنشط الامم الانكلوسكسونية . ومن الغريب ان الانكليزي اليوم يسيح فى المانيا والنمسا بل فى فرنسا وايطاليا ويكاد لا ينفق جزءاً من عشرة مما ينفقه فى بلاده وذلك لارتفاع ورقه النقدى ونزول أسعار الورق فى هذه الممالك ولاسيما ألمانيا والنمسا وبولونيا والتشكوسلوفاكيا ورومانيا واليوغوسلافيا

ذكر « تين » ان كثيراً من نواب انكلترا يغنمون فرصة العطلة النيابية ليذهبوا الى فرنسا أو اسبانيا أو ايطاليا أو ألمانيا يصححون معلوماتهم السابقة ويأخذون أفكاراً جديدة يذهبون لا مرة ومرتين بل ستاً وثمانى وعشر مرات ليقفوا على أمور ويتتبعوا تموجات الرأى العلم . وعلى هذا فان احكامهم محكمة أبداً تتهيأ لها أساليب الصحة والتحقيق . اذا حدث خطب فى الدانيمرك وبولونيا ورومية والولايات المتحدة لا يهتم الانكليزي أن يهرع فى الحال لأخذ ايضاحات صريحة عما حدث ومتى وافى الانكليزي بلداً أجنبياً يتعرف الى العظماء من أهله ويدعوهم اليه ويقلبهم وينفضهم كما يقلب المرء كتاباً وينفضه وربما دون كل مادار

بينهما من الحديث ومتى انقلب الى أهله يبلغ أمته ماوقع عليه من الحقائق ويحمل الى أهل عالمه وأبناء حرفته ومحيطه مايزيدهم معرفة فيامهم بسبيله وكم من انكليزي طاف المزارع والمعامل فى غير بلاده وكتب عنها تقارير ممتعة وألقى عنها محاضرات جيدة وكم من رجل زار المعامل فى أوربا وأميركا فألف فيها وحاضر والفقير منهم يقتصد جزءا من المال من عمله ليجري به سياحة خلال السنة ويعود وقد حفل وطابه بما طاب له من الحقائق وما رأته عينه من النظريات . وما من فتى نشأ من أسرة طيبة لايسيح العالم كله . وكل تربية تامة تستلزم سياحات فى الخارج ومقاماً فيه طال أو قصر . وترى خلال العطلة المحامين ورجال القضاء والاساتذة يأتون زرافات الى ألمانيا وكثير منهم لايتمكنون الا من رؤية ظواهر الأشياء . والاناء لايستطيع أن يملأ بأكثر من حجمه . بيد أنهم كلهم يعودون ببعض أفكار أو بمبادىء يقل خطاؤها أو بأوهام غير فظيعة على الجملة . واذا انضمت جميع هذه الاستعلامات فى سلك جاء منها رأى عام يقرب من الحقيقة فى المسائل الكبرى ولاشأن له فى السياسة ويكون على جانب من الصحة حاويا نصحاً وموعظة ثم ان رجل الدولة الذي يكشف ببصيرته الطريق السليم تعضده أمته وتأخذ بيده فى مهمته . البحارة يهللون لربانهم وكثيراً مايذهب الجمهور الى البحث عنه وسوقه الى أخذ سكان السفينة بيده يديرها .

وبمثل هذا النوع من التربية اذا انتشرت فى الطبقة العالية من الأمة تتناول بالطبيعة العقول الكبيرة والعقول الصغيرة من أهل تلك الطبقة . فاذا كان الفرد فيهم على استعداد لايسقط لقلة تربيتهم الكافية الخاصة بل يتلقى مايقويه ويزيد فى مضائه وتصل قريحته وعبقريته الى الدرجة التى قدرلها الانبعاث ولا يهتم أن يأتى بثمرة طيبة لان مركزه وثروته وصلاته توفر عليه طول مدة التمرين والاهتمام بجمع المال والعيش . قالوا ومن دواعى الأسف ان طبقة برمتها تنال بصورة ظالمة ثروة موروثة ومكانة قبل أوانها ثم يأتى فى جملتها بعض انذال وكثير من

البهائم وأناس وسط فى مداركهم . ولكن لاسبيل الى تأليف طبقة مختارة الا بمثل هذه الوسائط . وهذا أشبه بزريبة فيها مئة رأس من الخيل يسبق منهاستة وتجد فيها سابقاً دونه السوابق ولكنه واحد فى كل ألف . ولا تنجح المملكة اذا لم ترزق رؤساء أصحاب مكانة وكم من مملكة تداعت أركانها لخلوها من رجل عظيم يقودها اه .

***

قاعدة من قواعد التوراة سار عليها الانكليز فاختلطت بدمائهم وأصبحت لهم شريعة موافقة وعادة راسخة وهى توريثهم بكر الأولاد وحرمان سائر الابناء والبنات من ارث والديهم . قال أحمد فارس : ومن عادة الكبراء والنبلاء أن لايورثوا جلاءهم (لقبهم) وأملاكهم الا للابن البكر فان شاء أعطى اخوته وان شاء حرمهم ففى هذه الحالة يلتزم الاهلون أن يقوموا بكفايتهم واذا كان البكر مسرفاً فبذر أموال أبيه اشترى أصحابه أو أهل البلاد له ولاخوته وظائف من الدولة أو تبعثهم الى البلاد الخارجية . والحكمة فى توريث البكر دون غيره هو بقاء الجلاء فى العيلة وصون ناموس البيت واذا تقدم الابن بنت بقى له حق اللقب والوراثة هذا اذا كان التراث عقاراً فاما اذا كان حصص مضاربة مثلا أو أشياء متنقلة قسم بين الاخوة اه .

وبهذه القاعدة حفظت بعض البيوت فى كثير من أصقاع انكلترا كما كانت منذ بضعة قرون لم تهدم ولم تقسم وظلت بحدائقها وأسوارها ومرافقها وفرشها ونظامها على نحو ماأسسها الجد الاقدم . ومن دور الكبراء ماهو متاحف مهمة بذاتها وكم من دار نبيل من نبلائهم حوت مجموعة من العاديات أو الجوهرات أو النقوش والصور مالو كان فى حكم متصرف لعد من موجبات فخارها . ولقد قال ناقدو قاعدة توريث البكر كثيراً مايكون أكبر الاولاد فى الطبقات الشريفة منذ عهد المدرسة متهتكا بعشقه مأخوذاً بالتمايق فلا يجىء منه الا أحمق منفاق متجنن يسيح فلا يأتي من رحلته بفائدة بل يحمل العادات القبيحة من غير بلاده ويسترسل فى شهواته

وقد يملّ من حياته . ولو لم تكن طبقة النبلاء تتجدد بمن يدخل فيها من أهل الطبقة الثانية ذات العقول والقرائح لاصبحت أعضاؤها مؤوفة وضعفت عقولهم وكانت شراً على المجتمع كما هو الحال فى ممالك أخرى . ثم أن عدم التساوى بين الاولاد يورث أموراً مرة فيضطر الولد الثاني ان لم يدفعه أخوه الى الجيش أو الكنيسة أو الاداره الى أن يبقى زمناً محروماً النعمة سليباً من الراحة فيهاجر ويتأخر فى زواجه ويخدم غيره عشراً أوعشرين سنة على حين تجد أخاه مستقلا وغنياً من ولادته ليس له الا أن ينزل فى بستانوفى قصر أخذ بأطراف اللذائذ . بيدانهذا الولدالثانىلايحزن لما يصيبهمن فقد أرثوالده كما نتوهم بل يعتادذلك منذ الطفولة لقدمالعادةبذلك ومشروعيتها فيحتملها ويقبلها كأنها من ضروريات الطبيعة ثم هو لايخشى النصب لان مزاجه يدعوه الى العمل ويهجس له كبرياؤه أن الاجمل بالمرء أن يكدح لمعاشه بنفسه لا أن يتكل على غيره .

الانكليز مكثرونمنالاولاد معتادونالرفاهةيربحون كثيراً وينفقون كثيراً فاذا نشأ الولد فى محيط يرىفيهالبذخعلىأتمه ثمتعلم منذ نعومة أظفاره بعد تهيئة عقله بالدرس والتربية أنه محروم مما يراه منالثروة الا أن يعمل بنفسه الا يكون لهمايراه مهماز يسوقه الىالعمل و يستسهلالسفر الى الصين والهند واستراليا يرتاد العالم ليغتنى ويقتنىوينشىء عيلةويقيم مجداً . بهذه الطريقةيغنىالضعفاء ولكن فكر الاقدام وحب السبق وقوةالنشاط وجميع قوى الفطرة البشرية تعمل عملها . والمرء يقوى بالجهاد والامة يتجدد شبابها والذهب يسيل كالسيل على البلاد

لاتكمل المدنية اذا خلا المجتمع من طبقة من الاشراف أو تنقصه الحياة العظمى المستقلة المنبعثة الى أقصى أشواطها المجردة من هموم الشح المستعدة للجهال . قال أحدهم : ويل للقصور وسلام على الأكواخ . والاولى أن يقال سلام على الاكواخ وسلام على القصور . قال « تين » تغدو انكلترا فىالحقيقة جمهورية تصوغ لها طبقة الاشراف ماتحتاج اليه من الوزراء والنواب والقواد والساسة كمدرسة هندسة تعد القدر اللازم من المهندسين . كثير منهم ضعفاء

عجزة لا ينالون خدمة حقيرة الا أن ينفقوا دخلهم ولكنك تأخذ من هذا العدد من تحتاج اليهم من أركان الجيش ولا اثمن من الحصول على مثل هذا الضرب من الرجال

***

بقدر ماترى من عزوف الانكليز خارج انكلترا عن الناس واشمئزازهم تجدهم فى بلادهم الى الألفة والتعاطف وكل شيء يتم عندهم فى الاندية (الكلوبات) ومن الغريب أنك لاتجد فى انكلترا وزارة للمعارف كما تجد وزارة للأمور الخارجية والمستعمرات مثلا والامة تعلم أبناءها بالمعاونات والعطايا والأوقاف . وتكثر الجمعيات الخاصة فتجد فيها جمعيات لانقاذ الغرقى وتنصير اليهود ونشر التوراة وترقية العلم وحماية الحيوانات وقمع الرذيلة والغاء عشور أرباب الدين وجعل العملة أرباب أملاك وبناء بيوت جميلة وتوفير دراهم لهم وللهجرة ونشر المعلومات الاقتصادية والاجتماعية وحسن استعمال يوم الاحد ومقاومة المسكرات وتأسيس مدرسة للمعلمات وهلم جرا .

هذا فى جمعياتهم وهى تعد بالألوف اما منتدياتهم التى يعمرها فى الغالب كل من عرف عندهم باسم لاجنتلمن وهو من بلغ الكمال فى التربية والتهذيب فانها أكثر وأعظم . وكانت الاندية أماكن لتناول الطعام والشراب أولا ثم انقلبت مع الزمن قصوراً فخمة [1] محرّمة ولم يدخلها النساء لأول أمرها وكان لاعضاء النادى فندق خاص بهم يحتوى على غرفة مائدة ومكتبة ومحل للتدخين وحجر للنوم بحيث يكون المرء فى ناديه كأنه فى بيته الذى يؤويه . ثم استخدمت الاندية للاحزاب السياسية ثم انقسمت أقساماً بحسب مقاصدها . وانكلترا فى مقدمة الامم فى التمادى بطبقاتها لا يستطيع فيها أهل طبقة معينة أن يختلطوا بغير طبقتهم ومن الأندية السياسى والعلمى ومنها أندية الرياضات البدنية والحمامات والصيد واللعب والشرب وأندية العزاب والممتنعين عن التدخين والشراب . وهناك

(١) من خطاب لنا كتبناه سنة ١٩١٣

أندية خاصة بأبناء حرفة معينة وطبقة معينة وفكر معين حتى صارت الاندية تعد بالمئات فى بريطانيا العظمي . ومن ثمرات الأندية عند البريطانيين ان أهل كل حرفة وطبقة يعرفون فى أنديتهم أقدر الرجال فيهم فاذا جاء وقت انتخاب مجلس النواب يكون لمبرزيهم منهم أعرف الدعاة لهم فيختارونهم للنيابة عن الامة أى ان أعضاء نادى الاشراف وأعضاء نادى الحوذيين والسواقين والسكافين والطباعين والوراقين والغزالين والفحامين بل وكل مايخطر ببالك من أرباب الصناعات المختلفة يستعينون بالاندية على اختيار مدارك اخوانهم فينيبون عنهم أخطبهم واعقلهم وآمنهم واعلمهم

ومن غرائب الاندية فى لندرا اليوم نادى السكوت وهو للصم البكم ليس فيه كلام يسمع ولا جرس يقرع ومن يدخل النادى من المشتركين فيه يكبس زراً كهربائيا ينير قطعة من المكان فيفتح له وبنور الكهربائية ايضا اصطلحوا على اشارات للتفاهم بينهم ويدخله الرجال والنساء يلعبون بالبيلاردو او يتحادثون احاديث صم ويغنون غناء الصم . وفى لندرا ناد للمعتزلين عن الناس يدخله من ضاقت صدورهم من الوحدة والعزلة ولايقبل فيه النساء الا بعد سن الخامسة والعشرين وقد جعل دوليا عاما ولايؤدى المشترك فيه شيئا وهو غريب فى بابه لانه يضم اناسا من اهل الارض بأسرها ومن جميع الطبقات الراقية وفيه طائفة كبيرة من ارباب المكانة والشهرة .

وعندهم ناد اسمه نادى « العجل الذهبى » ونادي « القط الاسود » «ونادينا » وهو نادى أعاظم الادباء ونادى ١٠١ ونادى الست ساعات وهو ناد اعضاؤه ستة يدخلون اليه كل يوم الساعة السادسة ويخرجون الساعة الثانية عشرة ومع كل واحد منهم كتاب . و«النادي الدائم» وعدد أعضائه مئة يقسمون أن لا يبرحوا منازلهم مهما كلفهم الامر من المخاطر حتى انه حدث يوماً حريق قرب ناديهم فلم يخرجوا منه الا بقوة رجال الشرطة . وفى لندرا أندية قلما تقبل فيها النساء وفيها أندية للنساء العازفات عن الزواج . ومن أنديتهم نادى الدوبياء السوداء على مثال نادي

نيويورك وهو مؤلف من أربعين عزباء يجتمعون مرة فى السنة ويضع رئيسه فى صندوق أربعين حبة لوبياء بيضاء ومنها واحدة سوداء ويسحب كل عضو حبة فمن سقطت السوداء فى يده حكم عليه قانون النادى بان يتزوج والنادي يتكفل له بنفقة تزويجه كما يبتاع له أثاث بيته ويقوم بنفقة سفره ثلاثة أسابيع مدة شهر العسل . ومنها أندية لطالبات الزواج على مثال نادى اليابان يتم بواسطته كل أسبوع مائتا قران ويتزوج أكثر المقترنين بالنظر الى صور خطيباتهم الشمسية وفى لندرا ناد للمنتحرين شعاره بالموت شفاء الاسقام كلها ولا يقبل فيه النساء ولا العزاب . ولها ناد للارواح يدخله علماء ومحامون وجراحون وباحثون ممن يهتمون بكشف الاسرار عن مخاطبة الارواح ولها ناد لمن لا أنوف لهم ورئيسه مصرى أنفه أفني للغاية يكاد لا يظهر ونادى مشوهى الخلقة ونادى السوداويين يجتمعون فيه كل أسبوع وهم عبارة عن حوذيين وسواقين وملاحين ليتسابوا ويتشاتموا ويظهروا فضل قرائحهم فى علم الطعن والقذف ومن قصر من الاعضاء أو أبدى لطفاً فى ألفاظه وحركاته يغرم في المرة الاولى وفى الثانية يطرد من حظيرة أقرانه . وفيها نادى العبوسين يدخله من ساءت أخلاقهم يلتزمون السكوت فيجلس الواحد منهم الى ناحية يدخن غليونه بدون أن يتكلم . وعندهم نادى من يقسم الناس أربعة أقسام أي نادى البخلاء المقترين وفيه أناس من كبار أرباب الاملاك وأعاظم الماليين . ونادى قتلة البشر وهم يؤثرون القتل على ثلم الشرف ورئيسهم قتل خمسة وعشرين شخصاً فى البراز اه . قال من وصف أندية الانكليز : الاندية مرآة صادقة تقرأ فيها عنوان القلب والابدال الذى طرأ على الهيئة الاجتماعية والاخلاق على توالى القرون ولطالما مرت فيها أجيال من الناس ذكروها فذكرتهم وأقدم أندية لندرا النادى البحرى الملوكى أسس سنة ١٦٧٤ وأنشىء غيره فى النصف الاول من القرن السادس عشر وأسس نادى طرف الغار سنة ١٨٠٥ الى غير ذلك من الاندية التى كان ولا يزال يختلف اليها العالم والمفكر والمؤلف والسياسى والبحرى وأهل جميع الطبقات .

طبقة اللوردات أو الاشراف في انكلترا غريبة في غناها وعاداتها وشممها وهي تعد جزءاً مهما من البلاد وما زالت أراضيها تنتقل بحسب قانون الوراثة في البكر من يد الى يد على اختلاف القرون . وكم من لورد نبيل يملك ألوفاً من الافدنة جعلها غابات ليصيد بها مرة أو مرتين في السنة وكم من لورد لا يعرف أملاكه حتى قيل ان أحدهم يملك مزرعة عظيمة وكل يوم يطبخ الطاهي الطعام لاثنى عشر انساناً يحضرون لتناول الطعام على أمل حضور اللورد ويسرج له سائسه حصانه وينتظره في المكان الذي يرجى أن يصل منه وهو لا يجيء بل لم يحضر ولا مرة واحدة . ولكن هؤلاء الملوك بغناهم يظهرون يوم الشدائد بخطر غريب من الحمية والوطنية والسخاء وقد رأينا منهم في الحرب العامة الاخيرة ماأدهش من بذلهم في سبيل نصرة انكلترا وحلفائها .

في انكلترا سبعة وعشرون دوقاً ماعدا الدوقات الذين هم من دم ملكي يملكون نحو ٢٥٠٠ مزرعة كبرى أي أراضي نصف المملكة على التقريب . ويقدرون مساحة اراضي الدوق دي سوترلاند ١،٣٥٨،٥٤٥ فداناً بلغ دخلها منذ عشرين سنة زهاء ١٤١ ألف جنيه ويجي بعده لوردات منهم من يملك دخلا سنوياً قدره مائتا ألف جنيه ومنهم أقل وأدنى مايملك أحد الدوقات الصغار عشرة آلاف فدان . ويتألف من هؤلاء الدوقات والقابهم وغناهم امتن اساس في بنيان المجتمع الانكليزي الحاضر وهم المحور الذي تدور عليه الحياة الاجتماعية والسياسية في البلاد . ولطالما كان هؤلاء الاشراف منذ القديم موضع احترام انكلترا . وقد تركت حقولهم وغاباتهم بدون ان تمتد اليها الايدي تركوها لتكون متنزهاً ومجالا للارتياض والصيد على حين تقطع الوف من الايدي عن العمل لقلة الاراضي التي تعمل فيها ويتحكم الاشراف في مزارعيهم ومزارعهم تحكما غريباً .

وبعد فان غنى انكلترا المشهور محصور في ايدي الاسرات الممتازة المختارة من طبقة الاشراف واغنياء الطبقة الوسطى . والرفاهية وقف عليهم وحدهم لا يشاركهم فيها غيرهم من اهل الطبقات الاخرى كما هو الحال في فرنسا وقد

بلغ فى هذه الحرب او بعدها عددالمعوزين الذين تجري عليهم الحكومة الانكليزية الجرايات وتطعمهم الجمعيات الخيرية زهاء مليونى انسان من خمسة وأربعين مليوناً ويقول بعض المفكرين ان السبب فى هذا الشقاء ان أهل القرى يقصدون المدن ويتخلون عن الزراعـة لقلة ماهـم من الأراضي المملوكة فبعد ان كانت أراضى انكلترا تطعم البـلاد أكثر من نصف السنة أصبحت لاتكفيها خمسة وثلاثين يوماً وكل يوم تقفر المزارع وتعمر المدن هـذا مع ماأصاب المعامل من الفتور لقلة رواج المصنوعات بعد الحرب . واملاك الاشراف مهملة لايستفاد منها وتلك الايدى العاملة تنقطع اضطراراً عن عملها لأنها لاتجد ماتعمل في الصناعة والتجارة وكانت تعمل فى تلك الأراضى لو وزعت عليها توزيعاً معقولا فاشراف انكلترا هم العائق الكبير فى كل اصلاح وارتقاء وأملاكهم هى الحاجز الاقتصادى الحائل دون نماء الراحة العامة فعليهم التبعة العظمى في غلاء المعيشة وقلة الأعمال والشقاء الاجتماعى .

ومع هذا فتحت منذ ثلاثين سنة طريقة جديدة لادخال لوردات جدد علاوة على القـدماء وهم من كبار أرباب المعامل والماليين مثل الدوق دى نور فولك وواردانه السنوية سبعة وثلاثون مليون فرنك ماعدا الاربعمائة فدان التى يملكها فى حى وستمنستر فى لندرا وريعها مليون جنيه والدوق دى بوفور أراضـيه البالغة ٢٥٠ فداناً فى لندرا هو مليونا جنيه واللورد نورثا مبتون وريع أملاكه مليونا ليرة وغيرهم كثيرون وبذلك أدخلت بريطانيا العظمى روحاً جديدة فى طبقة النبلاء والمـال أشرف مادة يحترمها البشر قاطبـة وان تنوعت أساليب هذه الحرمة وكل من يغتنى لايسأل النـاس غالباً عن الطرق التى بها بلغ مابلغ شريفة كانت أو وضيعة .

٨٥

كتب كثير من علماء الاجتماع والحكمة من الفرنسيس فى النفس الانكليزية ومنهم مونتسكيو وتين وبوتمي وفوليـه وديمولين [1] كتبوا فى أدوار مختلفة فنهم من كتب فى القرن الثامن عشر ومنهم فى القرن التاسع عشر وغيرهم فى القرن العشرين وفى أمثال العامة « أعرف الناس بك ربك وجارك » ومما قالوه نقتبس الفصل الثانى : انكلترا من بلاد الشمال ولها بينها مركز امتازت به فليس لاقليمها مايعادله بين الاقاليم لانها تتمتع بمناخ يكاد لايختلف طوره فلا ترى فى الشتاء تبدلا في الهواء من شمالى انكلترا الى جنوبها على مسافة تسعمائة كيلومتر فيستطيع سكان بريطانيا أن ينتقلوا من ناحية الى أخرى بدون أن تتأثر أجسامهم من هذا التنقل وتختلف انكلترا عن سائر بلاد الشمال بتعرج شطوطها وخصب تربتها في حين يضعف الهواء المرء في أواسط بلاد روسـيا أوفى شمالي بروسيا فيكتفى الروسي بما حضر لديه من حاجاته ولذلك يقل فيه فكر الاقدام على الأعمال أما الطبيعة فى بلاد الانكليز فتنادى ساكنها بقولها انك ياهـذا تهلك اذا تراخيت وتستمتع اذا جددت . فالهواء فى بلاد الانكليز رطب ولكنه صحي وتقبل بحيث

---

(١) روح الشرائع ومذكرات على انكلترا لمونتسكيو Montesquieu : De l' esprit des lois et notes sur l' Angleterre
ومذكرات تين على انكلترا Taine Notes sur l' Angleterre
وعلم الروح الانكليزية فى السياسة خلال القرن التاسع عشر لاميل بوتمي Emile Boutmy : Essou'd, nue psychologie politique du penple anglais au X L X e sicile
ومختصر فى روح الشعوب الاوربية لفوليه Fouillée : Esquisse psychologique des peuples europeene
وسر تقدم الانكليز السكسونيين لادمون ديمولان Ed. Demolins : A quoi tient la superiorité des Anglo-Saxons.

يكاد يصعب استنشاقه والجسم يهزل فيه اذا لم يتغلب عليه بحركات كثيرة .

تطفح انكلترا بطوال القامات ضخام الاجسام أشداء البنية وفيها من المعمرين الشيوخ أكثر من كل بلد من بلاد أوربا والأرض الانكليزية بما تترطب به من الضباب أو يغمرها من هطول الامطار تحتاج على الدوام الى التجفيف بالقساطر حتى لا تغدو بطائح أوغابات وهى بفضل تمهدها خصبة ممرعة . ومناخ انكلترا يحتاج الى الغذاء الكثير ولا سيما اللحوم وأرضها مستعدة كل الاستعداد لتربية الماشية . والبحر بما ضم قاعه من الاسماك يدخل فى مضايق الى أرض بريطانيا العظمى فيصبح الصيد على طرف الثمام .

وبالنظر لرطوبة الهواء دائماً واصفرار الشمس بما يداهمها من الغيوم التى تنخل أشعتها نخلا لا تزال الظلمة سائدة شطراً من النهار يضطر معه أبن تلك البلاد ان يحسن لباسه ومنامه ودفئه ويبحث عن الاعمال التى تستلزم كدحاً وكداً فهو فى حاجة الى جوخ لثيابه والى جدران غليظة لمسكنه فتراه يصرف جزءاً مهما من وقته فى النسيج والتقطير واستخراج الفحم أوتراب النفط للوقيد خلافاً لابن جنوبى أوربا فانه لا يعوزه مثل تلك العدة ليعيش . والانكليزى اذا لم يجد عامة حاجاته فى أرضه يجلبها من الخارج على سبيل المقايضة مع ماضمنته احشاء بلاده من المعادن والمناجم ويسهل عليه تناول ذلك بما له من وسائل النقل السريعة الرخصية الاجور

واذ كانت الطبيعة الخارجية للامة الانكليزية مدرسة ابداع ونشاط وحذر وتدبر نشأت هذه الفضائل من أسباب جلب المصالح ودرء المضار وكانت من كمال الأخلاق فى هذا الجنس ودعا الجهاد فى الحياة وهو هنا أصعب منه فى كل بقعة الى أن ينسلخ عنه بالانتخاب الطبيعى كل من لم يرزقوا هذه الصفات اللازمة كالمرضى والجامدين والجبناء والعطلين ولم يبق من هذا العنصر غير الاقوياء أهل الدراية العاملين وتأصل ذوق العمل بنشاط دائم فعال فى النفوس حتى صار كأنه أرثى فيها .

ولقد حسبوا أن غذاء انكليزى واحد يكفى ثمانية أشخاص فى بلاد اليونان وبما لبريطانيا من الموقع المتميز باعتزالها فى جزائرها سهل اندماج سكانها . وقد نفعها كثيراً الاختلاط مع الخارج وبما لها من الشطوط التى تبلغ ضعفى شطوط فرنسا بمساحتها يصعب لتعرجها ان تغزى موانيها . وقد كثر في تربتها الحديد والفحم الحجرى . وهذا من أكبر الدواعى فى امتداد تجارتها ثم ارتقاء صناعتها فساعدتها الاسباب المادية على النهوض بعد ان كان أهلها فى القرن السادس عشر أشبه بالاسبانيين بكسلهم وكان الجوخ يأتيهم به الهولانديون من بلادهم وليس عندهم معمل لنسجه ويبعثون هم اليهم بالصوف وقد بدأ عمل الجوخ عندهم فى القرن السادس عشر على أيدى مستعمرين من الهولانديين .

قالوا ان الشعب الانكليزى شعب انتفاعى وهذا يصدق على كثير من الشعوب ولكن العامل الأكبر اليوم فى هذه الامة الهوى في العمل للعمل والميل اليه حباً به . وما الحياة السياسية فى انكلترا الا ابنة الميل الى تمرين القوة والبذل منها بطائل وبدون طائل ومن يجتاز البلاد الانكليزية يشعر بحاجة الامة الى هذا التمرين والى هذا الصرف من القوة بما يراه من الحركة على السيارات واشتغال قوم بالالعاب الشاقة فيوقن بان الرياضات البدنية الشديدة ليست فى انكلترا مدعاة للتسلية بل هى ضرورية لدفع حاجة طبيعية لا تقل في شدة الحاجة اليها عن الجوع والعطش .

كل من زار لندرا يشهد الرجال من الانكليز يركضون فى الشوارع كأنهم عرض لهم عارض مهم جداً يوشك أن يذهب اذا أبطأوا عليه فيركضون نحوه بدون أن ينظروا ذات اليمين وذات الشمال للتحدية والتسلية فهم لا يضعون نصب أعينهم غير الغاية العملية التى هى هدفهم ومنتجعهم حتى اذا وصل العامل الى مكتبه أو عمله ينصرف اليه بجملته ولا يدخل فيه غيره ولا يلتفت الى مايصده أو يخطر بباله فى غير ماهو بصدده فتراه لا ينقطع لحظة عما هو مأخوذ به ولا يني فى مهمته ولذلك كانت أجرة العامل الانكليزى أرقى من أجور عملة الامم الأخرى لانه

لا يلهيه شيء أثناء العمل ويعمل نحو ضعف مايعمله الايرلاندى أو الالمانى مثلا. وهذا المزاج الخاص يؤثر فى جميع الفروع أثراً مدهشاً .

لا يستنكف نساء من عمل يتعاطينه لتكون لحياتهن غاية فينصرفن الى تأسيس جمعيات الاحسان ويخدمن فى المستشفيات ويعملن أعمالا قد تعدها بعض الأمم المتمدنة من الاعمال الوضيعة ولكنها تكون لخدمة الانسانية ولذا أدخل خمسون ألف امرأة في الحزب الحر فى انكلترا وشاركن الرجال ومنهن المطالبات بحقوق الانتخاب قد نلنه مؤخراً والمؤمنون من الانكليز بالدين لا يؤمنون به وينصرفون عن كل شيء بل يعملون باسمين ويجتهدون فى الحياة لا يصدهم ماأخذوا أنفسهم به من الغاية عن النظر فى دنياهم . واذا كان الانكليزى لا يعتقد بالدين فى باطنه يأتى الكنيسة مع أولاده وأهل بيته لاعتقاده بأن الايمان خير من الانحلال .

وبعد فان الذوق واعتياد العمل يجب أن ينظر اليهما كأنهما خاصة جوهرية وصفة لازمة اختيارية لهذا الجنس فهما يصحبان الانكليزي حيث يذهب تشفعهما الاسباب المكتومة من نياته وهما مفتاح أسبابه . وان الدواعى التى أدخلت ضرورة العمل فى هذا الجنس قد أضاعت اليوم من شأنها وذلك لان كثرة الغنى العقلى والمادي قد زاد عدد الأغنياء وأضعف على التدريج فى جزء من سواد الامة الانكليزية الغزيرة الارثية التي بها يعترف الانسان بقانون العمل ويقبل به فأصبح الكسالى والضعاف فى هذا المحيط الجديد أكثر حظاً فى البقاء فتألف منهم عنصر خاص تحرص حكومته على جلب المنافع اليه وأهل السعة من الانكليز يبذلون الفضل من أموالهم له وكل هذا على الجملة لا يغير الصفات التى ورثها الانكليز وتأصلت فيهم مدة قرون .

للاقليم في انكلترا تأثيرمهم فى الشعور والمدارك فهى البلاد التى يجف هواؤها وتكثر كهربائيتها التى تقوى الالياف وتمتن الانسجة . ومثل الحس يكون التصور الطبيعى أى حاسة تمثل المحسوسات تاما فى الانكليزى تتأخر ولذلك نرى الاعمال

الجراحيـة أقرب الى النجاح على يد الانكليزى منها على يد الايطالى مثـلا لأن الاول قلما يضطرب كالثاني . وقدشاهدخصوم الانكليزمن عسكرهمفىحروب اسبانياوواترلو وانكرمانوالحرب العامة عجباً اذ لم يكونوا يتأثرون للاعضاء تبتر والقذائف تنفجروالعظم يكسر والارواح تنزع .

ان أرض انكلترا على ماخصت به من العبوسة والامطار الغزيرة والضباب المتواصل والطبيعة الساكنة قد أثرت في نفوس بنيها حتى لم يجـدوا فى الوجود مايشغلهم ولذا شغلوا بخاصة أنفسهم وقل كلامهم وفضولهم كما قل شعورهم بمـا يأتيه من الخارج . والـكلام كالشعور والفكر يرتقي ويصفو بالرفاهيةورغدالعيش وهو أثر من آثار الثروة العامـة والفراغ ، وصف تين الشعب البريطانى بقوله: من السرور الذى يشفعه السكوت وهو من أعظم ماتطمح اليه نفس كل انكليزي أن يجاهد فىأمر ويتحمل المشاق ولا يرجع عما نوى . وقدأعرب شاعرهم تنسون عن مثل هذا الفكر بمامعناه: ماأعظم على النفوس ان تقف دون غاية وتجعل لقواها حداً وان تصدأ كالسيف يعلق على الحائط بدلا من أن يلمع فى يد حامله ويصفو بالاسـتعمال وليس استنشاق الحياة هو الحياة بل اننا اذا فقدنا كثيراً فقد بقى علينا كثير فما كنا عليه مابرحنا فيه . قلوب أبطال شأنها التساوى بأقسها حتى أصبحت على الزمن ويـد القدر نهب الضعف ولـكنها مسلحة بارادة شـديدة في مضائها وبحثها وايجادها ولا تلين قناتها أبداً .

ووصف أمير سون الفيلسوف الاميركانى العنصر الانكليزى بما يأتي . قالت الطبيعة أن الرومان لم يبق لهم سلطان فلـكى ابنى مملكة جديدة سأختار عنصراً جديداً كله مثال الرجولية معروف بالقوة الوحشية ، وانى لاأعارض فى منافسة تجرى بين الذكور مهما كانوا الى القسوة فليغرز الجاموس قرنه فى وجه جاموس آخر وليمض أكثرها قوة يفتح الطريق فان لى عمـلا أريد أن أتمـه ويستدعى ارادة وعضلات .

يقل فى العنصر الانكليزى على الجملة الاسـتعداد لتصور الأفكار العامة

ويكره النظريات المجردة كما يكره المذاهب المقررة فليس للانكليزي شيء من المجردات يشغله بل تراه أبداً مأخوذاً بضرورة العمل . أليس معنى هذا ان حاسة العموميات ضعيف تركيبها فى انكلترا بل ان العقل عملي لا يقبل الا مايلزمه وينفعه يعرف كيف يضبط نفسه ويحدد حدوده حتى اذا سار بنفسه سار سيراً نافعاً لاسيراً نكراً فعقله لا يشبه قائداً فى جيش يفكر فى وضع خطط الهجوم والدفاع بل يشبه ضابطاً يقود بعيداً عن معمعان الحرب قسما من الجندالاحتياطي المساعد فلا ترى في هذا الضابط قابلية لأن يكون فى الطليعة ولكنه يجيد فى اتخاذ مركز له فى النقط التى تجاوزها الجيش المهاجم وينظم فيها المقاومة .

العقل الانكليزى يفكر فى الأمور القريبة التى هى أكثر ما يكون مساساً به مباشرة وله من مشاغله فى تحصيل ثروته وتحسين زراعته ما يصده عن الحق ولا يفرغ ذهنه الى النظر الى الأشباح الفارغة فهى بعيدة من الأرض جداً غريبة عن الحياة الدنيا غيرملتئمة مع شروطها وضرورياتها . ولذا ترى الانكليزى فى مسائل الدين لا يتعدى أفق العالم الناظر بأحوال النفس . والاخلاقي الذى يبحث فى المرئيات وليس هو صوفياً أو مفكراً ولا موحداً وهو لا ينظر الى القواعد الموضوعة والألفاظ بل ينظر الى الغاية من التدين أكثر من الواسطة وهكذا هو فى السياسة فلا تقوم حريته فقط على الدستور الذى يمنح الحرية على التقاليد الموروثة التى تحمى حمى الحرية القديمة المتأصلة فيه .

من غريب حال الانكليز ان كثيرين من حملة العلم فيهم لم يتعلموا العلوم اللازمة للالمام بالتربية العامة فهم اخصائيون لا تشوبهم شائبة وان من يحاول فى انكلترا أن يحدث أحد علمائهم فى العلم المجرد لا يجد من يستمع لكلامه . فالعالم الطبيعى عندهم هو الذى يعرف كيف يصنع نموذجا ميكانيكياً يطبق فيه العلم على العمل فقط . حتى انك لاترى فى كتبهم فى الكهربائية الا حبالا مرسومة تعلق وتمتد ومواسير يقطر منها ماء وغيرها ينتفخ وآخر ينقبض . وهكذا انكلترا فى صناعاتها لا يصدر منها الا ما يمس تحت حسها ولا نقص فى تقصها الا مايماثل

حالتها الطبيعية وكذلك تاريخها ورواياتها التشخيصية وفلسفتها ، وقد قدر لهذا الشعب أن ينشر البرتستانتية بثباته ويخرج من الكنيسة والكثلكة اذ كانت دين ساطة قادرة روحية تقنن وتحظر وتعاقب والناس معها مكرهون على القيام بتعاليمها .

أما المذهب البرتستانتى فهو دين الحكومة الذاتية الوجداني فالاول موجد النظام والقاعدة والآخر محافظ النشاط ومبدعه . وهذا هو المذهب الذى يناسب أمة خلقت لتعمل .

ان تأخر سن البلوغ فى شبان الانكليز وعفة النساء الانكليزيات وتعدد الأسر والبيوت كل ذلك من أخلاق الانكليزى الحديث كما كان قديماً من خصائص أخلاق الجرمانيين سكان انكلترا الأصليين ، وامتازت الامة الانكليزية من بين الأمم بأنها ظلت متجانسة لم تمتزج بغيرها ، فالانكليز وهم أهم عنصر تتألف منه انكلترا هم جرمانيون من بلاد الشمال ومن أجداد الجرمانيين انكليز وجدت وسكسونيون وكلهم من عنصر المانى والذين جاؤا بعد ذلك لاستيطان انكلترا الدانيمركين والنورمانديين هم فروع تشعبت من تلك الدوحة

الانكليز خارج بلادهم لا يمتزجون بغيرهم من الأمم وهم فى أرضهم أكثر الأمم حرية وأشدها اكراماً وأيسرها لقبول الغرباء . ليست انكلترا جزيرة بل قارة . وانكلترا كما قال الشاعر شكسبير قلعة شادتها الطبيعة بنفسها انقاء نتانة الحرب وشدتها وانكلترا تشتبه في الأفكار والمنازع التى تأتيها من أوربا نفسها ، واذا اقتدت بالبلاد الأخرى فاقتداؤها موقت كأنه للتسلية أو هو سطحى كأنه زى من الأزياء تلبسه اماسواد الشعب فلم يمس بشىء فى منازعه وهو راض بأخلاقه الأولية وبالجملة فقد كانت دواعي الاختلاط قليلة جداً بين الانكليز وغيرهم ولا سيما عامة الأمة ، فالانكليزى أشبه بساكن الولايات فى أوربا وفكره كالشراب بقى زمناً فى مأمن من الاهتزاز نختمر وكثف ولم تعد له تلك الميوعة التى تؤهله الى الاختلاط بشراب آخر وما قط تمازج العنصر الانكليزى بغيره من

العناصر فى البلاد التى أخضعها لسلطانه فهو كالمعدن البعيد جداً عن نقطة التذويب فلا يتأتى أن يجعل منه أدنى مزج ، وما قط شادوا بأنفسهم الشعوب التى انتتحوا بلادها ، وما تلطفوا فى استمالة قلوبهم .

ويشعر الانكليزى بأنه أقل من غيره علاقة بالمجتمع البشرى ، وقلما يقتبس من صلاته مع غيره شيئاً يستفيد به فى تركيب أخلاقه وقلما يبحث عما يفكرون فيه واذا بحث فبحثه مجرد لا يدخل نتيجة فى عواطفه وأعماله فهو ناسك بعيد عن العالم وعن غيره من الأمم بل هو بعيد عن جاره الذي يساكنه فى حي واحد وعن المحيط الذي يعيش فيه ولا يشعر بأقل ضجر من العيش وحده ، ولا يجد حاجة أن يقص ما عمله على غيره ، ولا يسوقه سائق تفسى أن يقف على ما يعمله غيره فهو فيما خلا الشؤون التى تمسه مباشرة لا يهتم الا بما له علاقة بالمسائل الوطنية العامة التى لها به مساس ولكن لا مباشرة بل من طريقة وطنيــة . قال فوليه : لا مراء فى أن للانكليزى نقائص مع ماله من الصفات ، فان استقلاله يعرضه للانانية وشعوره بالوحدة يقوده الى الجفاء والغرابة فى الفكر تؤدى به الى التعته وفلسفته فى التعبد بالحقائق واحترام النجاح والقوة والغنى أوصله الى احتقار الضعيف والفقير

يقول أميرسون : انك تحسب الانكليزى اذا اجتمع مع الاجانب أخرس فهو لا يصافحك ولا يتركك تنظر ما فى عينيه فى الفندق ويلفظ اسمه بحيث لا يسمع فكل واحد من هؤلاء الجزائريين جزيرة بعينها . ويقول مونتسكيو : « يصعب على الفرنسيس أن يكون لهم أحباب فى انكلترا وكيف يحب الانجليز الغرباء عنهم وهم لا يحبون أنفسهم وأنى يعطوننا ماناً كل وهم لا يتواكلون . يجب أن نجرى على خطتهم فلا نهتم بأحد ولا نحب أحداً ولا نعتمد على أحد . قال يجب أن تراعى طبيعة البلاد كما هى فاذا كنت فى فرنسا فأصحب كل الناس وفى انكلترا لا تستصحب أحداً وفى ايطاليا أقرّظ جميع الناس وفى المانيا أشرب مع كل الناس » وقال كارلايل الانكليزى : الانكليز شعب أخرس وشرح ذلك بقوله : ان السكوت يزيد فى علاقتهم

ونظامهم مع مايبين عنه اللسان . الانكليزى يميل الى الاختفاء ولا يهمه الظهور بل يهتم لتجويد العمل من حيث هو عمل نافع ولذلك ترى جرائد انكلترا لا يوقع كتابها على مقالاتها وهى مع هذا أرقى من جرائد فرنسا التى يوقع كتابها على مقالاتهم ليقال عنهم أنهم كتبوا وصحفهم أكثر صحف أوربا مادة وأكثرها صدعاً بالحق وأقلها انغماساً فى الرشاوى لخدمة أغراض خاصة وقال فولنى العالم الفرنساوى فى سر نجاح الانكليز فى الزراعة والتجارة والصناعة : « انهم بالسكوت يجمعون أفكارهم ويتفرغون الى التدبير والتقدير على ماينبغى ويحسبون دخلهم وخرجهم ويصفو فكرهم أكثر وينبعث كلامهم جلياً ومن هنا كان التدقيق والرواء رائد جميع أعمالهم العامة والخاصة »

قال فوليه : ان انكلترا لا مثيل لها بصناعتها وتجارتها وانتشار مستعمراتها والتئامها التئاماً عملياً مع الحكومة الحرة وهى دهشة بشمرها وآدابها وحركتها العلمية والفلسفية ومع هذا لم تعمل على مايظهر شيئاً يرفع من قدر الجنس الانسانى برمته كما فعلت ايطاليا وفرنسا وألمانيا وقلما تهتم بنشر ما اقتنته من الحقائق لتحملها الى خارج بلادها فليس من ذوقها الدعوة الى مباديء حادثة ولكنها قامت للعالم بمثال باهر من الحرية والعمل والأمثلة تساوى أحياناً أكثر من المبادىء . بعض الشعوب أولعت بأن وضعت نصب عينها غاية فى الكمال العام ورجحت انكلترا أن تضع موضع العمليات لعظمة جنسها وانتساره كلمة معجبة كتبتها احدى المدن الانكلوسكسونية على سلاحها وهى « أريد »

ان كان من خلق الانكليزى الاقدام على العظائم فان حب الجديد والذوق فى المجهول ليس فيه الا على ضعف أيضاً فالانكليزى يبقى انكليزيا ويعيش عيشاً انكليزيا حيثما نزل . والانكليزى أقل من الفرنساوى والايطالى فى اليأس من النجاح وأكثر منهما هزؤاً بالمتاعب والمخاطر لعلمه بان لها حداً لا تتعداه ولا بد من حل مشكلاتها . وقلما تراه يحسب حساباً لنكد الطالع فترى الشاب يتزوج من

فتاة وهو فى مقتبل العمر ولا يطالبها ببائنة (دوطة) بل يقترن بها بلامهر ويقدم على تأسيس أسرة فيزيد نفقاته ثلاثة أضعاف ما كانت عليه والصانع يقدم على ادخال اصلاح فى عمله بجرأة ويتخذ أسباب النجاح وهو يعلم أنه لايلبث أن يتم اصلاح مصنعه حتى يقوم صانع آخر ينافسه ولكنه يكون استفاد من الفترة بين اصلاحه واصلاح منافسه وترى المهاجر منهم لا سبد له ولا لبد ومع هذا ينزح ويبزح تحت أثقال المتاعب وهناك سبب آخر وأعنى به الهوى فى العمل أو التجنن فيه وفى الحركة والذوق فى العمل من أجل هو عمل وكل ذلك مما تقتضيه حالته الطبيعية . وانا لنرى المرسلين منهم يتغربون فى الارض ولا يخافون بل يتعزون بما يتم على أيديهم فى الاقاصى وينامون ملء جفونهم شاكرين ويعملون أعمالاً فى السر ابتغاء وجه الله

ومن خلق الانكليزى أنه متشدد فى الاحتفاظ بالحالة الحاضرة فارباب العقول الغريبة فى تصورها كثيرون ولكنك لاترى فيهم أحداً يميل الى الثورة وقد اشتهرت انكلترا بانها بلد التقليد المستعصية حتى على اللازم من التجدد وثلاثة أرباع سكانها لا يشعرون بالحاجة الى ادخال تعديل فى القوانين والاخلاق والربع الآخر يقبل بالتعديل فى بعض أحوال مخصوصة ويتعلق بها ويلاحقها بنشاط . ولذا رأينا الشعب الانكليزي قد جالد لاول وهلة ريثما أدخلت عليه أساليب الارتقاء حتى المادى منه فلما تسرب اليه صار فى لحمه وعظمه وهكذا شأن الامة العظيمة تتشدد فى تقاليدها وتستنكف فى الغالب عن قبول كل جديد الا اذا ثبت لها ماينقضه ثبوت الشمس والقمر . فقدقيل: القوة الحقيقية في كل مملكة ماعرفت به من الاخلاق الطبيعية . وتقايد الاجانب على أي صورة كانت عار على الوطنية .

مهما بلغ من انحطاط مكانة الرجل الانكليزى في المجتمع ومهما بلغت حرفته من الامتهان لايحسد من كان أعلى منه منزلة وله من عمله الذى يستمتع بمنافعه أعظم سلوى ولذلك قل انمالت الطبقة العاملة فى انكلترا الى تغيير نظام الاتراف

فى المجتمع لاعتقادها بأن الاعمال مقسمة لان الحظوظ متباينة وبينا ترى فرنسا تقول للوزير كن فكان مهما كان وضيعاً وللنائب كن نائباً فكان مهما كان منحطاً فى أصله وللشريف كن شريفاً فيكون تجد انكلترا لا تسمح لوضيع أن يعد فى جملة العظماء الا بعد ثلاثة أجيال وذلك على نظام وترتيب تدريجى لعلم القوم بان الطبيعة فى انكلترا تتأخر في كل شيء ولذلك اقتضي أن يكون ارتقاء الناس كذلك

« قال تين »: ان ثلاثة أشياء فى انكلترا أحسن منها مما فى فرنسا وعلى العكس فالسياسة فى انكلترا راقيــة لانها ثابتة لا تتغير كما هى الحال فى فرنسا كل عشرين سنة . وهى حرة لانها تدعو الافراد الى الاشتراك بها بالفــعل وتسلم القيادة فيها الى الطبقة العالية لانها أقدر من غــيرها وتــكون لها مشغلة تصدها عن البطالة . وصحافة الانكليز أكثر مادة وأصح نظراً ومجالسهم أوسع اختصاصاً . وكذلك الحال فى الدينيات فان الاخلاق تقوم مقام الطقوس والمعتقدات . وكأن الدين عند الانكليز يدعو الي الحكم الذاتي والى سلطة الوجدان وتهذيب الارادة ويترك مجالاً كبــيراً للتأويل والعواطف الشخصية والدين لا يعارض العــلوم الحديثة وميول العصر الحاضر ورجال الدين يتزوجون . وللدين تؤسس المدارس والدين يوصى بالعمل ولا يدعو الى الزهــد والقائمون عليه كجمهور الناس لا امتياز لهم عليهم .

قال ولم تغزَ انكلترا منذ ثمانمائة سنة ولم تقم فيها حرب أهلية منذ مئتى سنة ورأس مالها أكثر من فرنسا مرات وعلائم الرفاهية والغنى فيها أكثر من كل شعب من شعوب الأرض الانكليزى بحسن الزراعة والصناعة والعمل أكثر من الفرنساوى ويحسن تربية نفسه بنفسه والخاصة عند الانكليز أرقى من الخاصة عند الفرنسيس وعلمهم راسخ وعملهم نافع وفرنسا تفوق انكلترا بجودة مناخها وتقسيم الثروة بين أفرادها لان لديها نحو خمســة ملايين مالك أرض ولذلك كان الفقراء أقل شــقاء فى فرنسا مماهم فى انكلترا وليس فى أرض الفرنسيس أغنياء ضخام الثروة كالانكليز لان الثروة تقسم بينهــم والمواريث عنــدهم متساوية

والفرنسيس يفضلون جيرانهم بحياتهم البيتيةوالاجتماعية اه

من خصائص الانكليزى أنه يشبه ميكانيكياً تعلم علم الحيل(الميكانيك)بالتجربة لا بالنظر فتراه مهما أن ينتج بما له من آلة ما أمكن من النتائج ولا يحرص على تبديل محركها أو أدواتها لعلمه بأنه اذا فعل ذلك أقتضى عليه أن يوقف العمل وان يبذل الوقت والاهتمام سدى من أصل رأس ماله المحدود وهو يدرك بأنه اذا حدث للآلة ما يضر سيرها تقف أحياناً وتنقطع فائدته وفائدتها ولذلك يجد من نفسه داعياً الى القبول بتعديل آلة على أن يغير أدواتها القديمة بأدوات جديدة ولكن بدون أن يوقف الآلة ويقلل من مغلها

يعتقد الانكليز بالضعف البشرى ويشعرون بضرورة أخذ الامور بالتدريج والبداءة بها من الصغير للوصول الى الكبير حتى لا تقف القاطرة فى هذا الجهاد وتتهور فى منحدر لا تقوم منه فهم فى شرائعهم يكتفون بتعديلهاواصلاحها مع الزمن وماقط حدثتهم أنفسهم أن يضربوا بما لديهم عرض الحائط ويضعوا غيره من عند أنفسهم والانكليزى مع هذا اذا رأى الخير فى تعديل قانونه يصر عليه فقد رأينا أصحاب الصحف على عهد الاصلاح النيابى الكبير قد صعب عليهم أن يصدروا منشوراتهم النافعة لأنه قضى عليهم أن يدفعوا عن كل نشرة طابعاً فأجمعوا أمرهم على ان يصدروها بدون طوابع فغرمتهم الحكومة وحبستهم ولكن جرائدهم ومنشوراتهم ظلت تصدر على عادتها بدون طوابع واصروا على رفعها ومضت اربع سنين على هذه المسألة حبس لأجلهازهاء خمسمائة رجل حتى اضطر مجلس النواب ان يجيب الطالب وان تضررت الحكومة من رفع قسم مهم من الميزانية .

يعمل الانكليزى عمله حباً بالعمل نفسه على حين يعمل غيره من الأمم لاحراز الثمرة التى تعقب الشرف او الراحة والرفاهية والدليل على ذلك مانراه فى اهل الطبقة العالية منهم ممن لهم ثروات تغنيهم من تعاطي الاعمال فنراهم يصرفون نصف ايامهم فى الالعاب الرياضية الشديدة غير مبالين فكأن الرياضات

لهم كالفطرة المستحكمة كما كانت الألعاب الاولمبية فى يونان ايام عزهم ثم انك لاتجـد غنياً لا يصرف شطراً من وقتـه فى النظر فى شؤون مقاطعته وابرشيته وكثيراً مايهلك قواه فى هذا السبيل بينا تجد ابنه فى اوستراليا او مانيتوبا يعيش مع رعاة الغنم فى تلك البلاد القاصية المنفردة وابنه الآخر من المرسلين فى جنوبى افريقية يعمل شاق الاعمال •

وبينا ترى الانكليزي اكثر الأمم تحاشـياً مما فيه عبودية واحرص الناس على التناغي بالحرية الشخصية والحرية المدنية كحرية الاجتماع وحرية التكلم وحرية القول تراه فى نظام أسرته قد احتفظ حتى الآن بنظام الحكم المطلق فترى الابنة تأتي زوجها بدون أن يعطيها والدها بائنة لأن العادة جرت بين الأغنياء وأرباب اليسار أن يحفظوا لبكر الأولاد العـقارات ويقسموا الأشياء المنقولة بينه وبين أخيه الاصغر منه سناً وتنال الابنة حصة من ذلك ويكون فى الغالب دخلا قليـلا تناله من واردات أبيها . حرمت ذلك حتى لاتجيء دار زوجها بما يرفع رأسها عليـه لأن الرجال يريدون أن تكون لهـم السلطة التامة فى بيوتهم واذا اتفق أن زوجاتهم جاؤهن بشيء من المال يضيفونه الى ثروتهم ويحرمونهن حتى الوصاية على أولادهن والتصرف بأموالهن ، والزوجة مع زوجها وما يختار هو لا ماتختار هي . والوالد والوالدة يربيان ابنهما بعيـدا عنهما ولا تأخـذهما به شفقة والولد اذا غاب عن والديه ينساهما واذا مثل بين أيديهما يحترمهما

قال « تين » : الانكليز مشغولون بأشغالهم ليس عندهم من الوقت مايظهرون فيه بمظهر الأنيس المتهـذب أما الفرنسيس فهم أهل لطف وطرف يفتح بعضهم الى بعض قلوبهـم ويبوحون بذات أنفسهم وهم أشكال يتبذلون بينهم فى خطبهم ويتنزهون ويسيرون ويركضون ويذهبون طاقاً حتى يسقطوا . الانكليز نوابغ فائقون وهم لا ينسجون حتى ولا على آثار الاقدمين الذين يعجبون منهم فى باريز يطيش المرء مما يرى من العالم فلا يعرف الا العادات الظاهرة وليس له من الوقت مايتمكن به من معرفة الرذائل والفضائل . لو سئلت عن مرامي الانكليز لصعب

على فى الحقيقة ان أجيب عليها فلا الحرب ولا المنشأ ولا المراتب ولا السعداء من الناس ولا الهذيان فى نيل رضى الوزراء مما يهتمون به بل هم يريدون أن يكون الرجال رجالا ولا يعتبرون الا شيئين الغنى والاهلية أريد بلفظ نبوغ أمة الاخلاق وصورة الفكر فى الشعوب المختلفة التى تقاد بتأثير بلاط ملوكى أو عاصمة واحدة . فالانكليزى والفرنساوي والايطالى ثلاثة مظاهر من مظاهر النبوغ .

وقال أيضاً أرى مدينة باريز مدينة جميلة وفيها أمور بشعة وأرى لندرا مدينة بشعة فيها أمور جميلة جدا . فى لندرا الحرية والمساواة ولكن حرية أرباب الحشمة من الناس ومساواتهم وفى ذلك تختلف عن حرية البندقية وهى حرية العيش فى الظلمة والتزوج من بنات الهوى . ومساواة لندرا هى مساواة حشمة ووقار وبذلك تختلف عن حرية هولاندة التى هى حرية السفهاء والسفلة . ليس أمام الانكليزى اذا تلفت صحته غير سبيلين اثنين اما أن ينتحر او يصبح لصاً . وقال : ان المال محترم عند الانكليز للغاية أما الشرف والفضيلة فليس لهما تلك الحرمة . لما كان الانكليز لايتحابون فى بلادهم حتى لاينخدع أحدهم بصاحبه أصبحوا قساة . الانجليزى يبدى نحوك أدبا قليلا ولكنه لايبدو منه ماينافى الأدب قط

انجلترا اليوم أكثر بلاد الأرض استمتاعا بحريتها ولا استثنى من ذلك ولا جمهورية . أدعوها حرية لأن الامير ليس له فيها سلطة حتى يسىء لاى كان وذلك لان سلطته محدودة مراقبة ولكن اذا أصبح مجلس النواب الحاكم المتحكم تصبح حرية بلا حد اذ تكون بيده القوة الاجرائية على أن السلطة اللامتناهية هى للمجلس والملك الآن والقوة الاجرائية للملك المحدود السلطة فعلى الانجليزى الصالح أن يتوخى الدفاع عن الحرية من اعتداء الملك والمجلس. قال أحدهم لما مسكوا الحبل الأزرق سنة ١٧٣١ للمستردى بروغلى: انظروا الى هذه الامة انها طردت الاب وأنكرت الابن واستصفت روح القدس

٨٦

جزيرة أو جزائر بريطانيا العظمى عزلتها الطبيعة عن أوربا كأنها قارة برأسها فجاءت أخلاق أهلها وعاداتهم نمطاً غريباً يدهش لها الغربي قبل الشرقي . وفي أكثرها الجيد الصالح . ومن أكثر علمائنا الذين قضوا أعواماً في بلاد الانجليز واختلطوا بهم واطلعوا على أحوالهم العلامه أحمد فارس [1] فقد أجاد في وصفهم فاقتبست جملا من كلامه لأن من أقام في بلد أعواماً لا يشبه من زاره أياماً قال:

ينقسم جيل الانجليز الى خمس طبقات «الطبقة الأولى» الأمراء والوزراء والنبلاء وذوو المناصب السامية ويلحق بهم الأساقفة « الثانية » الأعيان أو العلية وهم الذين يعيشون من أرزاقهم وأملاكهم لا من معاطاة شغل أو حرفة وليس لهم جلاء أي لقب عظيم « الثالثة » العلماء والقضاة والفقهاء ويلحق بهم القسيسون والتجار أهل المراسلات «الرابعة» التجار أصحاب الدكاكين والكتاب وهم الذين يحتاجون الى تحصيل معاشهم بالاحتراف والاصطراف ولكن من دون ابتذال ماء الوجه « الخامسة » أهل الحرف والصنائع والعملة ويلحق بهم الفلاحون وهم الجمهور الاكبر فعادات أهل الطبقة الأولى مباينة بعض المباينة للثانية ولكن ليس بينها وبين الاخيرة مناسبة أصلا وعادات أهل الطبقتين الثالثة والرابعة متساوية لا اختلاف فيها الا ماندر أما أهل الطبقة الثانية فان لهم من وجه نزوعا الى الاولى بالنظر الى العز والاستبداد ومن وجه آخر ينزعون الى الباقي بالنظر الى الجنسية والالفة والغالب على جميع هذه الطبقات حب الوطن والمباهات بما عندهم من الصنائع والاحكام والاذعان للقوانين التي بنيت عليها

---

(١) الواسطة في معرفه أحوال مالطة وكشف المخبا عن فنون أوربا (الطبعة الثانيه بمطبعة الجوائب في قسطنطينية ١٢٩٩ ه)

معاملات دولتهم ودواوينهم . ولما كان أصحاب الطبقة الاخيرة هم الجمهور الاكبر وهم الحريون بان يقال لهم بريتانيون أو انجليز لكونهم بقوا على قديم أحوالهم وأطوارهم ولم يعرفوا غيرهم من الاجيال إلا بالمعاشرة ولا بالمطالعة وجب أن نقدم ذكرهم أولا فنقول : ان أول خلة يراها الغريب فيهم هى عدم اكتراثهم له ونفورهم منه فلا يفرحون لفرحه ولا يحزنون لحزنه بل لا يعنى أحدمنهم بشأن جاره ولا يهمه أمر غير أمر نفسه فكل ذى حرفة يقتصر على الاشتغال بحرفته مدة حياته ولا يتطالل الى معرفة شيء غيرها فالفلاح مثلا لا يعرف شيئا الا ما آل الى الحرث والزرع والقين لا يدرى مما يحدث فى بلاده سوى مايختص برواج سعر الحديد والطلب على الادوات المصنوعة منه وهلم جرا الى المهندس والطبيب . واذا استراح الرجل منهم ساعة قضاها بذكر ماعمل وما سوف يعمل. ويمكن أن يقال ان بهذه الخصلة استتب عز دولة الانجليز وعظمت شوكتها . لان الرعية لا تعترض ذوي الامر والنهى في تدبيرهم ولا تتطاول الى معرفة ماتقتضيه سادتهم وأهل شوراهم . وهم أطوع خلق الله لاولياء أمورهم . ويمكن أن يقال أيضا انهم لعدم اختلاطهم بغيرهم من الناس يحسبون أنفسهم وهم فى هذه الحالة أسعد خلق الله وان جميع رسومهم وأحوالهم مستغنية عن التبديل والتغيير

ومن طبع الانجليز الرث وهو البلادة وقلة الفطنة فلا تكاد احداثهم تفهم شيئا من كلام الغريب بينهم بل الكهول أيضا لا يعون مايلقى عليهم الا بعد الروية والتأمل وشتان مابينهم وبين الفرنساوية فان الحدث من هؤلاء يبتدر الى الجواب كانما قد درسه ودراه من قبل سؤالك اياه ولو قلت أن البريتاني القح ليس له من نوعى العقل سوى نصف المكتسب ونصف الغريزى لما أخطأت وتلك صفتهم من القديم

ومن طبعهم انهم لا يتزاورون ولا يسهر بعضهم عند بعض وكيف يسهرون وهم انما يرقدون فى الساعة التاسعة ويقومون صباحا فى الساعة الرابعة وربما

بقى الرجل سنين ولا يعرف جاره وكذا أهل المدن وغاية محاورتهم اذا تلاقوا فى الطريق أن يقول أحدهم طيب بطرس فيقول الآخر طيب يوحنا . واذا اجتمع المتعارفان منهم وتساءلا فلا بد أن يبتديء أحدهما أولا بوصف الهواء وصحوه أو برده ثم يخبره بما عرض له من وجع فى كتفه أوثالول فى رجله أو اختلاج فى عينه فيقول السامع يحزننى ذلك جدا ولا يكاد احدهم يضحك ضحكا طبيعيا وانما هو عبارة عن قهقهة ثم يعقبها الكتم والعبوس

ومن طبعهم أيضا أن لايحترموا الشيخوخة من حيث هى شيخوخة ولا تهاب الاولاد والديهم كما تهاب الاولاد عندنا ولا يحن الوالدون أيضا على أولادهم كما عندنا ولذلك يقع كثيرا ان الاب يقتل ولده والولد يقتل أباه وأمه . ومن منكر عاداتهم التى لايمكن أن يحولوا عنها مع علمهم بأن جميع الافرنج خالفوهم فيها حلقهم لحاهم وشواربهم . ومن عادة العامة الملاكمة ويقال لها «البوكس» والملاكمة للعامة بمنزلة المسايفة للعلية غير أن هـذه محظورة يجب فيها الحد وتلك مسكوت عنها وقدكانت سابقاً بمنزلة الملهى فى اجتماع الناس للتفرج عليها . وفى أواخر القرن الماضى كانوا يتعلمونها فى المكاتب . ومن طبع الانكليز عموماً التهافت على الشهرة والنباهة بين أقرانهم بأى سبب كان ولا سيما فى أسباب المعارف والعلوم . ومنهم من يعتقد بالطيرة والتفاؤل وظهور روح الميت عند قبره وهذا الوهم فاش حتى عنـد عامة سكان المدن وشرع الانكليز أطول الشرائع أحكاماً وأكثرها قيلا وقالا وأوسع من علم العربيـة فاياً واعلالا . فان بعض الدعاوى التى تستدعى دهاء الفقهاء ومحالهم ربما يدوم خمسين سـنة فأكثر ويمكن تقسيم شرعهم الى أربعة أقسام . الأول ماتناقلوه من أحكام الرومانيين والزماندليين والسكسونيين الذين فتحوا بلادهم ويدخـل فى ذلك أمور من قبيل العادة . وفي الحقيقة فان جل عاداتهم سـنة لهم . الثانى مابنى على العدل والانصاف ومراعاه المصالح على وجه الاستحسان والترجيح اذ لم يرد فيـه ولم يجر فيه حكم فيحكم بالرأى حسبما

يترجح عنـدهم أنه الاصلح . الثالث أحكام مجلس المشورة وهى غير متناهية الرابع أحكام ديوان الكنيسة

وتحيتهم فى الصباح هى أن يقولوا صباح طيب وفى المساء مساء طيب ثم يردفوها بقولهم « هودويودو » وترجمتها كيف تعملون أنتم تعملون وهو سمـة تنبىء عن مزيد ميلهم وتوقانهم الى العمل حتى انه يوجد فى لغتهم نحو عشرة ألفاظ مرادف للعمل وهو أكثر ماعندهم من المترادف ولا يخاطبون بضمير المفرد الا البارى تعالى أوفى الشعر وهو ضربة لازب فاما عند الفرنسيس فاستعماله انما هو فى مخاطبة الادلال كأنه يكلم المحب محبوبته أو الوالد ولده . ومتى خاطبت أحداً من فلاحى الانكليز وهو مصغ اليك أبدى همهمة عند كل جملة أعنى قوله « هم » فكأنها عندهم حرف بمعنى نعم وعند كل فقرة تقضى بالاعتبار يقول اه واذاهم خاطبوك نفضوا رؤوسهم ولا يكادون يشيرون بالايدى كما هو دأب أهل مالطة وايطاليا وغيرهم وليس للهجتهم مطلقاً نغمة مطربة سواء تكلم بها جاهل أو عالم أو ولد أو امرأة اذ ليس في كلامهم مدّ ولا حركات طويلة وأصوات الرجال من حناجرهم بخلاف اللغة الفرنساوية فان فيها غنة تستحب من الأولاد والجوارى جدا وربما طرب لها من ليس يعرفها . ومن عادة النساء اذا كلمن أحدا من الخاصة ان ينحنين له عند كل سؤال وجواب وعادة الغلمان ان يضعوا أيديهم على رؤوسهم وكذا هى عادة الخادم مع مخدومه عند كل سؤال وجواب حتى القسيسون أيضا يرتاحون لهذه الدغدغة واذا خاطبوا أحدا بكلام توبيخ وغيظ قالوا له « سر » وهى بمعنى « سيد » حتى انهم يقولونها عند طردهم كلبا ونحوه فيقولون مثلا اخسأ ياسيدى وقد يستعملونها أيضا لتعظيم المخاطب واجلاله . والرجل يقول عن زوجته معلمتى والمرأة تقول عنه معلمى . واذا خاطب زوجته أحد من الخاصة بلفظة « مادام » كان ذلك اشارة الى تنافرهما فخطاب الرضى انما هو أن يقول لها يامحبتى وياعزيزتى وربما قالوا ياقلبى ولا يكادون يفهمون ياروحى وياعينى

اذا دخلت على أحد من أهل المدينة احتفى بك غاية الاحتفاء وان لم يكن

بينكما صلة أو معرفة وعند الانصرف لايزيد على أن يقول لك فيأمان الله وربما لم يقم لك واذا دخلت على افرنجى أراك أنه مشغول عنك بما هو أهم من الزيارة وسألك أن تسرع فى عرض حاجتك وعندانصرافك من عنده ينهض لك ويرافقك الى الباب وعند الفرنسيس لابد من أن يكلمك هناك كلاما يوجب وقوفكما ولو دقيقة أشارة الىأنه لم يملمنك وعامة الانكليز هم دون عامة فرنسا أدبا وكياسة كما أن علية أولئك أفضل من علية هؤلاء وليس عند الانجليز فضول وتكليف على الدخيل فيهم بل ولا على من هو منهم فلا يزورونه فى غير وقت الزيارةولا يستعيرون منه ولا يتعرضون لما يأتيه •

ومن ذلك الجد فى المساعى وعدم الشماتة وكراهية العبث الموجب للتنافر والعداوة أو لنكاية الخصم فى الكتابةوعدمالتهافت على الحسد فاذا رأوا عندك مثلا متاعا نفيساً لم يكن عندهم مثله لم ينفسوا عليك فى احرازه ولا يقولون ياليت كان لنا مثله . ومنها انهم يضبون على مابهم فلا يتظلمون ولا يجدفون أى يستقلون عطاء الله ولا يقولون ليس لنا وليس عندنا فكل واحد منهم يريك أنه مستغنعنك ولا تكاد تسمعخادماً يطعنفى مخدومه أو خادمة تعيبمخدومتها وان كانا يكابدان عندها ، واذا نبغ فيهم انسان فى فن وصنعة لم يجد منيتصدى لتجهيلهوتخطئتهفلا يحسد ولا يبخس حقه . بل يجد من ينشطهوييسر له أسباب العلم ، ولا يتشبثون بأعقاب الاقاويل ولا يأتون النميمة والغيبة الا قليلا ، ومن ذلك حسن الترتيب والتدبير فى الاشتغال والمصالح والتوقيت للعمل فلكل شىء عندهم وقتولكل وقتشغلفاذا اتفق انزارهم أحدفى ساعة الشغللميتحاشوا أنيقولوا له مثلا قد أنسنا بكولكن علينا قضاء مالابدمن المصالح فلاتؤاخذنا وزرنا فى يوم كذا فينصرف عنهـم عاذراً لاعاذلا ومن ذلك اختصارهم الكلام مع المخاطب اذا اعتمدهم بشىء فاذا احتاج الصغير الى الكبير فى شىء قال له انى أرجو أن تكون من المحسنين الىَّ بتمويل طلبتى فأكون لك من الشاكرين فيكونجواب الكبير له بغير ملث سأبذل جهدى فى مصلحتك وأخبرك

وأما اذا رأى المسئول نفسه غير قادر على إحساب سائله وتبعه قال له مصرحاً أن سؤالك فوق طاقتي فاقصد غيري ولكن متى وعد فلا بد من انجاز وعده فلا محال ولا مطال

ومن الخصال المحمودة الحرص على ما يؤتمنون عليه فاذا سلمت لأحدهم مثلا طرساً فانه يصونه عنده بمنزلة طرس نفسه حتى اذا استرجعته بعد سنين أعاده عليك كما تسلمه بل ربما أزال عنه الوسخ ورده اليك نظيفاً وقال لك وهو معتذر قد تجاسرت على أن أزلت الطبع عن الطرس وأرجو أني لم أسيء فيما فعلت . وقس على هذا سائر ما تأتمنهم عليه وينضم الى ذلك احترامهم للرسائل فلا يفتح أحدهم كتاباً جاء باسم غيره بل يبذل جهده في ايصاله اليه واذا زارك منهم زائر فلا يمد يده ولا طرفه الى ما بين يديك من الصحف فاذا أراد أن ينظر في كتاب لم يلمسه الا بعد أن يستأذنك

ومن ذلك تنشيط أولادهم الى الاشغال وتمرينهم على ما يكسبهم واياهم الرزق الكافي والمواظبة على الاعمال والصبر على ما يتعاطونه جل أو حقر فانهم لا يملون من السعي ولا يرون في الكسل راحة ولا يقول أحدهم اني كبرت عن تعلم شيء فلا يزالون دائبين كالنمل مادامت فيهم نسمة تتحرك ومع كل هذا التجلد والتحمل فمتى ضيم أحدهم أو سقط شرفه أو مال نجمه فاهون شيء عليه نحر عنقه . ومن رام أن يكرم نفسه عندهم فليظهر لهم أنه مستغن عنهم ولا يعرض لهم في طلب شيء ولا في استعارته وبناء على ذلك يصاحبون من يصاحبون أياما وشهورا وسنين ولا يسألونه عن مقدار دخله وخرجه ولا يريدون أن يسمعوا ذلك منه اذا ذكره . ومتى وثق أحدهم بانسان وعرف منه الجد والاستقامة والامانة يأتمنه على زوجته وبناته فيذهبن معه ليلا ونهارا بلا مانع ومن يحضر الى بلادهم بوصاة من عند معارفهم احتفلوا به وعدوه منهم وصموا آذانهم بعد ذلك عن سماع ما يقال فيه من الذم . واذا زارهم أحد أول مرة ولم يكن من معارفهم فلا بد من أن يعطي الحاجب تذكرة مكتوبة باسمه فيناولها الخادم سيده في صحفة

من الفضة أو البلور ولا يكاد يدخل عليهم زائران فى وقت واحد وقد يكون عند البواب دفتر يكتب فيه أسماء الزائرين في كل يوم . وفى الجملة فان معاشرة هؤلاء الرؤوس تتعب الرأس والرجل معاً وتضيع كثيراً من الوقت والمال . وربما دعاك أحدهم الى غداء فقام عليك ذلك الغداء ثمن عشرة أغدية . ومما يحمد من هؤلاء النبلاء انهم لايضعون فى أرديتهم سمات الشرف ويطوفون به فى الطرق تهويلا على العامة كما تفعل نبلاء فرنسا وانما يتحلون بها فى أوقات معلومة وكذلك الخواتين لايتحلين بالحلى والجواهر الا فى الولائم والسهريات ونحو ذلك .

ومن ذلك خطابهم خدمتهم بالرفق واللين وان أظهروا عليهم العجرفة والعنجهية فالمخدومة تقول لخادمتها اذا أمرتها بأن تناولها شيئاً هاتى هذا الشيء ان أعجبك . وبعد أن تأخذه منها تشكرها وربما تباخلت عليها فى الاكل والشرب وأرضتها بمثل هذا الكلام الطيب فيطيب خاطرها . ومع هذا الرفق والملاطفة فلا تزال المخدومة متباعدة عن الخادمة ومظهرة لها فرق المقامين وتباين الشانين فلا تدل عليها بشيء واذا غضبت عليها فلا تكلمها بكلام يشف عن سفاهة وخروج عن حد الأدب ويحمد أيضاً من عاداتهم انهم اذا استخدموا شخصاً لسنة وأرادوا صرفه لغير ذنب نبهوه من قبل صرفه بثلاثة أشهر وعند الفرنسيس ينبهونه من قبل ثمانية أيام فاما اذا كان مشاهرة فينبهونه قبل صرفه بأسبوع أو أدوا اليه أجرة الشهر وصرفوه

قال ابن فارس هذا واني سمعت من كل من عاشرته وقد عاشر الانكليز أن يصفهم بالكبر والعجرفة وكبرياء علية الانكليز انما هى فى وجوههم أكثر منها فى ألسنتهم وقلوبهم . وان وسم الناس اياهم بالعجرفة مطلقاً ليس فى محله الا انى لاأنفى عنهم الاتصاف بعزة النفس وترفيعها عن أن تذل لغيرهم وهى من الخلائق المحمودة لدى جميع الخلائق فاما كبر السفلة منهم فهو ابداء العبوس أيضاً مضافاً اليه عدم التأدب فى الكلام والحركات ونبرهم فى الخطاب وسوء الضحك والالقاء والمنقلب وهلم جرا . هذا وكما اشتهر عن الانكليز الكبر كذلك اشتهر عنهم الصدق

ومما يحمد من الكبراء ومن ذوى المراتب السامية هنا انهم لا يتداخلون فى التجارة ومن منكر عاداتهم انه اذا دخل أحد على جماعة من هؤلاء العلية ولم يكن يعرف منهم غير واحد فقط لم يسلم الا عليه ما لم يعرفه بهم صاحبه فاما اذا دخل على قوم ولم يكن يعرف منهم أحداً فلا يحيى مطلقاً بخلاف عادة الفرنسيس فان من يدخل على جماعة أياً كانت يضع يده على رأسه أو ينزع برنيطته احتراما لهم وكذلك اذا خرج وان لم يكن يعرفهم .

انكلترا والاستعمار

٨٧

من لم يطلع على التاريخ والجغرافيا لا يعتقد عند ما يقع بصره على البلاد الانكليزية أن حكومتها استعمرت مملكة واسعة أعظم من مملكة قيصر وأعمر منها ، ولقد ارتكبت انكلترا أغلاطاً كثيرة وركبت أخشن مراكب الجنون للوصول الى مستعمراتها ، وعلى ما فى طرق استعمارها من النقص الذى لم يتم بالاصلاح حتى الآن يصعب أن يقال [1] أن شعباً نجح فى هذا الباب أكثر من الانكليز اذا اعتبرنا اختلاف العناصر والأخلاق والاهوية والطباع

تتناول مستعمرات انكلترا نحو ثلث مساحة الارض وربع سكانها واذا استثنينا اليابان والصين نجد انكلترا قد اتصلت من الاصل أو بالحكم مع أكثر من ثلث الشعوب المتمدنة في العالم فلها فى قارة أوربا أربع مستعمرات وفى قارة أميركا احدى عشرة مستعمرة وفى افريقية أربع عشرة مستعمرة وفى آسيا ست مستعمرات وفى أوستراليا ثماني مستعمرات ولكل واحدة قانونها الخاص تشتد

---

(١) انكلترا وحكومتها ومعاهدها لدى فونبلانك

A . De Fonblanque : L. Angleterre son gouvernement — ses institutions.

صلاتها بالمركز (لندرا) أو تلين بحسب عراقتها فى المدنية وجهادها فى سبيل الحرية والقومية .

والفضل الاول فى حفظ جزائر بريطانيا ومستعمراتها الى الاسطول الانكليزى الذى حطم كل اسطول ماعداه لجيرانه حتى غدا الاول فقد قال المؤرخون أن الانكليز ما كانوا يحلمون بأن ينقلبوا من قرصان بحر الى دولة بحرية عظمى فقد استأجر هنرى الخامس سفن الهولانديين فى القرن الخامس عشر للاستعانة بها على حملته الى فرنسا ولم يكن للبلاد قبل عهده بحرية حربية لحماية الشواطئ وكانت جميع تجارة بريطانيا الخارجية بعد الهولانديين واللومبارديين والهانسيين تستميلهم الحكومة البريطانية بما كانت تمنحه من الامتيازات التى تحرم منها رعاياها من الانكليز . ولم تهتم انكلترا الا عهد ريشار الثانى بحماية علمها ولم تؤثر الاسباب التى اتخذتها الا على عهد هنرى السابع وظل الانكليز الى آخر أيام الملكة اليزابت غير مستعمرين . بدأ القرن السابع عشر وليس لانكلترا خارج أوربا ولا مستعمرة وقد سبقهم جيرانهم النازلون على ضفاف البحر الاتلانتيكى .

كتب أحد رجال البحرية فى انكلترا أواخر القرن السادس عشر يصف البحرية الانكليزية فقال : لا يتأتى للبحرية الانكليزية أن يكون لها وجه شبه مع البحرية الهولاندية ، فقد أصبحت هولاندة كما كانت مدينة صور القديمة ومدينة البندقية الحديثة مستودع كثير من البضائع يصرف منها واحد من المائة ببلادها والباقى خارجها والهولانديون يأتون الينا متاجرين كل سنة على ٥٠٠ الى ٦٠٠ سفينة ولا نكاد نبعث اليهم بأكثر من ٣٠ الى ٤٠ سفينة فالهولانديون يتجرون مع جميع موانى فرنسا ونحن لا نتجر الا مع خمس أو ست موانى وسفنهم وحدها تبلغ أكثر من جميع ما يملكه مجموع أمم النصرانية فهم يبنون فى السنة ألف سفينة . هذا وليس فى بلادهم شجر ، وحاصلات أرضهم لا تشحن أكثر من مائة سفينة اهـ

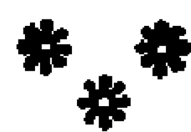
وأن تحطيم السفن الانكليزية فى بحر الشمال والمانش سنة ١٥٨٨ للاسطول الاسبانى الذى لا يغلب L,invincible Armador كان مبدأ تفوق انكلترا ببحريتها وقد ساعدت انكلترا يومئذ الأنواء فلم تبق منه الا طويل العمر وقد وقع لانكلترا مسألتان ساعدتاها على هذا التفوق وهما اكتشاف أميركا سنة ١٤٩٢ وكانت جنوة وبيزا وفلورنسة والبندقية واكسبورغ وتروي ومدن الهانس مجمع التجارة والتجار ففتح اكتشاف أميركا أمامها بابا جديدا فأصبحت مملكة من ممالك المحيط الباسيفيكي وفاقت على الدول الخمس التى كانت ممتدة على شواطىء هذا المحيط .

دخلت البورتغال أول الدول فى ميدان الاستعمار ثم اسبانيا ثم هولاندة وقد بلغت هاته الدول الثلاث أرقى درجات سعادتها الاستعمارية فى منتصف القرن السادس عشر وقامت فرنسا بمثل هذا الأمر بعد ذلك بقليل وكانت فيه أرقى من انكلترا وهذه جارت الأخيرة ، ولم تصرف أكثر من قرن لتعوض الوقت الذى أضاعته ولم يعترف بها بأنها دولة بحرية قوية تطمح الى الاستيلاء على " حار الا يوم صلح أو ترخت سنة ١٧٠٣ وعجيب تأخر انكلترا عن جيرانها لدول الخمس المفتحة موانيها على البحر الاتلانتيكى كيف لم تنتفع حالا من تجارتها مع أميركا على مالها من المركز الغريب وهى أقرب الأمم الى العالم الجديد وشواطئها تمتد على طول ٧٩٠٠ كيلو متر أى ضعفى شواطىء فرنسا واذا كان الانكليزى فى أى نقطة من بلاده لا يبعد عن الساحل أكثر من خمسة وعشرين فرسخاً هذا مع تعدد موانيهم وأنهارهم ووصول سفنهم حتى الى العاصمة والى كثير من الحواضر بدون أدنى عائق على حين ليس لهولاندة والبورتقال من الموانى مايعدها لاعداد الأساطيل الكبيرة ولفرنسا واسبانيا مشاغل فى اليابسة تحتاج لان تصرف قواها البرية فيها وتعنيا بها زيادة على البحرية .

كان من الاضطهاد الذى وقع على البرتستانت لأول انتشار مذهبهم فى انكلترا أن هاجر كثير منهم الى أميركا والى غيرها فاستعمروا البلاد واستصفوا الممالك

وأنشأوا فى أيام نكبتهم لأمتهم ممالك بنيت على التضامن وكان سداها الاقدام ولحمتها الوطنية . وأخذت انكلترا تطوف البحار التى كانت مجهولة الى ذلك العهد تؤسس فيها أماكن مثمرة تقرب بين محطاتها وتوطد سلطانها وتحمل الى القاصية علمها فتألف من ذلك عنصر مؤلف من بحارة شجعان ومستعمرين مقدمين وتجار للربح متعطشين يغلب عليهم الصدق فى متاجرهم . وحسن الذمة شرط فى التجارة ولكنهم لايعبأون بالشرف فى المسائل الأخرى فهم قلما يراعون عهودهم مع الدول الأخرى بعيدون عن الانسانية متشبعون بالانانية · والظلم عادة لمستعمريهم ونشأ من ذلك حب التوسع فى الملك على صورة لامثيل لها فى أمة . وان من تفرقوا فى أميركا من مهاجرة الانكليز ونزعوا أيديهم من الكنيسة البابوية قد ربوا على استقلال الفكر والاتكال على المولى الحامى المطلق لخلقه ، ومن هذه الجماعات أو مجموع كنائسهم المجددة نشأت تلك المملكة الاميركية . فانجلترا قبل هؤلاء المستعمرين كانت تتوسع اليوم بعد اليوم أما فرنسا واسبانيا فكانتا تتراجعان فى مستعمراتها الحين بعد الآخر .

دخل فى الاستعمار بالهجرة أو الفتح شعوب أوربا العربية لقيام بلادهم بالقرب من الاوقيانس الباسيفيكى والاتلانتيكى والهندى أى اسبانيا والبورتقال وهولاندة وانكلترا وفرنسا والدانيمرك ثم تبعتها ألمانيا وايطاليا وأنشأوا البلاد وأسسوا الممالك ولكنهم كانوا باستعمارهم كلهم دون استعمار الرومان واليونان والفينقيين فى حسن معاملة المستعمرين والاحسان اليهم فى البلاد التى نزلوها على شواطىء البحر المتوسط وبحر الشمال فكان رائد المستعمرين من المحدثين القضاء على من نزلوا بينهم ولا سيما العبيد وهذا مما يؤسف له (١) ويصعب تطبيقه على ارتقاء النصرانية والعهد الحديث عن مستوى الوثنية والعالم القديم



(١) معجم السياسة والاجتماع لبلوك Block. Petit dictionnaire politique et social

وهالك الآن نموذجاً من ادارة الهند أكبر مستعمرات انكلترا بل أكبر ممالك الأرض بعدالصين تدرك منها أسلوبهم فى حكومتهم الغريبة التركيب المنوعة الاجزاء التى تحيلها فى بودقتها بالزمن الطويل الى انكليزية صرفة بمباديها ومراميها الا قليلا ·

لما استولى [1] الانكليز على الهند عقيب ان دالت دولة المغول ورفع عن بعض ارجائها علم الفرنسيس لم يجدوا أمامهم حكومة وطنية فى البلاد ولا جماعة اجتمعوا لتدبير شؤونهم تربطهم المصلحة المشتركة بها بل رأوا هنا وهناك عصابات غير طبيعية نشأت بالاتفاق بطبيعة الفتح وظلت بطبيعة الحال عبارة عن مجتمعات منفصمة العرى تجمع تحت لوائها ملايين من الناس فى أماكن متباينة وكان لهذه الأقوام بحسب مكانتها زعماء يقودونها سموا أنفسهم أمراء وراجات ونواباً وسلاطين وأمبراطرة ولم تتغير هذه الصورة من الحكومة منذ الاعصر التى استولى فيها الفرس والمقدونيون والبارثيون والتتار والمغول وغيرهم على تلك القارة

ومع ماتراه من حال ذاك الشعب المهزع المنتشر الاطراف الخالى من كل جامعة قد أنشأ له مدنية باهرة دامت قروناً تنير العالم بدائعها وظلت الى يوم الناس هذا لم تمسسها يد بسوء · فارتبط الهنود من الشمال الى الجنوب من جبال حملايا الى رأس كومور برباط واحد وعملوا بقلب واحد وتشبعوا بروح واحدة تدفعها الثبات الذى لايوصف والغاية المشتركة التى وجهوا كلهم وجهتهم اليها وذلك انهم لم يرموا الى غرض سياسى ولا الى غرض اقتصادى بل لأن المجتمع الذى ألفوه ورتبوا درجاته [2] لم تكن غايته زمنية دنيوية بل كانت دينية فاستقام الامر للمستعمرين لأن القوم لاتهمهم السياسة ولان النواب والراجات المغلوبين على أمرهم ليست لهم أصول راسخة فى البلاد ولا منزلة فى قلوب الأمة فكان الدين هو الذى يحرص القوم على بقائه والانكليز أحرص الناس على احترامه ولا سيما بين طبقات البراهمة التى كان لها تأثير شديد فى العامة

---

(١) من مقالة فى المجلة الزرقاء الفرنسوية Revue Bleue

(٢) فى الهند سنة ١٩٢٠ قبيلة مختمعة (Caste) وقال آخر انها ١٤٠٠

أدرك الانكليز فى الحال صراحة بأنهم فى حل من أن يؤسسوا في الهند الحكومة التى تروقهم من حيث الادارة والنظام السياسى والتشريعى على أن لايمسوا المعتقدات ولا رجال الدين بسوء فأنشأوا حكومة جديدة سموها حكومة الاستقلال ولم يراعوا فى تأسيس هذه الحكومة أصول الشعوب اذ كان هنا البنغاليون الجياع والماهراتيون الشجعان وفى مكان أبعد سكان ميزور وفى المقاطعات الأخرى السيخيون النشيطون فتجد الفلسفة العالية والتصوف البديع الى جنب الخرافات المستحكمة والتعصب الشديد بل راعوا اختلاف طبائع الاقاليم من حيث وضعها الطبيعى عملا بما قاله أحد رجالهم من أن الاختلاف فى أصقاع الهند أشد مما تراه فى ظاهر أرضنا وسياراتنا . ولم ير المستعمرون من مصلحتهم أن يؤلفوا وطنية هندية فيكون لسكان بنجاب وبنغال وطنية خاصة بل عزموا على توسيع الاختصاص والسلطة وتقسيم البلاد فى ادارتها على خلاف ماجرت عليه فرنسا فى ربط البلاد كلها بالعاصمة مباشرة لأنها ترمى الى تجنيس أهل البلاد المستعمرة بالجنسية الفرنسوية . وبعد تجارب طويلة تمت لانكلترا سنة ١٨٦١ صورة ادارة الهند وكانت هذه الصورة معدلة منظوراً فيها وهى الصورة التى جرت عليها شركة الهند الشرقية سنة ١٧٧٣ واستصدرت بها قانوناً من مجلس النواب فقسمت الهند أولا الى ثلاث ولايات بنغال ومدراس وبومباى دعوها رئاسات Présidence لان ادارتها كانت بيد مجلس ينشر القوانين وينفذ القرارات وفى النصف الثاني من القرن الثامن عشر وهو دور الحروب والمنازعات الهائلة رأت انكلترا من الضرورة أن توحد الادارة السياسية مع الادارة الحربية لتقوية كل منهما فعهدت سنة ١٧٧٣ بولاية الهند لحاكم بنغال بحيث يكون له التقدم على حاكمي مدراس وبومباى ولكن ولايته اسمية لافعلية فأخذت الولايات الثلاث تضيع الوقت فى الاخذ والرد والادارة مختلة الأساليب لاترجع الى يد تضم شملها حتى اذا كانت ثورة السيباى سنة ١٨٥٧ وهى التى كادت تخرج انكلترا من الهند وضعت الحكومة صورة ادارة كانت أساساً للامبراطورية الهندية

. وهو عمل اداري لم توفق اليه أمة ولم يخطر فى خاطر حاكم .

فقسمت أراضي الهند الى طبقتين جوهريتين أراضى السلطنة البريطانية أى البلاد التي تحكمها انكلترا مباشرة وهى عبارة عن ولايتي مدراس وبومباى اللتين بقيتا على ما كانتا عليه فى حدودها وولاية بنغال وقاعدتها كلكوتا جعلت عاصمة المملكة وقسمت الى ثماني مقاطعات لها حق الانتخاب . والطبقة الثانية أمارات الوطنيين التي تركت تحت سلطة الراجات الاسمية أو الفعلية فقسمت الى قسمين فى وضع الحماية الانكليزية عليها وبذلك صار الحكم للوالى العام والرئاسات وحكومات الولايات والامارات الوطنية

ولحاكم الهند أو نائب ملكها مجلس مؤلف من ستة وزراء لهم معاونون وفى بعض الاحيان ولا سيما عند سن القوانين يضطر الى أخذ آراء المجلس وله الحرية أن يعمل بها أو يرفضها وهؤلاء الوزراء يشبهون من وجوه كثيرة وزراء لويس الرابع عشر لا وزراء أدوارد السابع وهم وزير الداخلية والخارجية والمالية والمعارف والتجارة والحربية والعدلية والاشغال العمومية ويحق لوالي مدراس وبومباي أن يحضرا فى المجلس عضوين فوق العادة وهذا المجلس الوزاري يجتمع فى المكان الذى يستنسبه الحاكم العام حيثما التأم فهناك العاصمة . ويضاف الى هذا المجلس بعض الاعضاء فيصبح برلماناً أى مجلس نواب فيكون نصف هؤلاء الاعضاء الاضافيين من الاعيان أوربيين كانوا أو وطنيين على أن لا يكونوا من موظفى الحكومة يعينهم الحاكم العام فبذلك يصبح العنصر الرسمى فى هذا المجلس أكثر من العنصر الأهلي وهذا العنصر قليل العدد ولذلك لا حكم له ومعاونته اسمية فى الأغلب

أما المجلس التشريعى فله سلطة واسعة لا يقف أمامها الا امتيازات البرلمان البريطانى وحقوق السلطنة الانكليزية وتنفذ قراراته عند ما يصدق عليها حاكم الهند . وهذه الطريقة التى تسهل احالة السلطة الاجرائية الى السلطة التشريعية تحل مسألة تقسيم الادارة على أيسر وجه فى حين تمنحها وحدة الآراء والاميال

وفى مجلس النواب كما فى مجلس الوزراء يعمل كل عضو بما فيه المنفعة العامة وينظر فى المسائل التى يحسن معرفتها بخلو غرض ويعطى رأيه حراً وللموظفين ضمانات لاتضر بالنظام ولكنها تقى أشخاص كل الوقاية

تنظر الحكومه العامة فى المسائل الملكية خاصة كالديون العمومية والكمارك والرسوم الاميرية والمقايضات والبريدوالبرق ونفقات الحربية والاديان وقانون الجزاء والتمتع والعلائق الخارجية والحقوق الادبية وغيرها ولتوجه دفة السياسة الى الوجهة التى تختارها وتوحد بين المصالح العامة والخدم العامة فهى المنظمة والمدبرة وحافظة العهد الدستوري أما ولاة الاقاليم فلكل منهم مجلس خاص ومجلس تشريعى لاتسرى احكامه على أحكام الحاكم العام كما أن هذا لايعتدى على امتيازات الامبراطورية وما عدا ذلك فالحكومة مالكة حريتها برمتها ولها مطلق التصرف ان تقرر ماتشاء . ويخاطب واليا مدراس وبومباى لندرا مباشرة ويتناولان التعليمات بأنفسهما أما سائر الولايات فادارتها ترجع الى ولاة وبعضها الى متصرفين يعينهم الحاكم العام ويتناولون رواتبهم من الامبراطور ويختارهم من الموظفين الذين قضوا عشر سنين فى الهند على الاقل وهم يخابرون كلكوتا فى شؤونهم ولكن فى الامور الادارية ولهم سلطة كسلطة واليى مدراس وبومباى ولهم الميزة عليهم بأنهم أكثر خبرة ونفوذاً

أما الجيش فيؤلف من جيش عامل من الاوربيين والهنود ويقدر بمائتين وسبعين ألفاً منهم ثلاثة وسبعون ألفاً من الانكليز ومن جيش مساعد تقدمه الأمارات الوطنية المستقلة عدده ٣٨٠ ألفاً ولكن على الورق فقط وعنده أربعة آلاف مدفع واذا استثنى من الجيش العسكرى الانكليزى وبعض الآلايات كالسيخيين والباتام والغوركا فالجيش الهندى لايساوى شيئاً واذا استثنى من الجيش المساعد فيلق مملكة الكواليور لايساوى شيئاً أيضاً . قال أحد كبارهم : ان هذا الجيش عبارة عن خليط من الأوباش لاعلم له بالتدريب الحربى وليس لديه سلاح منظم وان الايين أو ثلاثة من جيشنا مع بطارية خيالة تمزق شمل خمسين

ألفاً من مثل هؤلاء المحاربين فمجموع هذا الجيش العامل وقدره سبعمائة ألف مع الجيش الاحتياطي هو عبارة عن تضليل يزول كالسراب أو كالدخان عند مداهمة الخطر

وتقسم كل ولاية وارداتها مع الولايات العامة على نسبة محدودة وتقوم بنفقات القضاء والمعارف والاشغال العمومية واعانة البائسين ولكل ولاية الحق فى أن تستلف نقوداً على واردات خمس سنين تصرفها فى الطرق التى تراها نافعة لعمران ولايتها وتقتصد ماتشاء وفى الهند أربع محاكم عاليـة فى بومباى وبنغال والشمال الغربى ومدراس تميز اليها أهم الدعاوى المدنيـة والجزائية وينتخب أعضاؤها من قبـل السلطنة الانكليزية ويقبض كل عضو من مئة ألف الى مائتى ألف فرنك راتباً سنوياً وفى كل حاضرة ولاية محكمة إستئناف ومحكمة جزاء نقالة ثم محاكم المقاطعات ويعمدون تارة الى استعمال قانون لندرا واذا وقع اختلاف بين أوربيين من رعايا انكلترا يطبقون عليهم القانون الهندى وأحياناً قانون الجزاء الانكليزى الهندى

ومأمورو الادارة الملكية عبارة عن ٧٦٥ موظفاً فيكون بذلك موظف واحد لكل ربع مليون ساكن وتحت أيديهم صغار الموظفين من الوطنيين (١) ومن مبدأ إنكلترا فى الهند ان تبقى جميع الوظائف الكبرى فى أيدى الاوربيين وتعطي جزءاً مهما منها للوطنيين ولا ترى الحكومة ان تقبل أحـداً من رعاياها الهنود وتجعلهم انكليزاً فى جنسيتهم وهم يهزأون بفرنسا التى جنست رعاياها فى بوندشيرى بجنسيتها وأعطتهم حق الانتخاب لارسال نواب وأعيان .

أما الأمارات الهنـدية المستقلة فهى منقسمة الى طبقتين تقل فى الأولى السلطة الانكليزية عليها ومنها الأمارات الاسلامية التى تركت وشأنها لان ذلك أقل فى النفقة عليها ولكن حالتها الى الزوال لادنى اشارة تصدر من الحاكم العام ثم ان أمراء تلك الأمارات الاسلامية هم غرباء ويدينون بدين يكرهه السواد

---

(١) فى الهند ٢٥٠٠ موظف وطنى يقبضون مسانهة من ١٢ الفاً الى ٢٥ الف فرنك فيكون عدد الموظفين الوطنيين الذين يقبضون من ٣٠٠ فرنك الى ١٠٠٠٠٠ فرنك بنسبة ٩٠ في المئة

الأعظم من رعاياهم فهكذا تجد فى مملكة النظام مملكة حيدر آباد الدكن [1] تسعة ملايين من البراهمة مقابل مليون من المسلمين وفي سائر الممالك المستقلة [2] خمسون مليون برهمى أما ممالك كواليور واندور وبارودا فليس لها من المهراتية الا الاسم لأن أمراءها دخلاء عليها . اما ممالك الطبقة الثانية من الوطنيين فتختلف عن هذه كثيراً ومن هذه الممالك ميزور وراجبوتانا وترافانكور وجيبور وجوبور وملوكها من البراهمة ولئن اعتادوا العبودية فذلك لأنهم كانوا الى عهد قريب خاضعين للمهراتيين والمغوليين ولذلك ترى الحكومة من الحكمة ان تضيق خناقهم وهى لاتخافهم ولكنها لاتركن اليهم الا قليلا قال جايمس ستيفن : ان الانكليز فى الهند هم نواب تمدن محارب وسلام تدعمه القوة وما من بلاد نظمت شؤونها وحالفتها الدعة والراحة مثل الهند البريطانية ومتى خفت شدة الحكومة يكر نظام الهند كأنه مأخوذ بسيل جارف اه . وتنقسم درجات التعليم فى الهند الى ابتدائى ووسط وعال وهو النقطة الضعيفة من ذاك البناء الانكليزى الهندى البديع

ان من يسكنون البلاد الواقعة بين نهر الاندوس وشاطىء كوروماندل ويطلقون عليهم اسم الهنود يجب أن يجعلوا من الشعوب التي تشمئز من الغريب وتعاديه شأن كل الشعوب التى لها تاريخ قديم وفلسفة معروفة وتمدن خاص بها وهذا يصدق على الاكثرية من البراهمة كما يصدق على الاقلية من المسلمين فالبراهمة يرون من واجباتهم ان لايحيدوا قيد شبر عن تعليم أولادهم الصنعة التى يعلمها آباؤهم بالارث وتلقينهم الفروض الاجتماعية والعالمية والدينية التى تصدر عن زعمائهم وان جزءاً من هذا الشعور ليتعلمه الطفل بالفطرة والتقليد وباقيه يحصله فى مدرسة قريته أو يأخذه عن رئيسه الدينى مع مايأخذ من آداب

(١) مؤسس هذه الدولة هو من نسل احد قواد اورنك زيب المشهور الذى خلص سنة ١٧٢٤ من سلطة المغول وعاصمة مملكته حيدر آباد وهى انكليزية محضة جسيمة البقعة جميلة بين المدائن

(٢) عدد هذه الامارات عشرون امارة وهى ماعدا مملكة باهوبال وناهاوال لاشأن لها من حيث السياسة ودخلها ١٢٥ مليون فرنك

أمته ودينها فيملأ ذهنه بالتراكيب المبهمة والصلوات ولا سيما صلاة الغداة ومعناها « لنعبد النور السامي من هذه الشمس ربة كل موجود في الوجود التي تقود فكرنا كما تقود عين معلقة بقبة السموات »

أما التعليم الحديث فان رب الاسرة يدفعه عن أسرته مشمئزاً بقدر ما كان يشمئز لاوكون من هدايا اليونان ويرفضها ولذلك يعز على البراهمة أن يخونوا مبادئهم المقدسة وأكثر مايحذرونه من الامور التي يحملها اليهم الغرب المدرسة فان شيئاً خفياً في فطرتهم يدعوهم في السر : اياكم والمدرسة الانكليزية فهي عدوتكم

وعلى هذا حارت انكلترا في سياسة التعليم التي تجرى عليها بين البراهمة لانها لاتستطيع ان تعلمهم التعليم الاوربي الا اذا أضرت بمعتقداتهم الدينية ومعتقدهم هو وطنيتهم وهي لاتريد أن يخرجوا عنها حتى ان انكلترا اضطرت سنة ١٨٤٠ ان تجيب مطالب ثلثمائة ألف رجل اجتمعوا في سهل بنارس يقيمون الحجة على الرسوم التي تريد وضعها على البيوت وعزموا أن يهلكوا جوعاً أو تجيبهم الحكومة الى الغاء هذه الرسوم فاجابتهم مكرهة مخافة أن يحدث وباء فاذا عادت روح الاعتصاب وسرت في أعصاب مائتي مليون رجل لمقاومة سياسة التعليم ماذا تعمل بريطانيا ؟

ولم تر انكلترا أسلم لها من تلقين الهنود مبادئها بالتدريج على أن تعلمهم ماتعلمه أبناءها في عاصمة الجزائر البريطانية وتشربهم حب الانكليزية على شرط أن لايحيدوا عن جادة الاخلاص لها ولا يسيئوا استعمال المفتاح الذي تسلمهم اياه ويستخدمونه لفتح الباب في ايذائها

والمسألة لاتخلو من اشكال أيضاً فيما يتعلق باهل الطبقة العالية من المسلمين فقد جاء في احد التقارير عن الهند مانصه : « اذا صرفنا النظر عن الاسباب الاجتماعية والتاريخية في الشعب الاسلامي في الهند نرى لانحطاطهم أسباباً ذات شأن لها علاقة بتربيتهم التي تؤثر في حياتهم . » فتعليم الجامع يجب عندهم أن

يكون سابقاً دروس المدرسة ولا يتيسر أخذ الطفل من المسلمين الا بعد أن يقضى بضع سنين فى مدرسة يتعلم فيها اللغة العربية والفقه الاسلامى ولكن تعليم المدرسة الدينية يقوده الى أن يختار الخدم الدينية مؤثراً لها على أربح المسالك والاعمال . وقد أيدت التجارب هذه الملاحظة اذ حدث انحسب الوظائف العامة قد أثر قليلا فى المسلمين فى الهند وظلوا يقاومون التعليم الانكليزى كل المقاومة ولحسن طالعهم لم تعن الحكومة الانكليزية بان تجعل المسلمين أوربيين كما صرحت على جعل الهنود كذلك ورأت انكلترا ان تنقذ الطبقة العالية من الهنود من الاوهام القديمة لتستخدم منهم أناساً فى الادارة والقضاء والمالية وقد رأى لورد ما كولى سنة ١٨٣٥ على مافيه من العقل الذى أثر تأثيراً سيئاً فى الهند ان من الواجب تعليم اللغة الانكليزية فى مدرسة شبان الهنود من أرباب الطبقات المختلفة لترشح التربية الانكليزية من الاعلى الى الادنى وكان يقصد من ذلك ان يأخذ مايلزم للبلاد من الموظفين من أهل البلاد أنفسهم

وفى سنة ١٨٥٤ أنشأت انكلترا ديوان المعارف العمومية فعنيت بادخال اللغة الانكليزية الى مدارس بنغال وبنارس ونظمت مدارس الوطنيين مع محافظتها لها على صفاتها الخاصة وفي سنة ١٨٥٧ أثمرت البذرة التى وضعها لورد ما كولى فى تربة الهند فأسست ثلاث كليات فى كلكوتا وبومباى ومدراس على مثال الكليات الانكليزية فيها أنواع الراحة والرفاهية وندرس فيها الدروس التقليدية وأنشئت فى حاضرة كل مقاطعة مدرسة عالية وفى المدن الصغرى مدارس وسطى ثم أنشئت كليات لاهور لاقليم بنجاب و لله آباد لاقليم الشمال الغربى وساغ للمتخرجين من تلك الكليات أن يتدرجوا في المراتب مثل من تخرجوا من كليتى اكسفورد وكمبريج

فتخرج من تلك الكليات أناس من أرباب الذوق والادباء والمشرعين وقل فى المتخرجين العلماء اذ لاحظ السير هنرى مين ان عقل الهندى المستعد لقبول ماحلا وطاب من المعارف هو محروم مما يتصور من قياس مدقق للحقيقة فالهندى

يجيد التكلم والكتابة والتفكر الدقيق ولكنه متوسط الاستعداد للحساب والارقام وأصبحت الحكومة تبعث الى لندرا بارقى طبقة من متخرجى كليات الهند ليكونوا نموذجاً على اشتغالها وراموزاً لمن طبعتهم بطابعها فكانت تكرم وفادتهم فى لندراولم تعقهم ألوانهم السمراءوتناسب أعضائهم وعيونهم التى تقدح شرراً وقاماتهم القصيرة وحركاتهم المتناسقة وأمزجتهم الشديدة عن أن يستميلوا قلوب الناس اليهم ونالوا من الكرم البريطاني أنواع الرعاية والعناية وفتح الانجليز لهم أبواب دورهم الانيقة الشريفة كأن كل فرد منهم كان أميرا خطيرا وراجاً كبيرا فأخذوا بما شاهدوا وتكلنزوا على أجمل أسلوب وعاشوا عيش الوطنيين الانجليز وقدروا حق قدره كل ماني الوطنية من الاحترام والامن والشرف والاستقلال العالى .

فكانوا يتعاشرون ويتسامرون ويتعارفون فى المجالس الى من يخطبهن من الآنسات الفتانات الشقر البيض ويلعبون معهن أنواع الالعاب المألوفة والرياضات الانجليزية النافعة وكانوا في جميع أحوالهم مثال الظرف فى ألبستهم والترتيب فى قبعاتهم حتى اذا أتموا دور التمرين التى كان كل يوم منها ابتسامة للمستقبل وتشبعوا بهواء الغرب وتبطنوا أسرارفلسفة هربرت سبنسروشوبانهور و نيتشى وخفقت أفئدتهم بما علمت وتلبس شعورهم بالبدائع وحشيت عقولهم بخطب مجلس النواب الانكليزى ـ يركبون البحر عائدين الى بلادهم بلادالشمس والحرية يحملون أجمل ذكرى مما رأوه وفى صناديقهم وأصونتهم الاوراق المطيبة والزهرات الذابلة وقطع من الشريط وبعض الفساطين يؤبون والكبر آخذ منهم ويعود محيطهم البرهمى يتحيفهم ويرجعون الى سابق أوهامهم وأحقادهم على الادارة الانكليزية التى لم تؤثر فيها كثرة تغذيهم بمبادىء أصحابها

ولقد شاعت اللغة الانكليزية بين أمراء الهند حتى صارت لهم بمثابة لغة الاسبرانتو فى الغرب يتكلم بها الهنود وهم من أجناس مختلفة وأصحاب لهجات متباينة فالمتكلمون باللغة السنسكريتية والبراكريتية والبالية والتيلنكا والبنغالية

والهندستانية والمالا كالية والتامولية وغيرها من لهجات الهند يحسنون الانكليزية كأهلها وهذا ماحدا انكلترا ان تضاعف مدارسها وكتاتيبها وكلياتها ثم رأت من الحكمة أن تعتمد على العنصر الاسلامى فاعظمت له مكانته وأقلت من مكانة العنصر البرهمى فزاد ذلك البراهمة نفوراً وأخذوا ينادون فى سرهم وجهرهم « الهند للهنديين » وأرادوا محاربة الانكليز حرباً اقتصادية فلم يكن من أبناء جنسهم أناس يكفون للظفر فى هذه المعارك فلم يسعهم الا أن يلجؤا للاجانب فكان الألمان وهم الشعب الذى يحاول أن يخلف الانكليز فى كل مكان هم الذين مدوا أيديهم للهنود وأصبح ماتخرجه هندهم من بالات القطن وصناديق الشاي وأكياس القهوة يسافر الى ميناء همبورغ بدل منشستر .

ثم حدثت مشاغبات وفتن وقتل رجال الثورة بعض أعضاء الحكومة فلم يسع انكلترا الا أن تعطى الهند نظاماً جديداً مصبوغاً بالصبغة الديمقراطية أكثر من ذى قبل وأشركت الهنود فى سياسة بلادهم واستعملت انكلترا الرفق فيمن دعوا الى الثورة من رجال الصحافة والمحاماة وكان من تقربها من روسيا وتحالفها مع اليابان أكبر مفتر لهم الهنود عن نزع أيديهم من يد حكومتهم أما المسلمون الذين رأت بريطانيا بعد حين ان تعتمد عليهم فقد تحركت نفوسهم وأدركوا قصورهم خصوصاً عند مارأوا اخوانهم شبان العثمانيين الأحرار الذين حرروا المملكة العثمانية من السلطة الاستبدادية كل هذا ليصدق على سكان الهند ماقاله أحد المفكرين من رجال السياسة الانكليزية « سيبقى الشعب الهندى على الدوام شاهداً ناطقاً بالماضى غير ممسوس بيد الغرب الا مساً خفيفاً » ومحاولة تجديد شبابه هو من الغلط وقلة الخبرة اهـ .

هذا وصف لادارة حياة الممالك فى أكبر مستعمرة لاكبر دولة وقد كانت الهند مدة قرن ملك شركة تستثمرها بمراقبة [1] مكتب تعينه الحكومة ويقيم فى لندرا وبعد ثورة السيباى سنة ١٨٥٧ انحلت الشركة وجعلت تحت ادارة

(١) الهند اليوم لالبرميتين — Albert Metin . L' Inde d' aujourd'hui

الحكومة مباشرة . وأصبح مكتب المراقبة وزارة الهندالتى مازالت تؤلف دائرة على حدتها غير وزارة المستعمرات . وسموا الهند أمبراطورية وجعلوا الملكة فيكتوريا ملكة انكلترا اذ ذاك أمبراطورتها وذلك سنة ١٨٧٧ وما زال ملك بريطانياالعظمى يقرن الى القابه لقب « أمبراطور الهند »

لم تعدل كما رأيت فى الفصل الذى سلف الادارة الانكليزية الا ببطء شديد والتبديل الذى وقع حتى الآن فى الاصول القديمة لم تغير من طبيعته فان الشركة الانكليزية أتمت عمل الادارة المغولية وما ادارة الهند كما قال أحد رجال انكلترا الا أشبه بادارة والد مستبد يملك فى الجملة جميع الأرض ويرى من واجبه أن يقوم بواجب أعمال صاحب ملك غنى وذكى . وفى الهند اليوم مائة ألف جندى وضابط وموظف من الانكليز يقبضون رواتب مهمة ويقضى على رجال الادارة أن يحسنوا اللغة الوطنية لأن الترجمان لا يعبر عن فكر المترجم عنه وله وقد يرتكب الغلط عن قصد فيبوء الاوربى بتبعة ذلك أمام المرؤوس أو المتقاضى والهنود يجدون من رجال الادارة عدلا وفضل شرف فيما قيل . وعمال الهند من الانكليز موسع عليهم فى المشاهرات فيبدأ أحدهم براتب ثمانية أو عشرة آلاف فرنك فى السنة ثم يزيد بسرعة حتى ان من يصل الى مرتبة راقية فى الجملة يتقاعد فى سن الخامسة والاربعين وينال راتباً سنوياً قدره ألف جنيه ويعود الى انكلترا مستريحاً ويقبض نائب ملك الهند ٤٣٠ ألف فرنك مسانهة . ورواتب الموظفين فى المستعمرات الانكليزية باهظة خلافاً لسائر الامم فى مستعمراتها التى تتوخى الاقتصاد فلا يدخل فى خدمتها الكفاة من أهل الطبقات المختارة .

ويعيش ضباط الانكليز وعمالهم فى الهند فى عزلة عن الوطنيين لا يختلطون بهم ولا يساكنونهم ولا يقبلونهم فى أنديتهم . وبعض الفنادق تقفل فى وجوه الوطنيين حتى المتخرجين فى الجامعات الانكليزية منهم ويحظر على الدارسين من الوطنيين فى محطات السكك الحديدية أن يدخلوا غرفة الانتظار بل هى خاصة بالانكليز والاوربيين . ولكثير من شركات الخطوط الحديدية مركبات خاصة

بالبيض وأخرى مقصورة على غيرهم من الوطنيين . والتميز بين الغربي والشرقي ماثل هناك للعيان في كل حال وشأن . ونسبة الوطني الى الاوربي في الهند كنسبة الخادم الى سيده والعامل الصغير الى مديره . وصغار الموظفين من الهنود لا يلقون آمريهم الا في حالة من الخضوع كأن يغضوا من أبصارهم ويضعوا أيديهم على صدورهم قال ميتين : ان كل من ذهب من الهنود الى أوربا أونظر في الاخلاق الغربية يتألم من القسوة البريطانية ويثنى على سهولة الاستقبال التى يجدها المرء في قارة أوربا . ولقد لقينا في رحلتنا محاميا شاباً مسلماً كان يتأسف على ألمانيا ويقول ان الالمان أكثر الأمم بشاشة وجذلا فلا تكاد تصل الى حانة الجعة في بلادهم حتى يوجهوا اليك الخطاب ويضعوا لك الأسئلة ويجيبوك على أسئلتك .

ولا يقبل في المجتمعات الانكليزية من الوطنيين الامن بلغوا درجة عالية من الشرف والغنى كالأمراء والاقيال مثلا وأبناء الرسول وكبار تجار المدن الكبرى .وقليل من كبار الموظفين الهنود وذلك في مجتمعات من يفوقونهم في درجاتهم وقد تشاهد بعض أغنياء من التجار في الردهات الانكليزية وذلك في المدن التى اختلط أهلها منذ القديم مع الغربيين مثل بومباى ومادراس وكلكوتا . بيدان تقزز الانجليز من الداخلين عليهم ظاهر علي أتمه فلا يكون الوطنيون الا بمعزل ويحظر علي الانجليزى أن يتزوج بهندية ومن يفعل ذلك يقضى عليه ان كان موظفاً أن يستقيل أو يقال . والتسرى مع الوطنيات نادر مكتوم في بعض المدن .

اليك جملة حال الهنود مع مستعمريهم وليس استعمار الانجليز حسنات كله ولا سيئات كله ففيه الجيد وفيه دون ذلك . ومن المحقق الثابت ان الهند ارتقت ارتقاء محسوساً في عهد حكومتهم شأن معظم مستعمراتهم ونشروا لغتهم بينهم مع الزمن الطويل ولكن كل وطنى من الهنود لا يروقه الا أن يرى بلاده مستقلة عن كل سلطة أجنبية .

الاندلس

صدر الكلام ومصادره



زرت (١) فى الشتاء الماضى (١٣٤٠ — ١٩٢٢) بعض أمهات مدن الاندلس فأرادنى غير واحد من الاحباب على أن أحدثهم بطرف مما شاهدت فى ربوعها من بقايا حضارة العرب ، فأجبتهم الى رغبتهم ، شاكراً حسن ظنهم ، وقد رأيت أن أشفع مشاهداتى ، بشيء من مطالعاتى ، عن هذا القطر ليتعرف القارئ من الغابر ، وجه الحاضر ، ويقيس فى الجملة ما كان هناك فى عهد أمتنا ، على ما هو كائن اليوم فى عهد غيرهم ، أذكر ما أثره العرب فى تلك القاصية من حضارة ، وأثلوه من مجد خالد على جبين الدهر ، والسبب الذى به ارتفعت الأندلس حتى عدت أرقى مملكة فى عهد شبابها ، والاعراض التى عرضت لها ، فهرمت فزال سلطانها ، وتداعى عمرانها ، وابذعر سكانها ، وربما تقعت فى الاخلاف ، سيرة الاسلاف ، خصوصاً فى أرض لم يكتفوا بأن فتحوها ، بل عمروها وتديروها ، وحكموها واحكموها ، ومدارسة حياة الأجداد ، تربي أخلاق الابناء والاحفاد ، يصيبون فيها حكمة بالغة ، وموعظة حسنة ، والتاريخ يلقن الفكر الجديد ، وينير الطريف بالتليد ، والله وارث الأرض ومن عليها .

وهاك ما رجعت اليه من الكتب والرسائل فى تأليف الفصول التالية ، ومنه تعالى أستمد المعونة ومن الراسخين فى العلم تصحيح ماعساهم يعثرون عليه من الهفوا

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسى « طبع بيروت » (٢) نفح الطيب للمقرى

---

(١) نشرت اولاً فى المجلد الثانى من مجلة المجمع العلمي العربى

« مصر » (٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي « ليدن » (٤) قلائد العقيان للفتح بن خاقان « مصر » (٥) مطمح الانفس له « الاستانة » (٦) البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى « ليدن » (٧) الاحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب « مصر » (٨) رقم الحلل له « تونس » (٩) الحلل الموشية له « تونس » (١٠) معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار له أيضاً « فاس » (١١) طوق الحمامة فى الألفة والالاف لأبى على بن حزم الأندلسي « ليدن » (١٢) الذخيرة فى شعراء الجزيرة لابن بسام « مخطوط » (١٣) أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر « مونيخ » (١٤) التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمرى « مصر » (١٥) المسالك والممالك لابن حوقل « ليدن » (١٦) أحسن التقاسيم للمقدسى « ليدن » (١٧) كتاب البلدان لابن واضح اليعقوبى « ليدن » (١٨) تقويم البلدان لأبى الفدا « باريز » (١٩) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم «مجريط» (٢٠) الجزء الثانى والعشرون من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى وفيه أخبار ملوك الأندلس من العلويين والأمويين ومن ملك بعد بنى أمية الى حين انقراض الدولة العبادية «غرناطة» (٢١) الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية «الجزائر» (٢٢) كتاب محمد بن تومرت مهدى الموحدين « الجزائر » (٢٣) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المئة السابعة ببجاية للغبرينى « الجزائر » (٢٤) المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس لابن أبى دينار « تونس » (٢٥) ديوان ابن حمديس الصقلى السرقوسى « رومية » (٢٦) النجوم الزاهرة لابن تغري بردى « ليدن» (٢٧) العيون والحدائق فى أخبار الحقائق « ليدن » (٢٨) تاريخ المسعودي « باريز » (٢٩) تاريخ الكامل لابن الأثير « مصر » (٣٠) تاريخ ابن خلدون « مصر » (٣١) الحلة السيراء لابن الابار « ليدن » (٣٢) كتاب القضاة بقرطبة للخشنى « مجريط » (٣٣) تكملة التكملة لابن الابار « مجريط » (٣٤) التكملة لكتاب الصلة لابن الابار « الجزائر » (٣٥) صبح الأعشى للقلقشندى « مصر»

(٣٦) معجم البلدان لياقوت الحموى « ليبسيك » (٣٧) المكتبة العربية الاندلسية وفيها ستة كتب وهى الصلة لابن بشكوال ، وبغية الملتمس لابن عميرة الضبى والمعجم لابن الابار والتكلة لكتاب الصلة لابن الابار وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى وفهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب العلم وأنواع المعارف أبو بكر بن خليفة الأموى الاشبيلى نشرها المستشرقان الاسبانيان كوديرا وريبرا «مجريط» F. Codera et J. Ribera : Bibliotheca Arabico - Hispana (Madrid) (٣٨) المكتبة العربية الصقلية لميشيل آمارى « ليبسيك » M. Amari : Bibliotheca arabo - sicula (Leipzig) (٣٩) محاضرة ابن زيدون لأحمد زكى باشا نشرت فى السنة الثانية من مجلة البيان « مصر » (٤٠) السفر الى المؤتمر لاحمد زكى باشا أيضاً « مصر » (٤١) قصيدة ابن عبدون وشرحها لابن بدرون « ليدن » (٤٢) رسالة ابن زيدون وشرحها للصفدى (٤٣) ترجمة ابن عباد « ليدن » (٤٤) ترجمة ابن زيدون « ليدن » (٤٥) ترجمة ابن عبدون وملوك بنى الأفطس « ليدن » (٤٦) قاموس الاعلام لشمس الدين سامى « تركى طبع الاستانة » (٤٧) مجلة المقتطف (٤٨) مجلة المقتبس « مصر والشام » (٤٩) دائرة المعارف الاسلامية « ليدن » Encyclopédie de l' Islam, Leyde (٥٠) تاريخ مسلمي اسبانيا لدوزى « باريز » Dozy : Histoire des Musulmans d' Espagne, Paris (٥١) التاريخ العام للافيس ورامبو «باريز» Lauisse et Rambaud : Histoire générale, Paris (٥٢) تاريخ العرب والمغاربة فى اسبانيا والبرتقال لكونده «باريز» J. Conde : Histoire de la domination des Arabes et des Maures en Espagne et en Portugal, Paris (٥٣) تاريخ العرب العام لسيديليو « باريز » : Sedillot : Histoire générale des Arabes, Paris (٥٤) تاريخ العرب لهوار « باريز » C. Huart : Histoire des Arabes. Paris (٥٥) عجالة فى تحليل نفوس الشعوب الأوربية لفوليه « باريز » Fouillée : Essai d'une psy - chologie des peuples européens. Paris (٥٦) المخطوطات العربية

في الاسكوريال لهارتويغ دارنبورغ (باريز) Hartiwig Derenbourg : Les
(٥٧) الصنائع في اسبانيا manuscrits arabes de l' Escurial, Paris
لكوميز مورينو «مجريط» Gòmez-Moreno:El arte en Espana«Madrid»
(٥٨) الكتابات العربية في غرناطة لاميليو لافوانتي أي الكنترارا « مجريط »
Emilio Lafuente y alcàntrara : Inscriptiones arabes de Grenada
«Madrid» (٥٩) دليل اسبانيا والبرتقال لبيدكر « ليبسيك » Baedeker :
Éspagne et Portugal, Leipzig (٦٠) بحث وصفي لمصانع العرب تأليف
رافائيل كونتروراس «مجريط» Raphahël Contreras : Etudes descriptives
des monuments arabes. Madrid (٦١) تاريخ الأديان العام لسلمون ريناخ
« باريز » Salomon Reinach; Histoire gènérale des religions. Paris
(٦٢) اسبانيا في القرن العشرين لمارفو « باريز » Marvaud : L' Espagne au
XXe siècle.Paris (٦٣) الاسبانيون والبرتقاليون في بلادهم لكيلاردي «باريز»
Quillardet : Espagnols et Portugais chez eux. Paris (٦٤) اسبانيا
والبرتقال مصورتان « باريز » L' Espagne et le Portugal illustrés. Paris
(٦٥) دائرة المعارف الافرنسية الكبرى « باريز » La grande encyclopédie
française, Paris (٦٦) معجم لاروس المصور «باريز» Nouveau Larousse
illustré, Paris (٦٧) بحث في حياة ابن زيدون لاوغست كور « الجزائر »
Auguste Cour : Ibn Zaidoun, Alger (٦٨) تعليم اللغة العربية في اسبانيا
لميكائيل آسين بلاسيوس « الجزائر » M. Asin Palacios : l'enseignement
de l'arabe en Espagne. Alger (٦٩) معجم الكل في واحد أو موسوعات
العلوم البشرية Tout en un:Encyclopédie des connaissances humaines
(٧٠) دستور في الصنائع الاسلامية لسالادين وميجون Saladin et Migeon :
Manuel d'art musulman (٧١) معجم الالفاظ الاسبانية والبرتقالية المشتقة
من العربية لانجلمان «ليدن» Engelmann : Glossaire des mots espagnols
et portugais dérivés de l'Arabe. Leyde (٧٢) معجم الالفاظ الاسبانية

' Rittwagen : De Filologia Hispano Arabica «مادريد» العربية لريتواگن
« Madrid »

تحية الاندلس

٨٩

عشقتها ولم تسعدنى الايام بامتاع النظر فى جمالها ، واستطلعت طلع أخبارها ، فروى الرواة عنها عجائب اقلها مما يستهوى النفوس المتمردة ، ويأخذ بمجامع القلوب الجافة العاصية ، تفردت بين بنات جيلها بما خصت به من معانى الحسن والاحسان، فكثر الخطاب والطلاب ، وهى لا تفتأ تبدى لمن أمّ حماها صنوفاً من اللطف والظرف ، وتخاطب البعيد والقريب بثغر باسم ، وترشقهم بنظرات ، لا تخلو من غمزات ، تريد بها الهزوء بنكبات الزمان ، والاستخفاف بسخافه الانسان .

عشقتها منذ عهد الصبا ، وعشق الصبا شديد ، لما قرأته الباصرة من وصف سجاياها وحملته الى البصيرة ففكرت فيه ؛ وتدبرت خوافيه وحواشيه ، وزادنى غراماً بها ما سمعت من أن أناساً قبلى أصيبوا بما أصبت به ، وعدوا النزول فى حماها ولو ساعة سعادة العمر ، وحسنة الدهر : العشق فنون وعشقى كان لأرض الاندلس عليها من كل عربى ألف ألف سلام ، على مر العصور والأيام .

عشقتها لكثرة ماتلوت من آثار من درجوا على أديمها من أبنائها وغير أبنائها، وكانت المخيلة تتصورها فى مظاهر صح بعضها يوم اللقاء ، وآخر كان بالطبع كالخيال ، فى الاندلس تم نحو نصف مدنية العرب الباهرة ، وقضوا فى أرجائها نحو ثمانيـة قرون كانت بجملتها وتفصيلها عهد السعادة والغبطة ، ودور ظهور النوابغ وأرباب الابداع والقرائح ، وكم من أمة من أمم الحضارة الحديثـة على كثرة مااقتبست وأوجدت ، لم يتيسر لها حتى يوم الناس هذا ان تبلغ مكانة الاندلس ، فكان هذا الصقع فى منقطع أرض المغرب ، وآخر أرض العرب ، بين البحرين المحيط والمتوسط برهاناً أزلياً على فرط استعداد العرب للعلوم والصناعات ، وناعياً على من أنكروا لافراطهم فى الشعوبية فضل هذه الأمة على الحضارة .

أقام الغربيون ضروبا من المصانع من بيع وأديار ومتاحف ومكاتب ومدارس وجسور وسدود وطرق ومعابر وتماثيل ونصب وبرك ، لكنهم لم يصنعوا على كثرة تفننهم فى هذا الشأن ، منذ عهد اليونان والرومان ، طرزاً من البناء يكلمك ولا لسان له فيقول ، وينظر اليك فيعمل فى شغاف قلبك ولا عين له فتنظر ، ويطربك بتساوق نغماته من دون ماصناجة ولا وتر ولا ألحان . مصانع كثيرة بقيت بقاياها فى طليطلة وقرطبة واشبيلية وغرناطة سلبتها الفتن والجهل تارة شطراً من بهائها ، وسالمتها حيناً فابقت عليها ، أو رممت شيئاً مما أضرت به عوامل الايام وان لم تعد اليها نضرتها الأولى .

سلام على أرض طيبة خصها الخالق باجمل الهبات الطبيعية الطيبة ، فلم ينقصها زكاء تربة فى نجادها ووهادها ، ولا مياهاً عذبة دافقة من هضابها على شعابها ، ولا أشجاراً باسقة وزروعاً خصبة فى سهلها ووعرها ، ولااعتدال مواسم وجمال اقليم ، ومصحة أبدان زانها الصانع السماوى بايجاده كما زانها الصانع الأرضى بابداعه ، وما أجمل الطبيعى والصناعى . اذا تواعدا الى الاجتماع فى خير البقاع .

ليالى الأنس ، فى جزيرة الاندلس ، وأيامها الغر ، فى سالف الدهر ، فيك قامت سوق الآداب ، بما ارتفعت به رؤوس العرب على غابر الاحقاب ، وكمل فى ربوعك الذوق العربى حتى طن بعضهم انك نسيت كل شىء ماعدا الأدب ، وما هذه الآثار الأبدية الاثمرة علمك وصناعاتك وزراعاتك : سلام على أرواح علمائك وفلاسفتك ونوابغك وأدبائك وأمرائك ما كان أرجح أحلامهم ؛ يوم سنوا للعرب سنة الأخذ من السعادتين ، وشرعوا لهم شرعة المدنية المثلى ، حملوا فأجملوا من الشرق الى الغرب تعاليم فى الدين والدنيا كانت صفوة العقول الى عهدهم فادهشوا من عاصرهم . وخلفهم من الاجيال ، ونسجوا لهم على غير مثال نسيجاً رقيقاً ، كتبوا لهم فيه سجلا رقت حواشيه ، ونظاماً متقناً فى حكم الانسان للانسان ، يطبع فى تاليه اذا تدبره ، طبيعة حسن الذوق والطبع . وينشئه على أرق مثال من الخيال فى الكمال والجمال . مثال حي من حضارة العرب فى القارة

الأوربية عامة . وفى شبه جزيرة اسبانيا خاصة ، يفتخر به العرب على اختــلاف أصقاعهم وحق لهم الفخر ، لأن الأندلس العربيــة الاسلامية كانت وما زالت مدرسة الغرب المسيحى ، نزل طلابه فى قرونهم المظلمة على علماء العرب فأوسعوهم من مكارم أخلاقهم ، وأكرموا مثواهم بما علموهم ، وما أسخى العربي على طالب قراه ، والمعتصم بحماه ، فلما جاء دور الانحطاط ، وازف رحيل ذاك الرعيل ، من أرض كان الغرب كله يعدهم فيها أثقل دخيل ، أبقوا لهم تلك المصانع ناطقة بفضلهم معلمة لهـم معانى ليست فى معاجم نفائسهم ، ومكذبة على غابر الأيام من ينكر المحسوس ، ويغمط الحق لصاحبه ، ويستهويه الغرض ، فيشوه وجه الحق الجميل .

الى اليوم لم يزل فى الغربيين أناس يصعب عليهـم الاعتراف بمزية للعرب بباعث من بواعث النفوس اللئيمة ، فلا يكادون يصدقون حتى بما ورد عن هذه الأمــة فى كتبهم دع كتبها من أعمال هــذه الحضارة الغريبة ، وما ذاك الأثر الضئيل الباقي من عاديات الاندلس العربية ، الا برهان جلى على ما كان هناك من عدل شامل ، وعقل كامل ، ونظر نافذ ، ويد صناع ، أربت على ما عمل من مثلها في سائر البقاع والاصقاع

تقويم الاندلس

٩٠

أخذت العرب اسم الاندلس من اسم سكانها الأصليين الفانداليس Vandales فقالوا فاندالســيا أو فاندالوزيا Vandalitia أو Vandalusia وأطلقوا عليها اسم الجزيرة من باب التغليب فقالوا جزيرة الاندلس كما قالوا جزيرة العرب وما هى فى الحقيقة الا شبه جزيرة لاتصالها من أقصى الشمال بجبال البيرنات أو الثنايا كما كان يعرفها العرب ، قدروا القسم الجنوبي من شبه جزيرة فانداليس أو أيبريا

أو اسبانيا بمسيرة ثلاثين يوماً طولا وزهاء عشرين يوماً عرضاً يحدها البحر من أطرافها الأربعة الا من الشمال الشرقي . وميزان وصف الاندلس كما قال ابن سعيد: انها جزيرة قد أحدقت بها البحار فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جانب .

والاندلس في عرف أهلها اليوم عبارة عن ثماني ولايات ولاية المرية وولاية قادش وولاية قرطبة وولاية غرناطة وولاية حولفا ؟ وولاية جيان وولاية مالقة وولاية أشبيلية ومساحتها السطحية ٨٦٦٨٧ كيلو متراً مربعاً وسكانها زهاء أربعة ملايين فهي نحو خمس اسبانيا الحالية بسكانها ونحو سدسها بمساحتها السطحية . هذا مايطلق عليه اليوم اسم الاندلس بيد ان حكم العرب تجاوز ذلك الى برشلونة وما وراءها من الشرق والى لشبونة وما جاورها في الغرب ولم يبق في أيدي الاسبانيين والبرتقاليين من هذه الجزيرة التي تبلغ مساحتها زهاء نصف مليون وأربعة آلاف كيلومتر مربع سوى أراض مصخرة ضئيلة من الشمال تعرف ببلاد الجلالقة وآستوريا .

فالعرب لم يملكوا اذاً الجزيرة باسرها حين افتتحوها وانما ملكوا معظمها ولذلك لا تعرف مساحة الاندلس العربيـة على التحقيق . ويقول المسعودي ان ان مسيرة عمائر الاندلس ومدنه نحو من شهرين ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة وقال غيره ان في أرض الاندلس العامر والغامر فكانت من ثم مساحة الاندلس تختلف بحسب تغلب العرب على أعدائهم أو تغلب أعدائهم عليهم وكم من الاقاليم والمدن في الشمال والغرب والشرق دخلت مرات في حكم العرب ثم خرجت عنهم فقد كان عملها لعبد الرحمن بن معاوية في القرن الثاني ثلاثمائة فرسخ في ثمانين ثم صغرت في القرن الثامن حتى أصبحت — كما وصفها العمري — كمفحص القطاة ضيقاً ، ومدرج النمل طريقاً .

لاجرم أن مقام العرب في الاندلس كان غير طبيعي لمجاورتها لأمم قوية الشكيمة مخالفة لها في الجنس واللسان والدين حتى ان عمر بن عبد العزيز لما ولى السمح بن ملك عليها أمره أن يكتب اليه بصفتها وأنهارها وكان رأيه انتقال أهلها

منها لانقطاعهم عن المسلمين قال المؤرخ وليت الله كان أبقاه حتى يفعل فان مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله .

وصف المراكشي ما كان فى أيدي الاسبان والبرتقال من أرض الاندلس سنة ٦٢١ هـ فقال أول المدن فى الحد الجنوبي الشرقى على ساحل البحر الرومى مدينة برشنونة (برشلونة) ثم مدينــة طركونة ثم مدينة طرطوشة والمدن التى على غير الساحل فى هذا الحد المذكور مدينة سرقسطة ولاردة وافراغة وقلعة أيوب هذه كلها يملكها صاحب برشنونة وهى الجهة التى تسمى ارغن . وفى الحد المتوسط مابين الجنوب والغرب مدينة طليطلة وكونكة واقليج وطلبيرة ومكادة ومشريط (مجريط ؟) ووبذ وايلة وشقوبية هذه كلها يملكها الادفنش وتسمى هذه الجهة قشتال . وتجاور هــذه المملكة فيما يميل الى الشمال قليلا مدن كثيرة أيضاً وهى سمورة وشلمنكة والسبطاط وقلمرية هذه كلها يملكها رجل يعرف بالببوج وتسمى هذه الجهة ليون . وفى الحد المغربى الذى هو ساحل البحر الأعظم اقيانس مدن أيضاً منها مدينة الاشبونة وشنترين وباجة وشنترة وشنتياقو ويابرة ومدن كثيرة يملكها رجل يعرف بابن الريق ووراء هذه المدن مما يلى بلاد الروم مدن كثيرة ثم ذكر مايملكه المسلمون لعهده من الاندلس فاورد حصن بنشكلة وطرطوشــة وبلنسية وشاطبة وجزيرة الشقر ودانية ومرسية وغرناطة وحصون لرقة وبلش وقلية وبسطة ووادى آش والمرية وحصن منكب ومالقة والجزيرة الخضراء .

وقوّم القلقشندى الاندلس فى المئة الثامنة فقال ان الاندلس أقامت بأيدى المسلمين الى رأس الثمانمائة سنة من الهجرة ولم يبق منها بيــد المسلمين الاغرناطة وما معها من شرق الاندلس عرض ثلاثة أيام فى طول عشرة أيام وباقى الجزيرة على سعتها بيد نصارى الفرنج وان المستولى على ذلك منهــم أربعة ملوك الأول صاحب طليطلة وما معها ولقبه الادفونش سمة على كل من ملك منهم وعامة المغاربة يسمونه الفنس وله مملكة عظيمة وعمالات متسعة تشتمل على طليطلة وقشتالة واشبيلية وبلنسية وقرطاجنة وجيان وجليقية وسائر أعمالها . الثانى صاحب لشبونة

وما معها وتسمى البرتقال ومملكته صغيرة واقعة فى الجانب الغربى وهى تشتمل على لشبونة وغرب الاندلس. الثالث صاحب برشلونة وارغن وشاطبة وسرقسطة وبلنسية وجزيرة دانية وميورقة . الرابع بيرة وهى بين عمالات قشتالة وعمالات برشلونة وقاعدته مدينة ينبلونه ويقال لملكها ملك البشكنس .

هـذا فى الجملة تقويم الاندلس فى القديم وكلما توغلت فى سمت الشمال صعب المرور لكثرة الجبال وترامى المسافات وهى اليوم فى الخطوط الحديدية سهلة فى الجملة فاذا جئت من مدينة باريز وهو الطريق الذي سلكناه تصل الى مجريط فى ست وعشرين ساعة وهى ١٤٥٥ كيلومتراً ومن مجريط الى قرطبة ٤٤٢ كيلومتراً ومن قرطبة الى اشبيلية ١٣١ كيلومتراً ومن غرناطة الى جبل طارق ٣٠١ كيلومتر ويتأتى اختصار هذه المسافات اذا كانت القطر تقصد الى البلد مباشرة بدون تنقل أو تعاريج ولكن نقل فيها الخطوط المستقيمة والقاطرات .

فتح الاندلس

٩٠

لما فتح موسى بن نصير مولى بنى أميـة أفريقيـة وما حولها أى تونس وما وراءها سنة ثمان وسـبعين للهجرة وبلغ طنجة سار يريد مدائن على شط البحر وفيها عمال صاحب الاندلس قد غلبوا عليها وعلى ماحولها . وكان يليان أحد ملوك الاندلس لموجدة وجدها على بعض الملوك من قومه فى تلك البلاد بعث بالطاعة لموسى ، وأقبل به حتى أدخله المدائن بعد أن اعتقد لنفسه ولاصحابه عهداً رضيه ، واطمأن اليه ، ثم وصف له الاندلس ودعاه اليها فبعث رجلا من مواليـه يقال له طريف فى أربعمائة رجـل ومعهم مائة فارس فسار فى أربعة مراكب حتى نزل جزيرة سميت به لنزوله فيها ، وكانت هذه الجزيرة معبر مراكبهم ودار صناعتهم ،

فاغار على الجزيرة فأصاب شيئاً ورجع سالماً وذلك سنة احدى وتسعين ؛ ثم دعا موسى مولى له يقال له طارق بن زياد فبعثه فى سبعة آلاف من المسلمين ، جلهم من البربر والموالى ليس فيهم عرب الا قليـل ، فدخل فى تلك السفن الاربع فى سنة اثنتين وتسعين وأخذت السفن الأربع تختلف بالرجال والخيل وضمهم الى جبل على شط البحر منيع فنزله وسمى به جبل طارق والمراكب تختلف حتى توافى جميع أصحابه .

ولما بلغت ملك الاندلس رذريق صاحب طليطلة غارة طريف على الاندلس جمع جموعه قيل مائة ألف أو شبه ذلك فبعث موسى على سفن كثيرة ، كان عملها بخمسة آلاف مقاتل فتوافى المسلمون بالاندلس عند طارق اثنى عشر ألفاً ومعهم يلياذ فى جماعة من أهـل البلد يدلهـم على العورات ، ويتجسس لهم الأخبار ، فالتقى رذريق صاحب طليطلة وطارق بن زياد بموضع يقال له البحيرة فانهزم رذريق ثم مضى طارق الى مضيق الجزيرة فمدينة استجة ، وحارب فلّ العسكر الأعظم وهزمه ثم ورد طارق عيناً من مدينة استجة على نهرها على أربعة أميال فسميت العين عين طارق ، وفرق جيشه فأرسل فرقة الى قرطبة ، وأخرى الى رية ، وثالثة الى غرناطة ، وسار هو فى عظم الناس يريد طليطلة ، ففتحت كلها وكذلك مدينة تدمير ، وأسر أحد ملوك الاندلس ومنهم من اعتقد على نفسه اماناً ؛ ومنهم من هرب الى جليقية فى الشمال . ثم سار طارق حتى بلغ طليطلة ، وخلى بها رجالا من أصحابه ، فسلك الى وادى الحجارة ثم استقبل الجبل فقطعه من فج يسمى فج طارق.

وفى سنة ثلث وتسعين دخل موسى بن نصير فى ثمانية عشر ألفاً من وجوه العرب والموالى وعرفاء البربر وقد بلغه ماصنعه طارق بن زياد فحسده وخشى أن ينال شرف الفتح دونه أمام الخليفة من بنى أميـة . فلم يلبث ان فتح من المدن مالم يفتحه طارق مولاه فافتتح مدينة شذونة وقرمونة واشبيلية وحاصر هـذه أشهراً فهرب أهلها الى مدينة باجة فمضى موسى الى مدينـة ماردة وقاتلهم عليها أشهراً فصالحه أهلها على أن جميع أموال القتلى وأموال الهاربين الى جليقية للمسلمين

وأموال الكنائس وحليها له ثم افتتح سرقسطة ومدائنها .

ذكروا أن المسلمين انتهوا الى مدينة لوطون قاعدة الافرنج ، ولم يبق لاهل الاسلام شيء لم يتغلبوا عليه مما وراء ذلك الا جبال قرقوشة وجبال بنبلونة وصخرة جليقية ، فاما الصخرة فلم يبق فيها مع ملك جليقية الا ثلثمائة رجل تلفوا بالموت والجوع والحصار فلما لم يبق منهم الا ثلثمائة رجل ورأى ذلك المرتبون على حصارهم استقلوهم فتركوهم فلم يزالوا يزدادون حتى كانوا سبب اخراج المسلمين من جليقية وهي فشتيلية .

هذه زبدة مما قاله المؤرخون في فتح الاندلس ولا شك أن قرب سواحلها من شواطيء أفريقية قد ساعد العرب كثيراً على هذا الفتح فان المجاز أو الزقاق كما كان يسميه العرب بين البرين بر العدوة [1] وبر الاندلس قريب جداً يسهل معه نقل الدخائر والجيش من أفريقية وذلك لأن الزقاق في موضع يعرف بجزيرة طريف من بر الاندلس يقابل قصر مصمودة بازاء سلا في الغرب الاقصى وعرضه اثنا عشر ميلا ومن الجزيرة الخضراء في الاندلس الى مدينة سبتة ثمانية عشر ميلا . والباخرة تقطع المسافة اليوم من الجزيرة الخضراء أو جبل طارق الى طنجة فرضة الغرب الأقصى في نحو ثلاث ساعات .

وأنت ترى ان معدات الفتح عند العرب كانت قليلة ومع هذا استصفوا الاندلس في مدة وجيزة ، وذلك لأن الاختلاط القديم المستحكم للجوار بين أهل الاندلس وبين أهل شمالي أفريقيـة وتغلب الاندلسيين أحياناً على بلاد البربر أي الغرب الأقصى والأوسط . قد هيأ لسكان البلاد بل لقوادها وحكامها من العرب أن يعرفوا معالم الاندلس ومجاهلها . ويقفوا على مواطن الضعف من حكوماتها ،

---

(١) العدوة بضم العين المكان المتباعد ويطلق العرب بر العدوة على ما سامت الاندلس من شمالي افريقية وبعد عن بلادهم ويعنون بالعدوة المغرب الاقصى والاوسط والادنى أي مراكش والجزائر وتونس . وقال صاحب التاج وبر العدوة بالاندلس واليه نسب شهاب الدين بن ادريس العدوي عن قاسم بن اصبغ قيده الرشاطي . ولعل العدوة هذه بلدة من بلاد الاندلس ليست مشهوره والمشهورة ان العدوه كما قلنا وايده علماء الجغرافيا من العرب .

فقد جاؤوها والاختلاف بين ملوكها على أشده والبلاد قد جاعت قبل مجيئهم ثلاث سنين (من سنة ثمان وثمانين الى سنة تسعين) ثم وبئت حتى مات نصف أهلها أو أكثر . واذا صح ان الملك الاعظم فى طليطلة جيش على العرب مئة ألف مقاتل وهو مستبعد فان جيش موسى بن نصير البالغ اثنى عشر ألفاً قد تغلب عليه لا بعدده بل بما للعرب من الاضطلاع بأمور الحرب هذا وأهل البلاد كانوا فى الجملة يريدون الخلاص مما هم فيه من سوء الحال ولا سيما اليهود فانهم كانوا قبل بضع سنين قد ذاقوا الامرين من حكوماتهم ومواطنيهم المسيحيين فلما جاء العرب الفاتحون كانو أدلاءهم وأكبر ردء لهم لعلمهم بأنه ينفس خناقهم بالفاتحين . وكان المسلمون كلما دخلوا بلداً جعلوا نصف حاميته من اليهود والنصف الآخر منهم . ثقة فى ابناء اسرائيل وضعها المسلمون فيهم مدة كونهم فى الاندلس .

تولى البلاد المفتوحة عمال الدولة الاموية فى الشرق وتعاقب عليها قوادهم ومواليهم منذ سنة ٩٢ هـ وخطب باسم خلفائهم على منابرها ثم خطب مدة قليلة للعباسين [1] بعد سقوط دولة الأمويين بالمشرق حتى اذا كانت سنة ١٣٨ جاء من الشرق هارباً عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المسمى بالداخل فتغلب بواسطة جماعة من أهل بيته وموالى آل مروان وبما له من العصبية فى قبائل زناتة أخواله ، وكانت والدته منهم حتى استولى على الأندلس ، وبذل أهلها له الطاعة ، فأصلح من شأنها ورفع أبناؤه وأحفاده من بعده شأن خلافتهم هناك وأجمعت القلوب على حبهم وقل المنتقضون على ملكهم المتوثبون على

(١) دعا عبد الرحمن بن معاوية لنفسه عند استغلاظ امره واستيلائه على دار الامارة قرطبه ويقال انه اقام اشهراً دون السنة يدعو لابى جعفر المنصور متقيلاً فى ذلك يوسف الفهرى الوالى قبله الى ان افرد نفسه بالدعاء . ويقال ان عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم اشار عليه بذلك عند خلوصه اليه فقبله الا انه لم يعد اسم الامارة وسلك الامراء من ولده سنته فى ذلك الى عهد عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله فهو الذى تسمى بالخلافة بعد سنين من سلطانه ودعى بامير المؤمنين لما استفحل امره واستبان له ضعف ولد العباس وانتشار سلطانهم بالمشرق وذلك فى آخر خلافة المقتدر بالله جعفر بن احمد المعتضد منهم ذكر ذلك ابو مروان ابن حيان مؤرخ الاندلس .

سلطانهم ، ولقد أنصف المنصور العباسي عند مالقب عبد الرحمن الأموي بصقر قريش لانه « عبر البحر وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجمياً مفرداً ، فمصر الأمصار وجند الاجناد ، ودون الدواوين ، وأقام سلطاناً بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره وشدة شكيمته »

انقرض ملك بني مروان من الاندلس سنة ٤٠٧ هـ على رأس مائتي سنة وثمان وستين سنة وثلاثة وأربعين يوماً بعدان جمعوا الشمل ، ورأبوا الصدع ، وأحيوا المعالم ونشروا العدل ، وخدموا الحضارة ، وكانت أيامهم اعراساً وأفراحاً ، فتفرق الملك بايدى ملوك الطوائف فكان « كل ملك لما بيده فضبط اشراف العمال أزمة أمورهم ، وركبوا ظهور غرورهم ، وتنافسوا فى انتحال الالقاب السلطانية فأتوا من ذلك بكل شنيعة » الى ان قام رأس المرابطين وأمير المسلمين يوسف ابن تاشفين اللمتوني صاحب المغرب الأقصى وأعاد للبلاد مع ابنه على بن يوسف سالف نضارتها ، ودعا للخلافة العباسية على منابر الاندلس ولم تزل الدعوة للعباسيين وذكر خلفائها على سائر الاندلس والمغرب الى أن انقطعت بقيام ابن تومرت مع المصادمة فى بلاد السوس .

تنفس خناق البلاد بالقوة الجديدة التى جاءت بها دولة المرابطين لشد ازر المسلمين فى الاندلس ، كما عادت اليهم بعض القوة على عهد الموحدين ، وكان هؤلاء لا يتوقفون عن نجدة اخوانهم فى الاندلس ، حتى ان الخليفة المنصور من الموحدين لما دنت وفاته جمع بنيه والموحدين ووصاهم بوصايا منها : أيها الناس أوصيكم بتقوى الله « وأوصيكم بالايتام واليتيمة » أراد بالايتام أهل جزيرة الاندلس وباليتيمة بلاد الاندلس ، الا أن أحوال الجزيرة اختلت فى أواخر دولة أمير المسلمين على بن يوسف فأوجب ذلك تخاذل المرابطين وتوا كلهم . وميلهم الى الدعة ، وايثارهم الراحة ، وطاعتهم النساء فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلوا في أعينهم ، واجترأ عليهم العدو ، واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم ، وكادت الأندلس تعود الى سيرتها الأولى ، بعد انقطاع دولة بنى أمية فاستدعى عقلاء الجزيرة بنى مرين من بر العدوة فجاءهم أميرها سنة ٦٥٨ فى جبش ضخم فلك

بالاندلس ثلاثة وخمسين مسوراً مابين مدن وحصون وهو اول من ملك العدوتين من بنى مرين وجاهـد الفرنج فدوخ بلادهم وكانت قبـل جوازه الى الاندلس تستطيل على المسلمين وملكوا قواعد الاندلس وأكثر حصونها مثل قرطبـة واشبيلية وجيان وشاطبة ودانية ومرسية وغيرها ولم تنتشر للاسلام راية منذ وقعة العقاب [١] سنة ٦٠٩ الى أن جاءت رايته وكانت الحروب والغزوات متصلة بين العرب وأعدائهم فى القرن الخامس والسادس والسابع وكثيراً مايؤدى ملوك العرب الجزية للافرنج بعدان كان هؤلاء فى القرن الأول والثانى والثالث والرابع يؤدون الى العرب الجزية . ولما أغلظ ابن تاشفين لا لفونس الكلام فى المكاتبة قال هذا : « بمثل هـذه المخاطبة يخاطبنى وأنا وأبى نغرم الجزية لاهل ملته منذ ثمانين سنة وكان ذلك سنة تسع وتسعين وأربعمائة »

وبعد ان زال حكم الموحدين من اسبانيا دخلت فى حكم محمد بن يوسف بن هود من بطليوس الى مرسـية وقرطبة واشبيلية سنة ٦٢٦ ولما هلك التف المسلمون حول محمد بن يوسف بن الأحمر من أسرة بنى نصر فاستولى على الاندلس سنة ٦٢٩ فدام فيه وفى أعقابه نحو قرنين ونصفاً كان الضعف رائد دولتهم أولاً حتى لقد صالح ابن الأحمر الفنس ملك اسبانيا سنة ٦٦٥ على أن اعطاه نحو أربعين مسوراً من بلاد المسلمين من الشرق فقال أبو محمد الرندى يرثى الاندلس ويستصرخ أهل العدوة من بنى مرين قصيدته المشهورة التى يقول فيها

دهى الجزيرة خطب لاعزاء له   هوى له أحـد وانهـد ثهلان
أصابها العين فى الاسلام فامتحنت   حتى خلت منه أوطان وبلدان
فسل بلنسية ماشأن مرسـية   وأين شاطبـة أم أين جيان
وأين قرطـبة دار العـلوم فكم   من عالم قد سما فيها له شان

---

(١) هذه الوقعة وقعة العقاب هى المعروفة عند الافرنج باسم لاس نافاس دى تولوزا Las Navas de Tolosa وهى قرية من عمل ولاية بيان اشتهرت بانتصار ملوك ارغن وقشتالة ونافار على العرب سنة ١٢١٢ — ٦٠٩ هـ وقد ضربوا العرب ضربة لم يتمكنوا بعدها من التوغل فى بلاد اسبانيا

وعاد أمر المسلمين فضعف وبنو الأحمر آخر ملوك الأندلس يستصرخون الموحدين من أهل العدوة فينجدونهم حتى رسخت أقدام الملوك من بني الاحمر أو بنى نصر فى بقعة صغيرة من البلاد جعلوا غرناطة عاصمتها ولما انقرضت دولة الموحدين اعتمد بنوالاحمر على قوتهم فى حماية سلطانهم حتى ضعف أمرهم وصحت نية الاسبان على اخراجهم من شبه جزيرة اسبانيا باتفاق ايزبيلا الكاثوليكية وفرديناند واتحاد ملوك ارغن وقشتالة ونافار تحت سلطان واحد وكان خروج آخر ملك من بنى الأحمر من بلاد الاندلس سنة ٨٩٧ هـ ويومئذ انتهى حكم العرب هناك .

عمران الاندلس

٩٢

في أرض اندلس تلتذ نعماء ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس فى غيرهابالعيش منتفع ولا تقوم بحق الانس صهباء
وان يعدل عن ارض يحض بها على الشهادة ازواج وابناء
واين يعدل عن أرض تحث بها على المدامة امواه وافياء
وكيف لا يبهج الابصار رؤيتها وكل روض بها فى الوشى صنعاء
انارها فضة والمسك تربتها والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به من لا يرق وتبدو منه اهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحراً ولا انتثار لآلى الطل انداء
وانما أرج الند استثار بها فى ماء ورد فطابت منه ارجاء
واين يبلغ منها ما أصنفه وكيف يحوى الذى حازته احصاء
قد ميزت من جهات الارض حين بدت فريدة وتولى ميزها الماء

دارت عليها نطاقا ابحر خفقت   وجداً بها أو تبدت وهي حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب   والطير يشدو وللاغصان اصغاء
فيها خلعت عذارى مابها عوض   فهي الرياض وكل الارض صحراء

« ابن سفر المريني »

كانت شبه جزيرة اسبانيا فى عمرانها قبل الفتح العربي منحطة عن عامة الممالك الاوربية . حكمها الرومان وكانوا من خير من شاد بنياناً ، واقام فى المعمور عمرانا ، ومع هذا لم ينلها من عنايتهم كبير أمر ، فلما جاء العرب الفاتحون فى العقد الاخير من المئة الاولى ،كان عهدهم الاول عهد الفتوح على نحو ما كان عهدهم فى الشام ، فلما التفتوا فيه الى تجويد البناء حتى اذا ورد على الاندلس من الشرق بل من دمشق عبد الرحمن الداخل الاموى سنة ١٣٨ هـ نقل مع جماعته أسلوب أمته فى العمران ، وكان سبقه اليها جمهور من الشاميين ،نقلوا أسلوب بنائهم وعاداتهم وأصول معايشهم ، فاعتمدوا فى بناء قصورهم ودورهم على الهندسة الدمشقية فى الغالب ، وجعلوا فى الدور فناء أو صحناً فى وسطه بركة ماء وعلى جانبيها الازهار والاشجار ، وتقوم بعض طنوف الطبقة الثانية من البناء على عمد من الرخام وغيره ، والدور طبقتان فقط طبقة سفلية للصيف والطبقة العلوية للشتاء ويدخل الى الدار من دهليز . رسم خطط هذه الدور بادئ بدء مهندسون من الروم ثم أصبحت مع الزمن هندسة خاصة للعرب على ما كان شأنهم فى الشام .

يقول بعضهم أن العرب لما وصلوا اسبانيا لم يكن لهم هندسة مخصوصة فقل فيهم كالاسبانيين الابداع والايجاد ولكنهم تفننوا فى النقش . واقدم مصانعهم مسجد قرطبة ، انشأه عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٥ م والنقوش فيه والفسيفساء من عمل صناع من الروم ومن هنا نشأت الصناعة العربية وتمثلت فى المساجد والبيع والقصور والحمامات والابراج والابواب الحصينة . ومن اغرب المباني مسجد طليطلة مثال الهندسة العربية وقاعدة منارة مسجد اشبيلية وكثير من الارتجة والابواب .
ولما استولى الاسبان على اشبيلية جعل ابن الاحمر غرناطة عاصمته فقام قصر الحمراء

وظهرت بدائعه ، وهو أجمل زهرة من زهرات الصنائع النفيسة التى تمتعت أكمامها بايدى العرب . وظل صناع العرب فى اسبانيا قروناً بعد ذهاب دولتهم يعملون فى المصانع الاسبانية ويدخلون فى هندستها بعض أساليبهم فأثروا بها تأثيراً عظيما فى المعاهد المبنية على الاسلوب الغوطي والايطالى (الرنيسانس) .

ولقد كان لملوك الاندلس وامرائها وقوادها وعامة من تولوا خطط الحكم والقضاء والحسبة ، غرام باستكمال فخامة الملك ، وتشييد القصور ، وجلب المياه وبناء الارصفة ، واقامة القلاع والحصون . بدأ بذلك عبد الرحمن الاول وجرى آل بيته وعظماء مملكته ، على قدمه في هذا الشأن ، ومنهم عبد الرحمن بن الحكم (٢٣٨) الذي كان « أول من جرى على سنن الخلفاء فى الزينة والشكل ، وترتيب الخدمة ، وكسا الخلافة أبهة الجلالة فشيد القصور ، وجلب اليها المياه ، وبنى الرصيف ، وعمل عليه السقائف ، وبنى المساجد الجوامع بالاندلس ، وعمل السقاية على الرصيف ، وأحدث الطرز . واستنبط عملها ، واتخذ السكة بقرطبة ، ونفخ ملكه ، وفى أيامه دخل الاندلس نفيس الوطاوغرائب الاشياء . ومنهم عبدالرحمن ابن محمد الذى قال فيه صاحب العقد : « ان الملوك لم تزل تبنى على أقدارها ويقضى عليها بآثارها وانه بنى فى المدة القليلة ، مالم تبن الخلفاء فى المدة الطويلة ، نعم لم يبق فى القصر الذى فيه مصانع أجداده . ومعالم أوليته ، بنية الا وله فيها أثر محدث ، أما تزييد أو تجديد

كانت البلاد نسقاً واحداً فى العمران حتى كان للقرى أيضاً نصيب وافر من العناية ولذلك كثر عددها حتى قالوا انه كان على الوادى الكبير فقط أربعة عشر ألف قرية فكنت على رواية ابن سعيد اذا سافرت من مدينة الى مدينة ، لا تكاد تنقطع من العمارة ، مابين قرى ومياه ومزارع ، والصحارى فيها معدومة ، أى فى القسم الذى تأصل فيه حكم العرب . ومما اختصت به ان قراها فى نهاية من الجمال لتصنع أهلها فى أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها بل هى طراز من مناظر قد أتقنت بالبياض والزخرفة تخطف بالابصار عند وقوع شعاع الشمس عليها .

لاحت قراها بين خضرة ايكها ‏ كالدر بين زبرجد مكنون

قويت حركة العمران بالطبع حيث كان يقيم الخليفة والسلطان ، ولما ابتنى عبد الرحمن بن محمد فى غربي قرطبة مدينة الزهراء خط فيها الأسواق وابتنى الحمامات والخانات ، والقصور والمتنزهات ، واجتلب الى ذلك بناء العامة ، وأمر مناديه بالنداء ، الا من أراد أن يبنى داراً أو يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله أربعمائة درهم فتسارع الناس الى العمارة فتكاثفت وتزايدوا فيها فكادت أن تتصل الأبنية بين قرطبة والزهراء والمسافة أربعة أميال .

كان بناء الاندلسيين بالآجر والحجر وكان الحجر عندهم أنواعاً منه الحمرى والأحمر والأبيض والجزع وكانوا ينحتون السوارى والعمد من مقالعهم على الأغلب . وقيل ان سوارى جامع قرطبة جلبت من البيع القديمة من جنوبي فرنسا وايطاليا ومن أفريقية والاستانة وسواء قطعت من مقالع الاندلس ، أو جلبت من القاصية ، فان فى ذلك فضلا كبيراً للعرب ، يدل على معرفتهم الأشياء الحسنة ، وقدرتهم على حمل هذه الاثقال فى البر والبحر ، مع قلة الآلات الرافعة ، وقصور علم الحيل عما هو عليه فى عصرنا

قال أحد الباحثين من الفرنجة : فى اسبانيا ميدان لدرس الصناعة العربية المغربية منذ بدايتها وكان التردد بادىء بدىء بادياً عليها الى أن ظهرت فى مظهرها هذا على غاية من الغرابة والظرف . وقال بعضهم ان الهندسة العربية قد أفرغت جهدها فى قصور الحمراء ، وأتت ماوسعتها الاجادة والظرف بأمثلة ، تأخذ بمجامع القلوب فى العمران ، ولو لم يكن جل الاعتماد على الخشب والجص فى البناء ؛ وهما مما تقل متانته ، لاتت منها آثار خالدة أكثر مما أتت ، ولكن مجموعها مدهش غريب يمجد خيمة العرب الرحل فى البادية . ومن أغرب ما اصطنعوه عمل المقرنص فى القباب مؤلفاً من عدة قباب صغرى متناسقة ، بدون أن ترى اللحمة بينها . والنقش فيها قليل الا ما كان من جمل نقشت بالحروف الكوفية أو العربية المشبكة الاندلسية

قلنا ومعظم الآثار التى بناها الاسبان بعد سقوط آخر دولة الاندلس كانت بأيدى صناع من العرب ، أبقوا عليهم لقيام مصانعهم ، وذلك لان الاسبان كانوا متأخرين فى الهندسة والصنائع النفيسة ، وأهم مايتنافس فيه الاسبان الى اليوم القيشاني فانك تراه فى كل بيت وكنيسة ، وحائط ونزل ومدرسة ومتحف ، وهو أنواع منه مايجعل على الأرض ، ومنه مايجعل على طول قامة الانسان فى الجدران المختلفة ، وللآجر عندهم شأن عظيم فى البناء . وقد يدم قروناً كما شاهدنا ذلك فى خرائب الفسطاط بمصر وأكثره من بناء القرن الاول للهجرة

يصعب تعداد المصانع التى شاهدها العرب فى أوقات مختلفة ، فى الاصقاع التى نزلوها ، كما يصعب اعطاء حكم تام على معالمهم ، لان كثيراً من بنيان الاندلس عَوِرَ بتداول الايام ، فصح فى مدنها ودساكرها قول أحد الاندلسيين فى بلنسية وقد عاث العدو فيها

عاثت بساحتك الظبا يادار ومحا محاسنك البلى والنار
فاذا تردد فى جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الاقدار
كتبت يد الحدثان فى عرصاتها لا أنت أنت ولا الديار ديار

أهل الاندلس

٩٣

كان الجيش الذى فتح الاندلس بادىء بدء مؤلفاً من قليل من العرب ومن البربر سكان الغرب الأقصى والأوسط وما اليهما . نزل كل فريق منهم في بقعة فاعمرها وأقطعهم القواد مارحل عنه أهله من المزارع والمداشر . وقدفرق الحسام

ابن ضرار الذى ولى امارة الاندلس فى سنة ١٢٥ وخضعت لسلطانه جميع العرب الشاميين الغالبين على البلد ، وأبعدهم عن دار الأمارة قرطبة ، اذ كانت لاتحملهم وأنزلهم مع العرب البلديين أى السابقين الى الاندلس ، فى سنة الفتح سنة ٩٢ للهجرة. والشاميون هم الذين دخلوا سنة ١٢٥ انزلهم على شبه منازلهم فى كوَر شامهم، وتوسع لهم فى البلاد ، فانزل فى كورتى اكشونبة وباجة جند مصر مع البلديين الأول ، وأنزل باقيهم فى كورة تدمير وانزل فى كورتي لبلة واشبيلية جند حمص مع الأول أيضاً ، وانزل فى كورتي شذونة والجزيرة جند فلسطين وانزل فى كورة ريه جند الاردن ، وانزل فى كورة البيرة جند دمشق ، وأنزل فى كورة جيان جند قنسرين أى حلب ، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة . وبقى العرب البلديون من الجند الأول على مابأيديهم من أموالهم لم يعرض لهم فى شيء منها فلما رأوا بلاداً شبه بلادهم خصباً وتوسعة ، سكنوا واغتبطوا وتمولوا .

قال ابن الخطيب : أنزلوا القبائل الشامية فى كوَر على شبه منازلهم التى كانت فى كوَر شامهم ، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة طعمة وبقى العرب والبلديون والبرابرة شركاؤهم وسكنوا واغتبطوا . وكبروا وتمولوا ، الامن كان نزل منهم لاول قدومه موضعاً رخياً ، فانه لم يرتحل وسكن به مع البلديين . وحكى غيره انه نزل فى البيرة من كان قدمها من جند دمشق من مضر وجلهم قيس وافناء قبائل العرب . ونزل رية جند الاردن وهم يمن كلهم من سائر البطون ، ونزل شذونة جند حمص وأكثرهم يمن وفيهم من نزار نفر يسير . ونزل مدينة الجزيرة البربر واخلاط من العرب قليل . ونزل في جيان جند قنسرين والعواصم وهم أخلاط من العرب من معد واليمن ، ونزل قبائل البربر مدينة بلنسية .

وما عدا قبائل العرب والبربر الذين تفرقوا فى بلاد الاندلس على مارأيت كان فيها أخلاط من الشعوب من رومان وغوط ومهاجرة من أقطار شتى فامتزجوا كلهم فى بودقة واحدة . قال هوار : ولما أصبح عبد الرحمن ملكا على جميع اسبانيا الاسلامية (٣٢٠ - ٩٣٢) استمد لذاته طبقة الاشراف من نسل العرب المهاجرين

على الاسـبانيين الذين دانوا بالاسلام وعلى كثير من الاسرائيليين والمسيحيين فتوصل بذلك الى جعل الكل أمة واحدة عرفت فى الشرق باسم الاندلس .

ولقد استمرت قبائل العرب الشاميين « فى غمار من الروم يعالجون فلاحة الارض وعمران القرى يرأسهم أشياخ من أهل دينهم . أولو حنكة ودهاء ومداراة ومعرفة بالجباية اللازمة لرؤوسهم » فاحتفظ العرب بسكان البـلاد الاصليين ، وهيأوا السبل لدخول المهاجرين اليها من المسلمين على اختلاف عناصرهم ومن غيرهم ، فأسلم كثير من أهل البلاد ، واختلطت أنسابهم بأنساب العرب ، وكان المغلوبين يقلدون الغالبـين لاول الامر فى مناحيهم وعاداتهم ، شأن المغلوب مع الغالب، قال فوليه : بعد ان حكم العرب اسبانيا قروناً دخلتها كمية وافرة من الدم الافريقى فكان ذلك من موجبات ارتقاء العقل فى اسبانيا . ومزج الدم الاسبانى بالدم العربى هو ولا شك من جملة الاسباب التى تحمل بالاسبان على اختلاف أصقاعهم الى الطموح الى العظائم ومراتب الشرف اه .

ولما دب الضعف فى الاندلس أصبح العرب يتشبهون بجيرانهم من الافرنج . روى المقرى : ان بنى الاحمر كثيراً مايتزيا سلاطينهم وأجنادهـم بزى النصارى المجاورين لهم . وذكر ابن خلدون أوائل المئة التاسعة ان أهل الاندلس يتشبهون بأمم الجلالقة « فى ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم ، حتى فى رسم التماثيل فى الجـدران والمصانع والبيوت ، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة انه من علامات الاستيلاء » فبعد ان كان القشناليون والجلالقة دع أبناء الأندلس من غير المسلمين يتشبهون بالعرب أصبح هؤلاء فى أواخر أيامهم يتشبهون بهم ، شأننا اليوم مع أمم الغرب نقلدهم فى أزيائهم ولباسهم وعاداتهم ، ونفسح المجال لكل ماينفقونه علينا من بضائعهم العلمية والاجتماعية، سنة الله فى الضعيف مع القوي .

امتزج المستعربة Les mozarabes أو المسيحيون الذين يتكلمون بالعربية فى الاندلس ، بالقادمين عليها فلقى المعاهدون منهم رعاية من الفاتحين اللهم الا فى

الادوار التي كانوا يكيدون فيها للمسلمين ، ويخرجون عن الذمة فان الفقهاء كانوا يفتون بتغريبهم واجلائهم عن أوطانهم ، وقد أجاز منهم يوسف بن تاشفين الى بر العدوة « عدداً جماً ، أنكرتهم الاهواء ، وأكلتهم الطرق ، وتفرقوا شذر مذر » على انه لم يقع شيء من هذا القبيل الا فى النادر لان العرب كانوا يحرصون على بقاء أهل البلاد فيها ليعمل التطور عمله فيسلم من يسلم مع الزمن منهم أو يعطى الجزية ويتعلم العربية فتخف الفوارق بينه وبين أهل عصبية الفاتح .

فمن ثم ساغ لنا أن نقول ان أهل الاندلس لم يكونوا كلهم من نسل العرب بل كان منهم العرب قال صاحب فرحة الانفس : أهل الاندلس عرب في الانساب، والعزة والانفة وعلو الهمم ، وفصاحة الالسن ، وطيب النفوس ، وأباء الضيم ، وقلة احتمال الذل ، والسماحة بما فى أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع واتيان الدنية هنديون فى أفراط عنايتهم بالعلوم ، وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم ، بغداديون فى نظافتهم وظرفهم ، ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم ، وحسن نظرهم ، وجودة قرائحهم ، ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ، ونفوذ خواطرهم . يونانيون فى استنباطهم للمياه . ومعاناتهم لضروب الغراسات ، واختيارهم لاجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر ، وصنوف الزهر ، فهم أحكم الناس لاسباب الفلاحة ، وهم اصبر الناس على مطاولة التعب . فى تجويد الاعمال ، ومقاساة النصب فى تحسين الصنائع ، وأحذق الناس بالفروسية ، وأبصرهم بالطعن والضرب . وقال ابن حزم : ان أهل الاندلس صينيون فى اتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية ، تركيون فى معاناة الحروب ومعالجة آلاتها ، والنظر في مهماتها . وقال ابن بسام : فى جزيرة الاندلس اشراف عرب المشرق افتتحوها ، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها ، فبقى النسل فيها بكل اقليم ، على عرق كريم .

تسامح العرب

٩٤

العرب من أكثر الامم تسامحاً مع المخالفين لهم في المعتقد والجنس واللسان، ولولا تسامحهم ايام عزهم بالاسلام ، لم تبق بقيـة من الأمم المغلوبة في بلادها محتفظة بدينها ولسانها ومقدساتها ، وذلك لأن الشريعـة السمحاء تقضي بالرفق والرحمة ، وعدم التعرض لدين المخالفين وأموالهم خصوصاً اذا كانوا أصحاب دين سماوي ، ولذلك اكتفوا من أهـل الاندلس بجزية [1] وتركوا لهم حريتهـم ، فأعجب بهم مخالفوهم ، لانهم حملوا اليهم سلاماً ، وكفوهم مؤونة فتن كانت عليهم غراماً ، تأتي على الأنفس والنفائس . وتدك معالم الامن والامان .

كره العرب التعصب ولا سيما في الاندلس وعمـدوا الى كل تسامح معقول فاستمالوا بسيرتهم من نزلوا بينهم من الاسبانيين والبرتقاليين حتى انهم كانوا (سيديليو) اذا شجر خلاف بين مسلم ومشيحي من الجند ، يعطي الحق غالباً للمسيحي ، وجعلوا

---

(١) هذا كتاب الصلح الذى كتبه عبد العزيز بن موسي بن نصير لتدمير بن غبدوش (غيدوس) الذى سميت باسمه تدمير اذ كان ملكها ونسخة هدا الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غبدوش انه نزل على الصلح وان له عهد الله وذمته وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم الا يقدم له ولا لاحد من أصحابه ولايؤخر ولا ينزع عن ملكه وانهم لايقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ولا يكرهوا على دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا ينزع عن ملكه ما تعبد ونصح وادى الذى اشترطنا عليه وانه صالح على سبع مدائن أوريوالة وبلنتلة ولقنت ومولة وبقسرة واية ولورقة وانه لا يؤوى لنا آبقاً ولايؤوى لنا عدواً ولا يخيف لنا آمناً ، ولا يكتم خبر عدو علمه، وان عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير وأربعة أقساط طلا (شراب من العنب غير مخمر وهو أشبه بالصليبة في بلاد الشام) وأربعة أقساط خلّ وقسطي عسل وقسطي زيت، وعلى العبد نصف ذلك شهد على ذلك عثمان بن أبي عبدة القرسي وحبيب بن أبي عبيدة . . . ابن ميسرة الفهمي وأبو قائم الهذلي وكتب في رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة .

ايام الآحاد أيام عطلة ، بدل الجمع ، ورخصوا ان يتعبد كل انسان على الصورة التي يراها . فنشأت وحدة وطنية بين الغالب والمغلوب ، حتى لم يكد يشعر هذا الا في النادر وباغراء رجال الدين ، انه مغلوب على أمره ، فاقد لاستقلاله ، واعتمد الامويون في أكثر أيامهم على جيش من الصقالبة أهل صقلية يشترونهم أو يأخذونهم أسرى كما كان يفعل العثمانيون بجيش الانكشارية وصارت لافراد من الصقالبة حظوة عند الملوك والامة حتى ان حبيباً الصقلي من فتيان الاموية بقرطبة ألف كتاباً تعصب فيه لقومه سماه (بالاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة) . وربما كانت منزلة الصقالبة بقرطبة منزلة الشعوبية أعداء العرب في بغداد ولا من ينكر عليهم . ومن أثر التسامح ، شاعت اللغة العربية في كل أرض نزلها العرب . بل لم يمض أكثر من نصف قرن حتى اضطر رجال الكنيسة ان يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها المسيحيون ، لان هؤلاء زهدوا في اللغة اللاتينية ، ونشأ لهم غرام بالعربية . فأخذوا يتقنون آدابها ، ويتغنون باشعارها ، ويكتبون فيها كأبنائها . ويعجبون ببلاغتها إعجاب أهلها بها .

وكان كثير من أذكياء الجلالقة والقشتاليين والليونيين والنافاريين ، دع من كانوا في البلاد التي فتحتها العرب من المسيحيين ، يتعلمون العربية ويقصدون الخليفة الاندلسي أو أحد رجاله يستخدمون في الادارات ، وتجرى على سادات الاسبان أحكام الاسلام فيختلطون باشراف العرب ، ومن ظل محتفظاً منهم بدينه نسي مبادئه فصار يحجب نساءه كالمسلمين ، ويقتدي بازيائهم وألسنتهم وعاداتهم ، في مآدبهم ورفاهيتهم وأنسهم . ومن المسيحيين والاسرائيليين من وزروا في الاندلس لملوك المسلمين وهم مقيمون على دينهم ومنهم من كان أبوه أوجده اسبانياً فاسلم [1] والمسلمون لا يضنون بشيء على أهل ذمتهم يجرون عليهم

---

(١) راجع نبذه في امتزاج العرب بالعجم في اسبانيا والاستشهاد على ذلك بالاسماء والالقاب في كتاب (السفر الى المؤتمر) .

الرواتب والارزاق ، كما تجرى على بطانتهم وأهل نحلتهم ويأمنونهم على مصالحهم ، وينتدبونهم فى سفاراتهم ، ويطلعونهم على أسرارهم ، ويأمنون الاطباء منهم على أرواحهم وحرمهم

وشاع زواج العرب بالاسبانيات والبرتقاليات اللائي كن بجمالهن ، أجمل صلة لتمازج الفاتحين بخصومهم ، والتحام القرابات بينهم ، بل أن ملوك المسيحيين على عهد توزع الاندلس بين ملوك الطوائف . أمسوا يتزوجون من بنات الامراء المسلمين ، فقد تزوج الفونس السادس بزايدة ابنة أمير أشبيلية ، وعقد مثل هذا الزواج كثيراً . وكان عدد المتزوجات من الاسبانيات والبرتقاليات بالمسلمين وعدد المسلمات المتزوجات من الاسبانيين والبرتقاليين آخر أيام الاندلس كثيراً جداً حتى جرى لذلك كلام فى الشروط التى تمت بين الغالب والمغلوب .

ومن العرب من آثر زي الاسبانيين من الملابس والسلاح واللجم والسروج وكلف بلسانهم مثل محمد بن سعد بن مردنيش صاحب بلاد شرق الاندلس (٥٦١) وكثير من الوزراء كانوا يعرفون لسان جيرانهم مثل محمد بن الحاج (٧١٤) ويتشبهون بهم فى الاكل والحديث وكثير من الاحوال والهيئات .

هذا ما عمله الغالبون المسلمون من العرب مع المسيحيين المغلوبين من الاسبان والبرتقاليين ، أما معاملتهم للاسرائليين فكانت أيضاً مما يدهش له ، فأصبح لهؤلاء فى الاندلس منزلة سامية فى العلم والصنائع والتجارة ، وكانت غرناطة فى القرن العاشر تدعى مدينة اليهود لكثرتهم ومكانتهم فيها .

أصبح أهل البلاد يتكلمون بالاسبانية والبرتقالية والعربية على السواء وأخذوا بعد حين لا يتعاقدون بينهم إلا باللغة العربية وقد وجد من عقودهم نحو الى ص لك من هذا القبيل كتبها المستعربة من الوطنيين الاصليين باللغة العربية ، والعربية كانت لسان القائمين بالدولة الاسلامية . هجر ما عداها فى جميع الممالك ، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب . هجر الامم لغاتهم وألسنتهم فى جميع الامصار والممالك التى خفقت عليها رايات الفاتحين . وصار اللسان العربي

لسانهم، حتى رسخ ذلك لغة فى جميع أمصارهم ومدنهم ، وصارت الالسنة العجمية دخيلة فيها ، وغريبة عنها ، قاله ابن خلدون :

ولذا أتت ثلاثة قرون على بقايا الاسبانيين المتراجعين الى الجبال الشمالية وقد نسيت تقاليد البلاد إلا من استوريا وما اليها من الاصقاع واضطرت الحكومات الصغرى التى اعتصمت فى أقصى الشمال أن تصانع وتعاهد وتتعلم من أعدائها ، وهم أرقى منها نظاماً ومدنية وحكومات أوربا الكبرى لذاك العهد تطلب رضاها وتتعلم منها وتتلطف معها ، حتى بلغ الامر بعبد الرحمن الثالث الذى أشبه ملكا من ملوك هذا العصر لا ينقاد لاوهام العنصر والدين ، ولا يتوقف فى أمر فيه مصلحته ، وتسير سياسته بحسب الاحوال — ان وجد له حلفاء من زعيم البربر إلى ملك ايطاليا الى أمبراطور القسطنطينية وكانت سفراء فرنسا واليونان والالمان تتوارد على قرطبة ، وقد وضع هذا الخليفة حداً للحروب بين العرب والاسبانيين والبربر فى الاندلس ، وحصن حدود مملكته من ملوك ليون وقشتالة ونافار واستولى باسطوله على غربى البحر المتوسط ، وبسط سلطانه على افريقية الشمالية فكان ميسين [1] العلوم والفنون وحامى التجارة والصنائع وقد اصبحت اسبانيا العربية على عهده وعهد اخلافه فى القرون الوسطى أكثر البلاد مدنية وحسن ادارة قالته دائرة المعارف الاسلامية .

لاجرم أن خلفاء الاندلس كانوا من التسامح مع الكافة بالمكان الذى يغبطون عليه ، ويجب التنويه به ، لانه لم يسبق له نظير فى عصورهم عند الامم الاخرى ، فقد جاء من خلفائهم من كانوا يبيحون لدعاة النصرانية أن ينشروا دينهم أحراراً وبلغت الحال ببعض المتحمسين منهم ، ان كانوا يقفون على أبواب الجوامع ليتسقطوا المسلمين بالدعوة الى دينهم ، وكان عبد الرحمن التانى عزم أن يجمع

(١) ميسين هو نديم أغسطس قيصر الرومانى استعمل نفوذ مولاه لتنشيط الآداب والعلوم فاغدق نعمه على فرجيل وهوراس وبروبروس وأصبحت كلمة ميسين مرادفه لحامى الآداب والعلوم والفنون ومات فى السنة الثامنة قبل المسيح .

مجمعاً مقدساً من النصارى برئاسة رئيس أساقفة اشبيلية لقمع عادية التعصب الاسباني إذ أخذ دعاة الدين المسيحي يسبون الاسلام جهاراً حتى يقتلوا في سبيل دعوتهم ، وتكتب لهم الشهادة بزعمهم ، ولكن الخليفة مات قبل التئام هذا المؤتمر سنة ٢٣٨

ولطالما ارخى خلفاء الاندلس العنان لخطبائهم ووعاظهم ومؤرخيهم وكتابهم يوسعون المجال لاقلامهم وألسنتهم ، حتى في أعمال الخلفاء ، ولا يجدون منهم إلا لطفاً وعطفاً ، ذلك ان الناصر كان كلفاً بعمارة الارض ، وإقامة معالمها ، وتكثير مياهها ، واستجلابها من أبعد بقاعها ، وتخليد الآثار الدالة على قوة ملكه ، وعزة سلطانه ، وعلو همته ، فانه لما ابتنى الزهراء . واستفرغ وسعه في تنجيدها واتقان قصورها ، وزخرفة مصانعها . انهمك في ذلك حتى عطل الجمعة بالمسجد الجامع ، فقرعه القاضي منذر بن سعيد قاضي الجماعة بقرطبة بخطبة على المنبر امام جمهور المؤمنين ابتدأها بقوله تعالى (اتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بانعام وبنين ، وجنات وعيون ، اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) ثم أفضى الى ذكر المشيد ، والاستغراق في زخرفته ، والسرف في الانفاق عليه . فجرى في ذلك طلقاً ، وتلا فيه قوله تعالى (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار به في نار جهنم ، والله لايهدى القوم الظالمين ، لايزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم ، الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) وأسرف الخطيب في ترويع الخليفة وتقريعه ، ولم يحسن السياسة في وعظه . فاستشاط الخليفة غضباً ، واقسم أن لا يصلى خلف الخطيب الجمعة أبداً فقال له ابنه : وما الذي يمنعك عن عزل منذر بن سعيد والاستبدال به فزجره أبوه وانتهره وقال : أمثل منذر بن سعيد في فضله وورعه وعلمه وحلمه لا أم لك يعزل في ارضاء نفس ، ناكبة عن الرشد .

ومثال آخر : شنع أحد المؤرخين على أحد الملوك المعاصرين في الاندلس . فحنق ابن

الملك وهمَّ بقتل المؤرخ ، فلما شعر أبوه بذلك قال له اليك عن هذا الفكر الخبيث ولئن قتلته لأكونن أنا المطالب بدمه . تقتله ليعيرنا الناس باننا نقتل مورخينا . حتى إذا مضت أيام دخل المؤرخ الحمام ليستحم ، فلما خرج ليلبس ثيابه ، رأى فيها صرة تضم ألف دينار ، ورقعة من الملك يقول فيها : ان الذى أوصل اليك هذه الدراهم وأنت لاتشعر ، قادر ان يوسل اليك من يقتلك فكفَّ غرب لسانك عنا واذا عدت فأرخت ثانياً لاتشنع علينا أعمالنا . قال دوزى اذا قيست حرية العرب بحرية الافرنج تشبه هذه الاستبداد .

وما زال هذا التسامح المحمود حتى انتقل ملك العرب فى الاندلس الى المرابطين والموحدين وكانوا افريقيين لايخلون من شىء من التعصب وليس فيهم تسامح الامويين العرب فتبدلت الحال بعض الشىء ، وذهبت أو كادت طلاوة تلك المدنية التى أقاموها وكانت لا بالغربية ولا بالشرقية فبهر خبرها ومخبرها لولا أن قام الملوك من بنى نصر فى غرناطة ، ورأبوا الصدع ، وجبروا الكسر ، وكانوا كلما صغرت رقعة ملكهم ، زادت الرقعة الباقية ارتقاء ، فتنتقل القوة والنفوس من بلد زال عنها سلطانهم ، الى بلاد يرفرف عليها علمهم ، ويزيد ملوكهم تسامحاً مع ذمتهم ومجاوريهم . وهمة فى تعهد صناعاتهم وزراعتهم وعمران مدنهم التى حصنوها بالعدل والاحسان

العرب والاسبانه

٩٥

قال بعضهم لو لم يقم كلوفيس [١] بحروب دينية فى القرن الخامس لتعذر على

(١) كلوفس (٤٦٥ — ٥١١) ملك الفرنجة (فرنسا) سنة ٤٨١ اصبح صقع باريز واستخلصه من أيدى الرومان سنة ٤٨٦ واستولى على ولايه الاكينين من الفيزيغوت وغلب الالمان سنة ٤٩٦ والبورغوند سنة ٥٠٠ ودان مع أمته بالنصرانية سنة ٤٩٦ فكان أول من وحد بلاد غاليا (فرنسا) في دينها وسياستها .

المسلمين فتح اسبانيا . ونحن نقول لولم يفتح العرب الاندلس ويحمل اليهم عبد الرحمن الأموى مدنية قومه لتأخرت المدنية الحديثة قروناً عن الظهور فى ربوع أوربا [1] وقد أجمع المنصفون أن العرب لولم ينجلوا عن الاندلس لكانت حال اسبانيا اليوم أرقى مما هى بمراحل ولا يؤمل لهذا الشعب وقدرأى صنوف العذاب من رجال الدين ورجال الحكم ، وأكلت نوابغه الحروب والاستعمار وديوان التفتيش الديني ، أن تنشأ له نهضة كنهضة ايطاليا فى القرن الخامس عشر تنتقل منها الى أوربا بأسرها .

وان المرء اذا نزل اسبانيا اليوم ليشعر ولا سيما فى القسم الجنوبى منها أنه فى بلاد عربية لوكان لسان القوم العربية . ويرى كثيراً من السحنات أشبه بوجوه العرب منها بوجوه الامم اللاتينية . وبعض عاداتهم وطبائعهم تنم عن روح عربية على سعى رجال الدين في نزعها من بينهم ، منذ استعاد الاسبان أرض الاندلس أواخر المئة التاسعة . لاجرم أن أربعة قرون ونصفاً لم تكف لان تنزع من القوم ما تأصل فيهم فى ثمانية قرون وتمثلوه وتمثل بهم من مدنية العرب .

ذكر بعضهم أن فى الاندلس أهم آثار اسبانيا ، والاندلس من اسبانيا بمثابة اقليم البروفانس فى جنوبى فرنسا وصقلية من ايطاليا ، وقد جمعت الاندلس جميع المحاسن والغرائب المبعثرة فى طول اسبانيا وعرضها ؟ ولهجة الاندلس ماثلة الى العربية كثيراً والاحتفالات والاخلاق قد حفظت فيها الاساليب العربية .

نعم لا تزال تسمع فى اللغة الاسبانية كثيراً من الألفاظ العربية من أسماء البلاد والأنهر والنواحى وبعض المرافق والمصطلحات . وكل كلمة تبدأ عندهم بأل التعريف العربية هى عربية لا محالة ، ومن الأسماء ما يبدأ ببنى ومنها ما يبدأ بوادى فدخلت مئات من الألفاظ فى اللغة الاسبانية وتأصلت فيها كما دخلت

(١) من تاريخ الكنيسة تعريب هنرى جسب قال موسهليم الجرمانى : حق علينا ان نقول ان العرب ولاسيما عرب اسبانيا هم أصل وينبوع كل معرفة فى الطب والفلسفه والفلك والتعاليم التى بزغت فى أوربا منذ القرن العاشر فصاعدا .

البرتقالية والايطالية والافرنسية لغات الامم اللاتينية ، وهى ظاهرة كل الظهور فى اللغة الاسبانية وأقل منها فى اللغة البرتقالية والى اليوم تسمع بوادى الرامة ووادى الحجارة ووادى القنال ووادى البياضة ووادى الكبير وقاعة وقليعة والرملة وقصبة وقصر ومدينة وجنة والمدور والبطاقة والقنديل والأنبيق والساقية والمنارة والربض والمسجد والربع والشمسية والفندق والمحراب ومئات غيرها أفردها علماء اللغة منهم بالتأليف .

أخذ الاسبان عن العرب أشياء ظنوها بعدُ من مصطلحات أجدادهم وبنات أفكارهم ، وتأصلت فيهم من حيث يشعرون ولا يشعرون . حدثنى الثقة ان أحد علماء المشرقيات من الاسبان وهو موسيقار يحسن العربية ويطبع الآن كتاباً يثبت فيه بالأدلة التاريخية ان الموسيقى الكنائسية فى القرن الثالث عشر كانت مقتبسة من الموسيقى العربية . ويخيل لمن يسمع الموسيقى الاسبانية والغناء الاسباني ويرى الرقص الاسبانى انها عربية الا قليلا بحيث ساغ لنا أن نقول اذا كان الروسى شرقياً « تأورب » واستغرب فالاسبانى عربي شرقى « تأورب » واستغرب أيضاً

ولا تزال الى اليوم ترى كثيراً من النابهين من الاسبانيين يدعون ان أصلهم عربي يذكرون ذلك مفاخرين ويعدون ذلك من أمارات الشرف والتغنى بذكرى القديم الجميل . وقد رأينا الاسبانيين فى القرن التاسع عشر والعشرين نهضوا نهضة لا بأس بها للبحث عن ماضيهم أو ماضى اسبانيا الاسلامية وصرفوا فى ذلك وقتاً ومالا وتوفر على هذا العمل طائفة منهم حرصوا أجمل حرص على الأخذ من المدنية العربية ليكفروا عن سيئات أجدادهم الذين عوروا بعملهم مصانع العرب وخططهم وحرقوا ومزقوا أسفارهم وآثارهم .

أذكر مثالين من هذه النهضة يعدان فى الباب الأول من أبواب تسلسل الفكر الراقي والدؤوب المحمود وهو مما يقل الآن فينا بعد أن أورثنا الاسبانيين أخلاقنا وطباعنا واليكم البيان : قال لى الاستاذ الاب آسين بلاسيوس مدرس العربية

في جامعة مجريط وأحد أعضاء المجمع العلمى العربي بدمشق وأنا أنظر خزانة كتبه : جمع أكثر هذه الخزانة أستاذى ريبرا وفيها كتب كثيرة مطبوعة وأهمها الجزازات « الفيش » التى رتبها طول حياته وفيها أسماء ثلاثين ألف عالم من علماء الاندلس وقد استنسخها البرنس ليونى كايتانى الايطالى صاحب تاريخ الاسلام الكبير ليطبعها فى جملة ما يطبع من آثار العرب . قال : لما كنت فى بلدي وجئت مجريط لأعمل مع أستاذى أحمل ما تيسر لطالب جمعه من الكتب ضممت مجموعتي الى مجموعته فى هذه الدار ولما حانت وفاته وكان عزباً أوصى لى بكتبه على أن أشتغل بها مدة حياتي وأفتح أبوابها لطلاب الاستشراق ثم أتركها كما تركها هو لمن أرى فيه الكفاءة للعمل بعدى أو أجعلها فى احدى دور الكتب العامة .

هذا هو المثال الأول والمثال الثاني مجموعة السنيور اوسما Osma ناظر مالية اسبانيا سابقاً وهى من الفسيفساء والقيشاني الاسبانى والسلاح والرخام والسجاد والادوات والاوانى الفضية والزمردية والاوانى الخزفية والبلورية والالبسة والنقوش والتصاوير والاعمال الخشبية والنقود العربية والاسبانية ذهبية وفضية ونحاسية من صنع عرب الاندلس وصنع اسبانيا المسيحية فى القرون الوسطى هذا عدا وثائق تاريخية وسجلات من القرن السادس عشر من الآثار النصرانية وقد بدأ بجمع هذه المجموعة عم السنيور اوسما والد زوجته وأحد أشراف اسبانيا منذ زهاء خمسين سنة ودامت ابنته بعده وزوجها يطرسان على آثار هذا المغالى بالآثار الاسلامية والنصرانية . ولما جاءتها الوفاة أوصت بالقسم الذى جمعته فى حياتها والذى ورثته عن أبيها لزوجها السنيور اوسما على أن تدعى المجموعة كلها باسم لقب والدها فسميت مجموعة مجمع بلنسية للدون خوان Instituto de Valencia de Don Juan وصحت عزيمة الوزير الاسبانى أن يضيف الى المجموعة ماجمعه في حياته ويجعله فى دارين بناهما فى أهم أحياء مجريط الحديثة فبنى الدار الأولى على الطراز الاندلسى والثانية على الطراز المسيحى فى القرون الوسطى وكلا الدارين متلاصقان جعلت كل مجموعة في الدار التى تناسبها

فأصبحت الداران متحفاً مرتباً ترتيباً علمياً راقياً بمعرفة صاحبها الآن واشارة من يختلف الى داره من غلاة العاديات والآثار وحملة العلوم والفنون الذين يضمهم فى ناديه مرة فى الاسبوع يتفاوضون الصناعات والنفائس . وقد وقف الوزير المولع بالآثار مؤخراً مجموعته البديعة وأقام عليها خمسة من الامناء منهم الاستاذ آسين المشار اليه ووقف عليها مبلغاً من المال لا يقل عن خمسة ملايين بستاس أو نحو عشرة ملايين فرنك بحسابنا اليوم وأعطاها خزانة كتبه البالغة ألفى مجلد على أن تبقى مجموعته ويزاد فيها ليدرس تاريخ الصنائع والفنون فى اسبانيا وقد توخى فى وصيته تنشيط الطلبة الوطنيين والاجانب على درس هذا الفرع من العلم فى اسبانيا وخص المولعين بهذا الشأن من الانكليز ممن يصرفون مدة فى مجريط لهذا الغرض يدرسون مجموعته فيعاونهم معاونة مالية وخص من الانكليز طلبة جامعة اكسفورد لانه درس فيها فى صباه فأراد أن يعنى عناية خاصة بمن يتخرجون فيها.

هذان مثالان من عناية الخلف بآثار السلف ولو قام فى أذهان خاصة الاسبان مثل هذه الافكار منذ جلاء العرب عن بلادهم لكانت اليوم مجاميعهم ومجموعاتهم أعظم ثروة خلفتها أمة مغلوبة لامة غالبة ولعدت فى اسبانيا من أكبر موجبات فخرها كما تربح ولايات الاندلس اليوم من بقايا الآثار العربية التى يقصدها السياح من عامة أقطار الارض

العلم فى الاندلس

٩٦

قال لنا الدكتور روزيه[1] رئيس جامعة لوزان فى سويسرا سابقاً انى طوفت بلاد الاندلس ورأيت آثارها الباقية من عهد العرب ، فأعجبت بها كل الاعجاب ،

(١) من محاضرة « العرب فى الاندلس » ألقيناها فى النادى العربى بدمشق مساء ٢ حزيران ١٩١٩

ومما شهدته السدود القائمة الى اليوم فى ولاية بلنسية ، فان أهل هذه الولايةمن الاسبان اليوم يعيشون بفضل هندسةمهندسى العرب لهذه السدود ، ولم يتيسر لمدنية القرن العشرين أن تقيم أرقى مما أنشأه أبناء جنسكم فى القرون الوسطى ، ولحسن الحظ لم يقو التعصب الديني الذى دك كثيراً من المعالم فى أرض أندلس على نسف هذه السكور على وادى الأحمر وغيرها والا لهلك أهل ذاك الاقليم عطشاً ؛ ومن الاسف ان مدنية هذه بعض آثارها تذهب ولا من يبكيها . فقبح من قضوا عليها ، وأوصلوكم الى ما أنتم عليه من الانحطاط .

جملة لا يزال صداها يتردد في أذننا منذ فاوهنا بها العالم السويسرى من بضع سنين وقد ذكرنا بهاعهد الاندلسوعهد عمرانه الزاهر ، وارتقائه الباهر . ذكرنا بالامس أمة عربية أوروبية تشبهالغربيين فى تصوراتها وآدابها وعلومها ، ولكنها شرقية عربية مسلمة باقامة شعائردينها وأخلاقهاوعاداتها ، وقلنا اننا معاشرالعرب على كثرة عنايتنا أيام عزنا بتقييد علوم ديننا ولساننا وما الى ذلك ، لم نكن في العناية بالعلوم التى هى اليوم العلومالحقيقية كالرياضياتوالطبيعيات والكيمياء والفلسفة والطب والفلك دون ذلك بكثير ، والا لما قامت مصانع الاندلس على النظام الذى يرى الناس أثره ويعجبون به على اختلاف العصور ، ولما أعجب الاستاذ روزيه اليوم بهندسة العربلسدود بلنسية الباقية لعهدنا . بعد انقراض دولة العرب من تلك البلاد زهاء أربعة قرون .

ولقد حدث النقات ان الغربيينمن المجاورين للاندلس كالفرنجةأى الفرنسيس والالمان وسكان برومية أى الطليان وكانوا أمثل الافرنج مدنية لذاك العهد لم يكونوا الا دون جيرانهم عرب الاندلس فى العلم وأعمال العمران والصناعات والزراعة ولولا علماء الكيمياء والهندسة والنبات والطب من العرب لتأخرت المدنية فى أوربا زمناً طويلا .

ولذلك كانت الاندلس فى عهد العرب كعبة العلم يحج اليها أذكياء الطلاب من فرنسا وايطاليا وغيرهما كما يحج اليوم طلاب العلم الى كليات فرنساوالمانياوانكلترا والبلجيك وسويسرا وهولاندة

أخذ عشرات من الافرنج العلوم عن عرب الاندلس وترجموها باللاتينية ومنها مافقد أصله العربي اليوم وبقيت ترجمته فقط [١] . وأن العلوم التى تلقاها جربرت الذى أصبح بابا رومية باسم سلفستر الثانى عن عرب الاندلس كانت موضوع اعجاب معاصريه حتى أتهموه بالسحر .

كانت الاندلس قبل أن تغلب بنى أمية عليها سنة ٩٢ ﻫ خالية من العلم لم يشتهر عنـد أهلها أحد بالاعتناء به ، الا إنه يوجـد فيها طلسمات قديمة فى مواضع مختلفة وقع الاجماع على أنها من عمل ملوك رومية اذ كانت الاندلس منتظمة بمملكتهم . ولما استقر الامر لبنى أمية عنى جماعة من أهلها بطلب الفلسفة ونالوا أجزاء كثيرة منها وفى أيام الامير الخامس من بنى أمية وهو محمد بن عبد الرحمن أي فى أواسط المئة الثالثة تحرك أفراد من الناس الى طلب العلوم أى غير علوم الشريعة واللغة ولم يزالوا يظهرون ظهوراً غير شائع الى قريب وسط المائة الرابعة.

ذلك لان رجال الدين كانوا أصحاب صولة وتأثير في النفوس ، ومن عادة من جهل شيئاً أن يعاديه ، فتوهم بعضهم ان هذه العلوم الدنيوية مدرجة الى الزهد فى العلوم الاخروية ، فكانوا يشددون النكير على من يتعاطونها ، ولكن أكثر ملوك بنى أمية ومن بعدهم من ملوك الاندلس ، كانوا أعقل من أن يطاوعوهم فى النيل ممن يريدون الايقاع بهم ، لمخالفتهم لهم فى العلوم التى يعتون بها .

اشتهر بين وسطي المئة الثالثة والرابعة من العلماء أبو عبيدة مسلم البلنسى المعروف بصاحب القبلة كان عالما بحركات الكواكب وأحكامها وصاحب فقه وحديث ومنهم يحيى بن يحيي المعروف بابن السمينة من أهل قرطبة كان بصيراً بحساب النجوم والطب وغير ذلك ، متصرفاً فى العلوم ، متفنناً فى ضروب المعارف ، وكان معتزلي المذهب ، توفى سنة ٣١٥ ومنهم محمد بن اسمعيل المعروف بالحكيم وكان عالما بالحساب والمنطق نحوياً لغوياً توفى سنة ٣٣١

انتدب الامير الحكم فى أيام أبيه عبد الرحمن صدر المائة الرابعة الى العناية

---

(١) راجع ماكتبه هوار فى تاريخ العرب فى أسماء نقلة الافرنج فى العلوم عند العرب وماكتبه نالينو فى كتابه علم الفلك عند العرب المطبوع فى رومية .

بالعلوم فاستجلب من بغداد ومصر وغيرها من ديار الشرق عيون التواليف الجليلة في العلوم القديمة والحديثة ، وجمع منها في بقية أيام أبيه ثم في مدة ملكه ما كاد يضاهي ماجمعته ملوك بني العباس في الأزمان الطويلة ، فكثر تحرك الناس في أيامه الى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم .

وقام بعده ابنه هشام فعمد الى خزائن أبيه الحكم الجامعة للكتب المذكورة وغيرها وأراد استخراج مافيها من ضروب التآليف بمحضر خواص من أهل العلم بالدين وأمرهم باخراج مافي جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في علوم المنطق وعلم النجوم وغير ذلك من علوم الأوائل حاشا الطب والحساب وأمر باحراق ماعدا ذلك وافسادها فاحرق بعضها ، وطرح بعضها في آبار القصر ، وهيل عليها التراب والحجارة ، وغيرت بضروب من التغايير ، فعل ذلك تحبباً الى عوام الاندلس وتقبيحاً لمذهب الخليفة الحكم عندهم ، اذ كانت تلك العلوم مهجورة عند اسلافهم ، مذمومة بالسنة رؤسائهم ، وكان كل من قرأها متهماً عندهم بالخروج عن الملة ، ومظنوناً به الالحاد في الشريعة ، فسكن أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك ، واضمحلت نفوسهم ، وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم ، ولم يزل أولو النباهة من ذلك الوقت يكتمون مايعرفونه منها ويظهرون ماتجوزلهم فيه من الحساب والفرائض والطب وما أشبه ذلك الى أن انقرضت دولة بني أمية من الاندلس .

قال هذا القاضي صاعد ونؤيده رواية ابن سعيد في المغرب قال : وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء ، الا الفلسفة والتنجيم فان لهما حظاً عظيما عند خواصهم ، ولا يتظاهر بها خوف العامة . فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق . وقيدت عليه أنفاسه ، فان زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة ، وكثيراً مايأمر ملوكهم باحراق كتب هذا الشأن اذا وجدت وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه وان كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن على ماذكره الحجاري .

قال ابن حزم : وأما كتب الفلسفة فامامها في عصرنا أبو الوليد بن رشد القرطبي وله فيها تصانيف جحدها لما رأى من انحراف منصور بني عبد المؤمن عن هذا العلم وسجنه بسببها وكذلك ابن حبيب الذي قتله المأمون بن منصور المذكور على هـذا العلم باشبيلية وهو علم ممقوت بالاندلس لا يستطيع صاحبـه اظهاره ، وكان مطرف الاشبيلي قد اشتغل بالتصنيف في علم النجوم ، الا أن أهـل بلده كانوا ينسبونه الى الزندقة بسبب اعتكافه على هـذا الشأن ، فكان لا يظهر شيئاً مما يصنف .

وقال أيضاً من رسالة أهل قرطبة : انهم من التمكن في علوم القراآت والروايات فقط وكثير من الفقه والبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم بمكان رحب الفناء ، واسع العطن ، متنائي الاقطار فسيح المجال . وقد ذكر ابن حزم في رسالته هـذه من نبغ في الاندلس من المؤلفين في علوم الدين والنسب والتاريخ والطب وعـد بعض كتبهم قال : وأما الفلسفة فاني رأيت فيها رسائل مجموعة وعيوناً مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي دالة على تمكنه من هذه الصناعة واما رسائل أستاذنا أبي عبـد الله محمـد بن الحسن المذحجي في ذلك فمشهورة متداولة ، وتامة الحسن ، فائقة الجودة عظيمة المنفعة . وقال لم يؤلف في الازياج مثل زيج مسلمة وزيج ابن السمح ، وهما من أهل بلادنا وكذلك أحمد بن نصر .

وقال آخر : وأما كتب علم الموسيقى فكتاب أبي بكر بن باجة الغرناطي من ذلك فيه كفاية . وهو في الغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي بالشرق واليـه تنتسب الالحان المطربة بالاندلس التي عليها الاعتماد ، وليحيي الخـدج كتاب الاغاني الاندلسية على منزع الاغاني لابي الفرج ، وهو ممن أدرك المئة السابعة قال صاعد: ولما افترق الملك في صدر المائة الخامسة من الهجرة بين ملوك الطوائف واقتعد كل منهم قاعدة من أمهات البلاد ، فاشتغل بهم ملوك الحاضرة العظمى قرطبـة من امتحان الناس ، واضطرت الفتنة الى بيع ما كان بقصر قرطبة من ذخائر ملوك الجماعة من الكتب وسائر المتاع . فبيع ذلك باوكس ثمن ، واتفه قيمة ، انتشرت

تلك الكتب بأقطار الاندلس ، ووجد فى خلالها أعلاق من العلوم القديمة ، كانت أفلتت من أيدى الممتحنين بحركة الحكم أيام المنصور بن أبى عامر وأظهر أيضاً كل من كان عنده من الرعية شيء ما كان لديه منها ، فلم تزل الرغبة ترتفع من حين ذلك فى طلب العلم القديم شيئاً فشيئاً ، ثم أبيحت تلك العلوم الى أن زهد الملوك فيها وفى غيرها فقل طلاب العلم وصاروا افراداً بالاندلس .

فمن اعلام هذه العلوم على ذاك العهد أبو غالب بن عبادة الفرائضى كان مشهوراً بعلم العدد وأبو أيوب عبد الغافر بن محمد أحد المهرة بعلم الهندسة . وعبد الله ابن محمد المعروف بالسرى كان عالماً بالعدد والهندسة وكان ينسب اليه العلم بصناعة الكيمياء ومنهم أبو بكر بن أبي عيسى كان مقدماً فى العدد والهندسة والنجوم وسائر العلوم الرياضية فكان يجلس لتعليم ذلك فى أيام الحكم . وعبد الرحمن ابن اسمعيل بن زيد المعروف بالاقليدى كان متقدماً فى علم الهندسة معتنياً بصناعة المنطق وأحمد بن حماد القرطبى (٣٣١) عالم بالحساب والهندسة وأبو القاسم أحمد ابن محمد العدوى كان معلماً بعلم العدد والهندسة نافذاً فيها وأبو عثمان سعيد ابن فتحون بن مكرم المعروف بالحمار السرقسطي كان محققاً اماماً فى علم النحو واللغة ، وله تآليف فى الموسيقى ورسائل فى الفلسفة . وأبو القاسم مسلمة بن أحمد المعروف بالمرحيط كان أمام الرياضيين فى الاندلس فى وقته ، واعلم ممن كان قبله بعلم الافلاك ، وكانت له عناية بارصاد الكواكب وله كتاب حسن فى تمام علم العدد وهو المعنى المعروف بالمعاملات ، وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب من زيج البتاني ، وعنى بزيج محمد بن موسى الخوارزمى ، وصرف تاريخه الفارسى الى التاريخ العربى ، ووضع أوساط الكواكب لأول تاريخ الهجرة وزاد فيه جداول حسنة توفى فى سنة ٣٩٨ وقد أنجب تلاميذ جلة ، ولم ينجب عالم بالاندلس مثلهم ، فمن أشهرهم ابن السمح وابن الصفار والزهراوى والكرماني وابن خلدون

فاما ابن السمح القاسم أصبغ بن محمد بن السمح المهندس فكان متحققاً بعلم العدد والهندسة متقدماً في علم هيئة الافلاك وحركات النجوم ، وكانت له مع

ذلك عناية بالطب وله تواليف حسنة فى الهندسة وعمل الاسطرلاب والازياج ، ومنها زيجه الذى ألفه على أحد مذاهب الهند المعروف بالسند هند توفى سنة ٤٢٦ وأما ابن الصفار فهو أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر كان متحققاً أيضاً بعلم العدد والهندسة والنجوم ، وقعد فى قرطبة لتعليم ذلك ، وكان له أخ يسمى محمداً مشهور بعمل الاسطرلاب ، لم يكن بالاندلس قبله أجمل صنعاً لها منه .

وأما الزهراوى فهو أبو الحسن على بن سليمان كان عالماً بالعدد والهندسة معتنياً بعلم الطب . وأما الكرمانى فهو أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن من أهل قرطبة أحد الراسخين فى علم العدد والهندسة ، رحل الى الشرق وانتهى الى حران من بلاد الجزيرة وعنى هناك بعلم الهندسة والطب ثم رجع الى بلاد الاندلس وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل اخوان الصفا ، ولم يدخلها أحد من أهل الاندلس قبله ، ومحله من العلوم النظرية المحل الذى لايجارى فيه ، توفى بسرقسطة سنة ٤٥٨ وأما ابن خلدون (هو غير عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ) فهو أبو مسلم عمرو بن أحمد بن خلدون الحضرمى من اشراف أهل اشبيلية فى علوم الفلسفة مشهور بعلم الهندسة والنجوم والطب ، مشبهاً بالفلاسفة فى اصلاح أخلاقه ، وتعديل سيرته ، وتقويم سياسته ، توفى سنة ٤٤٩

ومن مشاهير تلاميذ أبى القاسم أحمد بن عبدالله الصفار ابن برغوث والواسطي وابن شهر والقرشي والامطش المروانى وابن العطار فاما ابن برغوث فهو محمد بن عمر بن محمد المعروف بابن برغوث كان متحققاً بالعلوم الرياضية مختصاً منها بايثار علم الافلاك وهيئاتها وحركات الكواكب وارصادها وكان له مع ذلك تحقق بعلم النحو ، ومعرفة القرآن والفقه والوثائق ، واشراف حسن على سائر العلوم ، توفى سنة ٤٤٤ وأما الواسطى فهو أبو الاصبغ عيسى بن أحمد أحد المتمكنين من علم العدد والهندسة والفرائض وقعد بقرطبة لتعليم ذلك ، وله أيضاً بصر بجمل من علم هيئة الافلاك وحركات النجوم ، وأما ابن شهر فهو أبو الحسن مختار بن شهر الرعينى كان بصيراً بالهندسة فى النجوم متقدماً فى اللغة والنحو والحديث والفقه

شاعراً متكلما ذا دهاء ومعرفة بالسير والتواريخ وأما ابن العطار فهو محمد بن خيرة العطار فكان من تلاميذ ابن الصفار متقناً لعلم العدد والهندسة والفرائض وله بصر بصناعة النجوم وعناية بعلم حركاتها .

ومن مشاهير تلاميذ ابن السمح أبو مروان سليمان بن محمد بن عيسى بن الناشئ وهو بصير بالعدد والهندسة معتن بصناعة الطب وأحكام النجوم وأبو جعفر أحمد بن عبد الله المعروف بابن الصفار المتطبب ومن نظراء هذه الطبقة عبدالله ابن أحمد السرقسطي كان نافذاً في علم العدد والهندسة والنجوم . وقعد لتعليم ذلك في بلده توفى سنة ٤٤٨ ومنهم أبو اسحق ابراهيم بن أحمد بن ابراهيم الاشبيلي كان بصيراً بعلوم البرهان واللسان والمساءلة متقننا في ضروب المعارف صنعا لطيف اليد توفى سنة ٤٢٠

ومن مشاهير أصحاب ابن برغوث ابن الليث وابن الجلاب وابن حي فاما ابن الليث فهو محمد بن أحمد بن الليث كان متحققا بعلم العدد والهندسة معتنيا بعلم حركات الكواكب وارصادها وكان مع هذا بصيراً بالنجوم واللغة والفقه توفى سنة ٤٠٥ واما ابن حي فهو الحسن بن محمد التجيبي من أهل قرطبة كان بصيراً بالهندسة والنجوم كلفا بصناعة التعديل وله فيها مختصر على مذهب السند هند وخرج من الاندلس سنة ٤٤٢ ولحق بمصر ثم رحل الى اليمن واتصل بأميرها المسبحي وكان ملكه اذذاك يشتمل على بعض أفريقية وجميع مصر والشام وجزيرة العرب والحجاز وتهامة ونجد واليمن حظي عنده وتوفى سنة ٤٥٦ وأما ابن الجلاب فهو الحسن بن عبد الرحمن المعروف بابن الجلاب أحد المتحققين بعلم الهندسة وهيئة الافلاك وحركات النجوم وله مع ذلك عناية بالمنطق والعلم الطبيعي .

ومنهم أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام بن خالد الكناني المعروف بابن الوقشي من أهل طليطلة أحد المتفننين في العلوم المتوسعين في ضروب المعارف من أهل الفكر الصحيح والنظر الناقد والتحقق بصناعة الهندسة والمنطق والرسوخ في علم النحو واللغة والشعر والخطابة والاحكام لعلم الفقه والأثر والكلام وهو

مع ذلك شاعر بليغ ليس يفضله عالم بالانساب والأخبار والسير مشرف على جمل سائر العلوم ومن نظراء هؤلاء أبو جعفر أحمد بن خميس بن عامر بن منيح من أهل طليطلة أحد المعتنين بعلم الهندسة والنجوم والطب وهو من لدات القاضى أبي الوليد هشام بن أحمد بن هشام وأبى اسحق ابراهيم بن لب التجيبى المعروف بالقويدس قصد للتعليم بذلك زمنا وكان له بصر بعلم هيئة الافلاك وحركات النجوم ونفوذ فى العربية توفى سنة ٤٥٤ ومنهم محمد بن عبد الله بن مرشد مولى ابن طلمس الوزير كان كاتبا كامل الصناعة يجمع الى ذلك النبوغ فى علوم كثيرة من الحساب والتنجيم والهندسة توفى سنة ٤٤٨

وكان فى القرن الخامس للهجرة افراد من الاحداث فى الاندلس مشتغلون بعلم الفلسفة ذوو افهام صحيحة وهمم رفيعة فمنهم من سكان طليطلة وجهاتها أبو الحسن على بن خلف بن أحمر وأبو مروان عبد الله بن خلف الاستجي وأبو جعفر أحمد ابن يوسف التهلاكى وعيسى بن أحمد بن العالم وابراهيم بن سعيد السهيلى الاصطرلابى. ومن أهل سرقسطة الحاجب أبو عامر بن الأمير المقتدر بالله وأبو جعفر أحمد ابن جوشن . ومن أهل بلنسية أبو زيد عبد الرحمن بن سيد .

وأبرع هؤلاء فى الهندسة على بن أحمر الصيدلانى وأبو جعفر أحمد بن جوشن وأعلمهم بحركات النجوم وهيئة الأفلاك أبو اسحق ابراهيم بن يحيى النقاش المعروف بولد الزرقيال — والزرقيال نسبة لآلة سموها الزرقالة وهى صحيفة لرصد الكواكب — فانه أبصر أهل القرن الخامس بارصاد الكواكب وهيئة الافلاك وحساب حركاتها وأعلمهم بعلم الازياج واستنباط الآلات النجومية وأحمد ابن يوسف يعرف بابن كماد (حماد ؟) كان من أهل المعرفة بالعدد وصناعة النجامة وبنى ازياجه ومنها القبس والمستنبط على ارصاد أبي أسحق الطليطلى المعروف بالزرقالة وأما أبو عامر بن الأمير بن هود فهو مع مشاركته لهؤلاء في العلم الرياضى منفرد دونهم بعلم المنطق والعناية بالعلم الطبيعى والعلم الالهى .

وكان عبد الرحمن بن اسمعيل بن بدر المعروف بالاقليدس الاندلسى متقدما

فى علم الهندسة معتنيا بصناعة المنطق . وموسى بن ميمون الاسرائيلى الاندلسى قرأ علم الأوائل واحكم الرياضيات وشدا أشياء من المنطقيات وأبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة عالماً بعلوم الأوائل لم يبلغ أحد درجته من أهل عصره فى مصره وله تصانيف فى الرياضيات والمنطق والهندسة أربى فيها على المتقدمين قال القفطى الا أنه يتمسك بالسياسة المدنية وينحرف عن الأوامر الشرعية استوزره أبو بكر يحيي بن تاشفين مدة عشرين سنة وكانت وفاته فى سنة ٥٣٣

وممن اعتنى بصناعة المنطق خاصة من سائر الفلسفة أبو محمد بن حزم القرشي وكان أبوه أحد العظماء من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر ووزر لابنه المظفر وكان ابنه أبو محمد وزيراً أيضاً لعبد الرحمن المستظهر بالله ثم نبذ هذه الطريقة وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن وعنى بعلم المنطق . ومنهم أبو الحسن على بن اسمعيل بن سيده الاعمى وكان أبوه أيضاً أعمى عنى بعلوم المنطق عناية طويلة وألف فيها تأليفاً كبيراً ذهب فيه الى مذهب متى بن يونس وهو بعد هذا أعلم أهل الاندلس قاطبة بالنحو واللغة والأشعار وله فى اللغة تواليف جليلة منها المحكم والمحيط الأعظم والمخصص وشرح اصلاح المنطق وشرح كتاب الحماسة ٤٥٨

ومن أعاجيب النوابغ الاندلسيين الذين فقدوا بصرهم ولم يفقدوا بصيرتهم ابن الحناط الكفيف الذى قال فيه ابن حيان انه كان أوسع الناس علماً بعلوم الجاهلية والاسلام بصيراً بالآثار العلوية عالماً بالافلاك والهيئة حاذقاً بالطب والفلسفة ، ماهراً فى العربية واللغة والآداب الاسلامية ، وسائر التعاليم الاوائلية ، ولد أعشى ضعيف البصر ، متوقد الخاطر . فقرأ كثيراً فى حال عشاه ، ثم طفىء نور عينيه بالكلية فازداد براعة ونظر فى الطب بعد ذلك فانجح علاجاً وكان ابنه يصف له مياه الناس المستفتين عنده فيهتدى منها الى مالا يهتدى البصير ولا يخطىء الصواب فى فتواه ببراعة الاستنباط ، وتطبب عنده الاعيان والملوك والخاصة فاعترف له بمنافع جسمة

وأما العلم الطبيعى والعلم الألهى فلم يعن أحد من أهل الاندلس بهما كبير

عناية ومن المشتغلين بهما ابن النباش التيجانى وأبو عامر بن الأمير بن هود وأبو الفضل بن حسداى الاسرائيلى . وأما صناعة الطب فلم يكن بالاندلس من استوعبها ولا لحق باحد من المتقدمين فيها وأول من اشتهر منهم بالاندلس أحمد ابن اياس من أهل قرطبة ومحمد بن عبد الله الأوسط ويعرف بالحرانى ومنهم يحيى بن اسحق أحد وزراء الناصر لدين الله وسعيد بن عبد الرحمن بن محمد ابن عبد ربه مولى الأمير هشام الرضى بن عبد الرحمن الداخل وهو ابن أخى أحمد بن محمد بن عبد ربه الشاعر صاحب العقد وكان له بصر بحركات النجوم ومهاب الرياح وتغيير الأهوية . ومنهم عمر بن بريق واصبغ بن يحيى وأحمد ابن حكم بن حفصون وكان هذا طبيباً نبيلا ، دقيق النظر ، بصيراً بالمنطق ، مشرفا على كثير من علوم الفلسفة ، ومنهم محمد بن تمليخ وأبو الوليد محمد بن الحسين المعروف بابن الكناني كان عالما بالطب حسن العلاج ومنهم عبد الملك الثقفى كان عالما بالطب والهندسة وكان الطب أغلب عليه ومنهم عمر وأحمد ابنا يونس بن أحمد الحرانى . ومنهم محمد بن عبدون الجبلى وكان قبل ان يتطبب مؤدبا فى الحساب والهندسة ومنهم سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل وعبدالله ابن اسحق المعروف بابن الشناعة المسلمانى الاسرائيلى وأبو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بابن الكنانى المظفر وكان بصيراً بالطب متقدما فيه ذاحظ من المنطق والنجوم وكثير من علوم الملسفة ومنهم أبو العرب يوسف بن محمد أحد المتحققين بصناعة الطب توفى سنة ٤٣٠

ومن أشهرهم أحمد بن ابراهيم الانصارى من أهل بلنسية كان من أهل العلم بالفرائض والحساب لايجارى فى التعاليم قعد لتعليم الحساب والهندسة ٥٩٣ ومنهم أبو عثمان سعيد بن البغونش عالم بعلم العدد والهندسة والطب ٤٤٤ ومنهم الوزير أبو المطرف عبدالرحمن اللخمى عنى عناية بالغة بقراءة كتب جالينوس وارسطوطاليس وغيرهما من الفلاسفة وتمهر فى علوم الادوية المفردة حتى ضبط منها مالم يضبطه أحد فى عصره وألف فيها كتابا جليلا لا نظير له جمع فيه ماتضمنه كتاب ديسقوريدوس

وكتاب جالينوس فى الأدوية المفردة وكان له فى الطب منزع لطيف ، وذلك أنه لايرى التداوى بالأدوية ماأمكن التداوى بالاغذية أو ما كان قريبا منها ، فاذا دعت الضرورة الى الأدوية فلا يرى التداوى بمركبها ، ماوصل الى التداوى بمفردها ، فان اضطر الى المركب ، لم يكثر التركيب ، بل اقتصر على أقل مايمكن منه .

ومنهم أبو مروان بن زهر الاشبيلى وأبو محمد عبد الله بن محمد المعروف بابن الذهبى وأبو عبد الله محمد البجائى المعروف بابن النباش معتن بصناعة الطب ذو معرفة جيدة بالعلم الطبيعى ومشاركة فى الالهي وتحقق بعلم الأخلاق والسياسة وبصر بصناعة المنطق . وممن عنى بطلب الفلسفة والهندسة والمنطق أبو الحسن عبد الرحمن بن خلف بن عساكر كان صنع اليدين متصرفا فى ضروب من الاعمال اللطيفة والصناعات الدقيقة .

ولم تزل صناعة أحكام النجوم نافقة بالاندلس قديما وحديثا فمن مشاهير المشتغلين بها أبو بكر يحيى بن أحمد المعروف بابن الخياط وأبو مروان الاستجى أحد المتحققين بعلم الاحكام والمشرفين على كتب الاوائل والاواخر وله فى التسييرات ومطارح الشعاعات وتعليل بعض أصول الصناعة رسالة فاضلة لم يتقدمه أحد اليها. ومن المذكورين أبو الاصبع عثمان القرى من أهل قرطبة وكان علمه الذي ينسب اليه ويغلب عليه التنجيم ومنهم عبد الرحمن بن وافد اللخمى من أهل طليطلة رحل الى قرطبة فلقى بها القاسم خلف بن عباس الزهراوى وأخذ عنه علم الطب وكان مع تقدمه فى ذلك فقيهاً عالماً متفنناً وله فى الفلاحة مجموع مفيد وكان عارفا بوجوهها وهو الذى تولى غرس جنة المأمون بن ذى النون الشهيرة بطليطلة توفى سنة ٥٦٧ وممن لم يشتهروا محمد بن عيسى بن ينق أبو عامر من أهل شاطبة لازم أبا العلاء بن زهر باشبيلية وأخذ عنه علمه وبرع فى الطب والأدب وتوفى سنة ٥٤٧

ومن الاطباء بالاندلس جواد الطبيب النصراني كان فى أيام الامير محمد بن عبد الرحمن الاوسط وله اللعوق المنسوب الى جواد وله دواء الراهب والشرابات

والسفوفات . وكان خالد بن يزيد بن رومان النصرانى بقرطبة صانعاً بيده عالماً بالادوية الشجارية وابن ملوكة النصرانى كان فى أيام الامير عبيد الله وأول دولة الامير عبد الرحمن الناصر وكان يصنع بيده ويفصد العروق وكان على بابه ثلاثون كرسياً لقعود الناس وعمران بن أبى عمرو واسحق الطبيب المسيحى كان مقيما بقرطبة وكان صانعاً بيده مجرباً يحكى له منافع عظيمة وآثار عجيبة وتحنك فاق به جميع أهل دهره ومنهم سليمان أبو بكر بن تاج كان فى دولة الناصر وابن أم المؤمنين وأبو بكر احمد بن جابر وأبو عبد الملك الثقفى كان أديباً عالما بكتاب اقليدس وبصناعة المساحة وهرون بن موسى الاشبولى وعبد الرحمن بن اسحق بن الهيثم والرميلى كان بالمرية فى أيام ابن معن المعروف بابن صمادح ويلقب بالمعتصم بالله

ومنحم بن الفوال يهودى من سكان سرقسطة كان متقدما فى صناعة الطب متصرفاً فى علم المنطق وسائر علوم الفلسفة ومروان بن جناح كان يهودياً وله عناية بصناعة المنطق وتوسع فى علم لسان العرب واليهود ومعرفة جيدة بصناعة الطب ومنهم اسحق بن قسطار وكان يهودياً أيضاً وكان بصيراً بأصول الطب مشاركاً فى علم المنطق مشرفاً على آراء الفلاسفة وله تقدم فى اللغة العبرانية وبراعة فى فقه اليهود وهو حبر من أحبارهم ومنهم حسداى بن اسحق وكان من أحبار اليهود متقدماً فى علم شريعتهم وهو أول من فتح لاهل الاندلس منهم باب علمهم من الفقه والتاريخ وغير ذلك وكانوا قبل يضطرون فى فقه دينهم وسنى تاريخهم ومواقيت أعيادهم الى يهود بغداد فيستجلبون من عندهم حساب عدة من السنين يتعرفون مداخل تاريخهم ومبادئ سنيهم فلما اتصل حسداى بالحكم ونال عنده نهاية الحظوة توصل به الى استجلاب ما شاء من تآليف اليهود بالمشرق فعلم حينئذ يهود الاندلس ما كانوا يجهلون واستغنوا عما كانوا يتجشمون الكلفة فيه .

ومنهم الفضل حسداى من ساكنى مدينة سر قسطة ومن بيت شرف اليهود بالاندلس عنى بالعلوم على مراتبها وتناول المعارف من طرقها فاحكم علم

لسان العرب ونال حظاً جزيلا من صناعة الشعر والبلاغة وبرع في علم العدد والهندسة وعلم النجوم وفهم صناعة الموسيقى ، وحاول عملها وأتقن علم المنطق وتمرن بطرق البحث والنظر واشتغل أيضا بالعلم الطبيعى ، وكان له نظر فى الطب ومنهم أبو جعفر بن أحمد بن حسداى كان آية فى الطب والمنطق ومنهم ابن سمحون أبو بكر حامد .

وكان أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى من مرسية وأعيان أهل الاندلس وأكابرهم فاضلا فى معرفة الادوية المفردة وكان أبو جعفر الغافقى والشريف محمد بن محمد الحسنى وخلف بن عباس الزهراوى وابن بكلارش من أكابر علماء الاندلس فى صناعة الطب وابن الصلت أمية بن عبد العزيز من بلد دانية من شرق الاندلس وهو من أكابر الفضلاء فى صناعة الطب وفى غيرها من العلوم وكان أوحد في العلم الرياضى متقنا لعلم الموسيقى وعمله جيد اللعب بالعود .

ومن أعظم فلاسفة الاندلس أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة وكان فى العلوم الحكمية علامة وقته متميزاً في العربية والادب والطب متقنا لصناعةالموسيقى جيد اللعب بالعود قالوا انه لم يكن بعد أبى نصر الفارابى مثله فى الفنون التى تكلم عليها من تلك العلوم فانه اذا قرنت أقاويله فيها بأقاويل ابن سينا والغزالى وهما اللذان فتح عليهم بعد أبى نصر بالمشرق فى فهم تلك العلوم ودونا فيها بان لهذا الرجحان فى أقاويله وفى حسن فهمه لاقاويل ارسطو والثلاثة أئمة دون ريب ومن حكمائهم الالهيين أو المتصوفين الشيخ الاكبر محيي الدين ابن عربى صاحب الفتوحات دفين دمشق .

ومنهم أبو العلاء بن زهر كان غاية فى علوم الاوائل والطب وأبو مروان ابن أبى العلاء زهر وكان من كبار الاطباء . والحفيد أبو بكر بن زهر كان متميزاً فى العلوم ولم يكن فى زمانه أعلم منه بصناعة الطب ومنهم أبو الحفيد محمد ابن أبي بكر بن زهر وأبو جعفر بن هارون الترجالى من أعيان اشبيلية وكان

محققا للعلوم الحكمية متقنا لها معتنيا بكتب ارسطاطاليس وغيره من الحكماء المتقدمين فاضلا فى صناعة الطب عالما بصناعة الكحل ، وأبو الحجاج يوسف ابن موراطير من شرق الاندلس وموراطير قرية من بلنسية كان فاضلا في صناعة الطب فالامور الشرعيــة أديبا شاعرا ومنهـم ابن أخته أبو عبد الله بن يزيد وأبو مروان عبد الملك بن قبلال وأبو اسحق ابراهيم الدانى وكان أمين البيمارستان وطبيبه بالحضرة وكذلك ولداه وأبو يحيي بن قاسم الاشبيلى كان صاحب خزانة الاشربة والمعاجين التى يأخذها الخليفة المنصور من عنده .

وأبو الحكم بن غلندو الطبيب وأبو جعفر احمد بن حسان وأبو العلاء بن أبى جعفر احمد بن حسان وأبو محمد الشذونى وله معرفة جيدة بعلم الهيئة والحكمة والطب مشهور بالعلم وأبو الحسين بن اسدون شهر بالمصدوم الطبيب وعبدالعزيز ابن مسلمة الباجى وأبو جعفر بن الغزال وأبو بكر بن القاضى أبى الحسن الزهرى وابن الحلاء المرسى وأبو اسحق بن طملوس من جزيرة شقر من أعمال بلنسية وأبو جعفر الذهبى وأبو العباس بن رومية النباتى العشاب وأبو العباس الكنبنازى وابن الاصم وغيرهم من الأطباء الذين كانوا يجمعون الى الطب أدبا وشعراً أوفقهاً وحديثا وقرآناً أو فلسفة ومنطقاً أو نجوما أو كيمياء .

هذه جملة اجمالية في بعض رجال العلم غير الدينى فى الاندلس ذلك القطر الذى اليه تنسب نحو نصف المدنية العربية الذي نقل أهله المدنية القديمة الى أهل المدنية الحديثة فكانوا خير صلة وعائد بين الرومان واليونان والفرس وبين الانكليز والطليان والالمان والفرنسيس وقد تم ما تم من ذلك بفضل عقول خلفاء العرب وملوكهم هناك فقد كان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أحد ملوك الاندلس عالماً مفنناً مكرما للعلماء والشعراء ولم يزل يبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر الى أن اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب وكان ممن صحبه من العلماء والمتفننين أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين وكان هــذا متحققا بجميع أجزاء الفلسفة يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخــدمة من

الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والاجناد الى غير هؤلاء من الطوائف وكان يقول لو تفق عليهم علم الموسيقى لانفقته عندهم ولم يزل أبو بكر يجلب اليه العلماء من جميع الاقطار وينبهه عليهم ويحضه على اكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذى نبهه الى أبى الوليد محمد بن رشد ، وأشار اليه بتلخيص كتب الحكيم ارسطاطاليس لان أمير المؤمنين كان يشكو من قلق عبارته أو عبارة المترجمين عنه وغموض أغراضه .

ومن المتأخرين فى هذه العلوم أبو على الصعلعل حسن بن محمد رئيس الموقتين بالمسجد الأعظم من غرناطة (٧١٦) قال لسان الدين : وكان فقيها اماما فى علم الحساب والهيئة أخذ عنه الجلة والنبهاء قائما على الاظلال والرخائم والآلات الشعاعية ماهراً فى التعديل مداوم النظر ذا استنباطات ومستدركات وتواليف نسيج وحده ورجعة وقته ، ومثل أبى جعفر أحمد بن حسن بن باضة السلمى الموقت بالمسجد الاعظم بغرناطة كان نسيج وحده وقريع دهره معرفة بالهيئة وأحكاما للآلة الفلكية ينحت منها بيده ذخائر يقف عندها النظر وتستدعى الحيرة جمال خط واستواء صنعة وصحة وضع وبلغ فى ذلك درجة عالية ونال عناية بعيدة حتى فضل بما ينسب اليه من ذلك كثيراً من الاعلام المتقدمين وازرت آلاته بالحمائريات والصفاريات وغيرها من آلات المحكمين وتغالى الناس فى أثمانها أخذ ذلك عن والده الشيخ المتفنن شيخ الجماعة فى هذا الفن ، ومثل أبى العباس أحمد بن مفرج النباتي المشهور (٦٣٨) وابن جابر الرياضي المشهور والوزير ابن الحاج (٧١٤) كان من العارفين بالحيل الهندسية بصيراً باتخاذ الآلة الحربية الجافية والعمل بها انتقل الى فاس واتخذ الدولاب المنفسح القطر البعيد المدى ، والمحيط المتعدد الاكواب الخفى الحركة ، ومنهم ابن خاتمة الاديب الطبيب من أهل المئة الثامنة الذى كتب فى الوباء [1] كتابا عرف فيه الميكروب والجراثيم وأثبت العدوى بما لا يقل عن عالم من علماء هذا العصر ، وفيه يقول ابن

---

(١) المقتطف م ٢٨ ص ٣٠٤

الخطيب انه حسنة من حسنات الاندلس ، ومن رجالات الاندلس وأعلامها ابن طملس الوزير ، كان كاتبا مهندسا الى من ضارعهم فى علمهم من الاطباء والفلاسفة والحكماء والكيماويين ممن لا يعدهم أناس من المؤرخين فى صف العلماء جهلا وتعنتا .

هذا فى العلوم الطبية والطبيعية والفلسفية والفلكية والرياضية وقد نبغ فى الاندلسيين من العلماء فى التاريخ والجغرافيا والادب والرحلات أفرادما برحت كتاباتهم مرجعا الى اليوم لكل عالم ومؤلف .

وقد أشبهوا علماء الغرب لهذا العهد فى العناية بالعلوم المادية وبرزوا فيها حتى نشأ لهم أئمة عظماء على ماراأيت سابقاً وألفوا فيها فاحسنوا احسانهم فى صنائع لايحسنها الا صنع الايدى دقاق النظر وكثيراً ما كانوا يبسطون المسائل ويتوسعون فى تحقيقها ومنهم من يؤلف العشرة والعشرين مجلداً فى علم واحد كما فعل أبو حيان مؤرخ الأندلس فالف كتابه فى ستين مجلدا وألف أحمد بن أبان صاحب شرطة قرطبة كتاب السماء والعالم فى مئة مجلد وموضوعه اللغة جعله على الاجناس فى غاية الايعاب بدأ بالفلك وختم بالذرة . وكثر فيهم المكثرون من التآليف المجودون فيها ومنهم من كان له مئة تأليف جيد . وقالوا ان تآليف ابن حزم بلغت نحو أربعمائة مجلد وتواليف عالم الاندلس عبد الملك بن حبيب السلمى بلغت ألفاً .

ومن مشاهيرهم ابن جبير الكنانى (٦١٤) الذى رحل الى المشرق كما رحل كثير من علماء الاندلس قبله الى مصر والشام والعراق والحجاز وغيرها فى طلب العلم وأخذ الحكمة ثم عادوا الى بلادهم وكتب رحلته المشهورة البديعة .

واشتهر فى الجغرافيا أبو عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٨٧ ه صاحب كتاب معجم ماستعجم والمسالك والممالك ومحمد بن أبى بكر الزهرى الغرناطي من أهل المئة السادسة والشريف الادريسى صاحب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ويقال له كتاب رجار وذلك لانه صنفه باسم رجار الثاني صاحب صقلية وجنوبي ايطاليا سنة ٥٤٨ وغيرهم .

ومن مؤرخيهم الحميدي وابن حيان وابن خلدون وابن الفرضى وابن بسام وابن بشكوال وابن الابار وابن سعيد وابن الخطيب ومن أدبائهم المشهورين ابن جزى وابن هانى وابن سهل الاسرائيلى ويحيى القرطبي وابن رزين وابن عمار وابن لبون والباجى وابن الدباغ وابن الجد وابن القبطرنة وابن عبد البر وابن السيد وابن عصام وابن عطية وابن خفاجة وابن وهبون وابن اللبانة وابن الصائغ وابن سارة الشنتريني وعبادة وابن وهبون وابن خروف وابن خاقان والمصحفى والاشجعى وابن جهور وابن سلمة واللمانى وابن برد وابن أبى أمية ومنذر بن سعيد والزبيدى وابن القوطية وابن العربى (أبو بكر) وابن الأعلم والرمادي ومن أديباتهم حفصة بنت الحاج الركونى وعائشة بنت قادم وفاطمة الشيلارى وولادة بنت المستكفى بالله ومريم الفيصولى (الفصولى) وصفية بنت عبد الله التربي والغسانية والبلشية والوادى آشية ولبنى كاتبة الحكم بن عبد الرحمن ومزنة كاتبة الأمير الناصر لدين الله وغالية المعلمة وريحانة المقرئة وفاطمة المغامى ، وقمر البغدادية وحسانة التيمية وأم العلا بنت يوسف الحجازية وأمة العزيز الشريفة الحسينية وأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح المرية ، والعروضية مولاة أبى المطرف عبدالرحمن بن غلبون واعتماد جارية المعتمد المشهورة بالرميكية والعبادية جارية المعتضد وبثينة بنت المعتمد بن عباد ، وحفصة بنت حمدون ، وزينب المرية ، وغاية المنى ، وعائشة القرطبية ، وأسماء العامرية ، وأم الهناء بنت القاضى عبد الحق ، ومهجة القرطبية ، وهند جارية عبد الله بن مسلمة الشاطبي الشلبية ، وحمدة بنت زياد المكتب وأختها زينب ، قال ابن سعيد انهما شاعرتان أديبتان من أهل الجمال والمال والمعارف والصون الا أن حب الادب كان يحملهما على مخالطة أهله مع صيانة مشهورة ونزاهة موثوق بها ، وسعدونة وغيرهن

هذه حالة العلوم فى تلك المملكة التى بادت وباد سلطانها ، وقد رأيت كيف كثر المهندسون فى بلنسية وغرناطة وقرطبة واشبيلية وغيرها من حواضر الاندلس وبأعمال هؤلاء الاعلام زخر بحر العمران ، وقامت مدنية العرب على أمتن بنيان حتى دهش بها ابن القرن العشرين العلامة روزيه السويسرى على ما تقدم بك آنفاً .

تفنن عرب الاندلس

٩٧

لم تقف همة الاندلسيين عند حد الابداع في هندسة الدور والمصانع وعمل النقش والتزويق وتنجيد البناء والزخرف فيه وبناء الجسور وتعبيد الطرق وانشاء السكور والسدود ، فان هذه الاعمال في العمران كانت نتائج لازمة للثروة العظيمة التى فاضت عليهم من زراعاتهم وصناعاتهم ومتاجرهم ، فقد تفننوا أنواع التفنن في الزراعة ، ونقلوا الى الاندلس من الشام أنواعا من الاشجار والازهار والغراس والبقول لم يكن لاسبانيا عهدبها ومنها انتقلت الىأوربا الغربية ، ومن جملة ما أدخلوه من أنواع الشجر والنبات الفستق والموز والنخيل والارز والقطن والتوت وقصب السكر والزعفران والمليون وزهر الكاميليا الحمراء والبيضاء والورد اليابانى وغير ذلك . وتمننوا في هذا تفنن الغربيين لعهدنا بزروعهم وورودهم وثمارهم وبقولهم حتى كانت الاندلس المعتدلة الاقاليم ، الحسنة المناخ ، تعطى ثلاثة مواسم في السنة لحسن استثمارها ، فتدر على أهلها اخلاف الرزق والغنى سواء في العناية عندهم الاعذاء أي الاراضى التى تسقى بالامطار أو التى تسقى سيحاً أى بماء الانهار ، ذلك لانهم حفروا آباراً . وأسالوا المياه من القاصية ، وعمروا خزانات وسدوداً .

وكان لهم بصر بالصنائع حملوا معهم من الشام أيضاً صناعة صقل السيوف وهى الصناعة التى نسبت الى دمشق حتى اليوم فقيل لها بالافرنجية Damasquinage أو Damasquinerie أو Damasquinure أى تنزيل الذهب والفضة في الفولاذ وقد اشتق منه الفعل عندهم Damasquiner كما نقلوا صنعة الأقمشة من الحرير والكتان مزينة بالرسوم من دمشق أيضاً فنسبت اليها عندهم وقالوا في فعلها Damasser أي عمل ثياباً على النمط الدمشقى .

واختصت قرطبة بدبغ الأديم أى الجلود واشبيلية بالحرير (كان فيها سنة ١٥١٥ ستة عشر ألف نول يعمل فيها ١٣٠ ألفاً من العملة فأصبح عددها سنة ١٦٧٣ أربعمائة نول فقط وذلك بعد جلاء العرب والاسرائيليين) وكان بمالقة يعمل الزجاج كما « يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب منها الى أقاصى البلاد » والى اليوم ينسبون هذا الصنف الى مالقة فيقولون في بلاد الشام المالقى للصحاف والاوانى المعروفة . واشتهرت المرية بعمل الوشى والديباج والجوخ (كان فيها ٦٠٠٠ نول للاجواخ) و « لكورة باجة خاصية فى دباغة الأديم وصناعة الكتان » وكان فى المرية « لنسج طرز الحرير ثمانمائة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول وللاسقلاطون [1] كذلك وللثياب الجرجانية كذلك وللاصفهانية مثل ذلك وللعنابى والمعاجر [2] المدهشة والستور المكللة ويصنع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج مالا يوصف »

وكان الديباج والوشى يعمل أولا فى قرطبة ثم غلبت عليها المرية فلم يتفق فى الاندلس من يجيد عمل الديباج اجادة أهل المرية . وانفردت سرقسطة بصنعة السمور ولطف تدبيره وهى الثياب الرقيقة المعروفة بالسرقسطية خصوصية لاهل هذا الصقع « وفى جميع نواحيها يعمل الكتان والحرير الفائق » وكان فى جيان ٦٠٠ نول للحرير ويعمل السجاد فى رية والسلاح والحلى فى قرطبة ومرسية وطليطلة وسرقسطة . وأخذت شاطبة تصدر الورق بكثرة منذ سنة ١٠٠٩ قال ياقوت وفى شاطبة يعمل الكاغد الجيد ويحمل منها الى سائر بلاد الاندلس وبالجملة فلاهل هذه الديار « خصائص كثيرة ومحاسن لاتحصى واتقان لجميع مايصنعون » قال ميجون : كانت فى الاندلس عدة معامل مشهورة لصنع الفسيفساء ويسمونه المفصص ونقلت صناعة الفسيفساء عن الرومان

(١) بلد بالروم تنسب اليه الثياب السقلاطونية وقد تسمى الثياب بنفسها سقلاطوناً قال فى التاج هي كلمة رومية (٢) المعجر ثوب يمنى يلتحف به ويرتدى والجمع المعاجر

وهكذا رسخت الصنائع فى امصار الاندلس ، برسوخ الحضارة وطول أمدها قال ابن خلدون : فانا نجد فى الاندلس رسوم الصنائع قائمة ، وأحوالها مستحكمة راسخة فى جميع ماتدعو اليه عوائد أمصارها ، كالمبانى والطبخ ، وأصناف الغناء واللهو ، من الآلات والاوتار والرقص ، وتنضيد الفرش فى القصور ، وحسن الترتيب والأوضاع فى البناء وصوغ الآنية من المعادن والخزف ، وجمع المواعين واقامة الولائم والاعراس ، وسائر الصنائع التى يدعو اليها الترف وعوائده ، فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها ، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم ، فهم على حصة موفورة من ذلك ، وحظ متميز بين جميع الامصار . »

وذكر سيديليو ان العرب من حيث الاخلاق والعلم والصناعة كانوا أرقى بكثير من الاسبان وهم أمتن أخلاقاً وطبائع ، وفيهم الكرم والاخلاص ، والاحسان الذى لم يكن عند عداتهم كما ان فيهم عزة النفس التى امتازوا بها فى كل زمن ، وكان الافراط المضر فيها داعياً الى احداث البراز . وساعد على عظمة العرب فى اسبانيا انتشار الآداب والعلوم والفنون على عهدهم انتشاراً كثيراً وكذلك الزراعة والصناعة وعم الذوق فى اللذائذ العقلية جميع طبقات المجتمع . والشعر يرقي النفوس . وغدت المنافسة الشريفة على أتمها فى الافكار - وكانوا يكتبون على جميع المصانع اسم من أمر ببنائها ، واسم بانيها ، والأمة تمدح المحسن بها ، والمحسن لبنائها ، وارتقت عندهم الهندسة والموسيقى والرقص الى درجة ذات بال ، ولا يزال الى اليوم فى الغرب يدرس أسلوب بنائهم ، ويعجب بما نقشوه فيها من النقوش ، وكان لدولة الموحدين فى الاندلس ذوق خاص فى البناء انشاؤا الجوامع والمآذن والاماكن العامة والمستشفيات والرباطات ، فى كل بلد من بلادهم وأقاموا الطرق والجسور والسدود وحفروا الآبار وأجروا الانهار اه .

ولقد كانوا يستخرجون من مناجمهم الزئبق والتوتيا والحديد والرصاص والفضة والذهب ويستقطرون السكر ويعملون اللبود « المشهورة فى جميع الارض بالجودة والصبغ الحسن . ولهم من الالوان والاصباغ والحشائش التى يلون بها

الحرير وأنواع الصوف والثياب ماليس في بلد من بلدان الارض له نظير حسناً وكثرة . » ويحملون حاصلاتهـم ومصنوعاتهـم الى أقطار المملكة العربية بل الى أقاصي البلاد الشرقية والغربية فى البحار على سفن الاندلسيين التجارية وكان لهم منها أساطيل فى كل فرضة من فرضهم تقلع على الدوام من موانى الاندلس لتحمل الى شواطيء أفريقية وآسيا وأوربا مايروج فيها من سلعهم ومعادنهـم وثمارهم وحبوبهم .

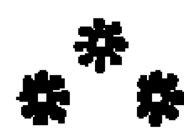
قال كاباتون : كانت مدنية العرب فى اسبانيا ظاهرة فى الامور المادية وذلك بما استعملوه من الوسائط الزراعيـة لاخصاب الاراضى البائرة فى الاندلس من الاساليب العلمية التى اتخذوها لريها وهى أساليب ان لم تكن من اختراع العرب فهم الذين أكملوا نواقصها وأحسنوا استخدامها كما أنهم أسسوا معامل للحرير والجلود والبلور وغزل الصوف والقطن والكتان والقصب وأقاموا مالا يحصي من المعاهد العامة وفيها مايستدعى اعجاب الامم بأسرها حتى بعد ثمانية قرون من انشائه اهـ .

وقال أحد علماء الفرنجة : كان فى الاندلس على عهد الحضارة العربية أربعون مليون نسمة من أرباب الصنائع والعمل (سكان اسبانيا اليوم نحو ٢١ مليوناً وسكان البرتقال ٦ ملايين) وعلى ذلك العهد قامت فيها المدن المهمة التى يعجب الناس الى اليوم بخرائبها وعلى ذاك العهد كانت الزراعة ناجحة وبفضل هندسة العرب كانت المياه تجرى الى كل مكان فى بسائطها فتحمل الخصب والامراع . وقال آخر : ان عهد استيلاء العرب على اسبانيا كان أسعد أيامها لنجاح زراعتها بما قام فيها من أعمال السقيا وبفضل غراسهم وزروعهـم وحسن استثمارهم لمعادن الارض ومناجمها ولما اغتنت البلاد كثر فيها سكان الدساكر والقرى كما كثر سكان المدن الكبرى .

***

ولا عجب — وحال البلاد من ارتقاء الصنائع والزراعة وتعدين المناجم واتساع

التجارة قد بلغ هذا الحد — ان كانت جباياتها من حقوقها وغير واجبها الى سنة ٣٤٠ هـ نحو عشرين ألف ألف دينار قال ابن حوقل : ولست أشك على مايوجبه النظر وتواطأ به الخبر فيما جمعه الحكم بعد هلاك أبيه من خدمه والمصادرين الذين كانوا فى جملته عن أسباب الاندلس ولوازمها وجباياتها وخراجها واعشارها وصدقاتها وجواليها تمام أربعين ألف ألف دينار وبلغ خراج الاندلس على عهد عبد الرحمن الثالث عدا ما كانت دولته تستوفيه عيناً ٦،٢٤٥،٠٠٠ دينار . وحكى ابن خلدون عن الثقات من مؤرخى الاندلس : ان عبد الرحمن الناصر خلف فى بيوت أمواله خمسة آلاف ألف ألف ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملتها بالقناطير خمسمائة الف قنطار وكان هذا الملك يقسم الجبايه اثلاثاً ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر وكانت جباية الاندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف الف واربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ومن الستوق (1) والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان . وانتهت جباية قرطبة أيام ابن أبي عامر الى ثلاثة آلاف الف دينار بالانصاف .



كان للاندلسيين حذق باستخراج العلوم واستنباطها من ذلك ان عباس بن فرناس حكيم الاندلس صنع فى بيته هيئة السماء وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود وهو الذى استنبط بالاندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأول من فك الموسيقى وصنع الآلة المعروفه بالمثقال (؟) ليعرف الاوقات على غير مثال واحتال فى تطيير جثمانه وكسا نفسه الريش ومد له جناحين وطار فى الجو مسافة بعيدة ثم سقط . فهو أول من حاول الطيران من بنى الانسان

وكان أهل قرطبة أول من عنى بتبليط المدن وكذلك انارة الطرق فى الليل عرفت لاول مرة فى قرطبة أيضاً ولما ارتقت العلوم على عهد بنى الاحمر فى غرناطة اكتشفوا بل اخترعوا بارود المدافع وعرف منذ ذاك العهد ولا تزال مدافعهم

(١) الستوق الزيف البهرج الملبس بالفضة

التى دافعوا بها عن غرناطة محفوظة الى اليوم فى أحد متاحف اسبانيا .

وفى الاندلس عرف الطبع فكان أحد أبنائها هو السابق فى مضمار هذا الاختراع الذى لم تنتفع الانسانية بأفيد منه . فكانت لهم فيه طريقة لم ينته الينا خبرها بالتفصيل بل عرف اجمالا ان عبد الرحمن بن بدر من وزراء الناصر من أهل المئة الرابعة «كان ينفرد بالولايات فتكتب السجلات فى داره ثم يبعثها للطبع فتطبع وتخرج اليه فتبعث في العمال وينفذون على يديه» فاذا كان هذا هو الطبع المعروف وما نظنه الا هو فيكون ابن بدر العربى قد سبق غوتمبرغ الالمانى مخترع الطباعة بنحو أربعة قرون .

وذكروا أن ملوك غرناطة فرضوا جوائز للمخترعين لينشطوهم ويلقوا المنافسة بينهم وربما ميزوهم بامتيازات خاصة على نحو مافعل لويز الرابع عشر وكولبر فى فرنسا . وعنى الاندلسيون بتأليف رسائل يفهمها كل انسان تكون معوانا على الانتفاع بالاعمال العامة وهم انشأوا دساتير سهلة التناول يتدارسها الصناع والعملة فتفيدهم فيما هم بسبيله .

واخترع الاندلسيون الخطوط المخصوصة بهم كما اخترعوا الموشحات التى استحسنها أهل المشرق وصاروا ينزعون منزعها وكانت طبقاتهم فى نظمهم ونثرهم لاتخفى على بصير ولم يكن يخلو بلد من كاتب بليغ وشاعر مفلق بل «كان من مدنهم مثل شلب قل ان ترى من أهلها من لايقول شعراً ولا يعاني الأدب ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأى معنى طلبته منه» وخص أهل وادى آش بالادب وحب الشعر . وعلل ذلك أحد العارفين بقوله أن أهل الاندلس أشعر الناس لما أكثر الله تعالى فى بلادهم وجعله نصب أعينهم من الأشجار والانهار والطيور والكؤوس لاينازعهم أحد فى هذا الشأن .

وكانت للاندلسيين عناية بنقد الشعر لا يجوز عليهم ساقطه ونبغ كثيرون منهم فى هـذا المعنى والفوا فيه التآليف الممتعة وكانت لهم مدارس لتعليم

القرآن والكتابة والحساب وتعلم العلوم على اختلاف ضروبها فى الجوامع من غير نكير يعلمون الفلك والجغرافيا واللغة والطب والنحو ومبادىء الطبيعة والكيمياء والمواليد الثلاثة ذكروا أنه كان فى قرطبة ثمانون مدرسة عامة وسكانها مليون نسمة وان الموحدين انشأوا فى الاندلس مدارس عامة ومدارس عليا وأغدقوا احسانهم على العلماء يريدون أن يعيدوا الى الاندلس بهاءها على عهد الامويين وان الحكم انشأ فى قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة اتخذ لها المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن وأجرى عليهم المرتبات وعهد اليهم فى الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم وفى ذلك يقول بن شخيص :

وساحة المسجد الاعلى مكللة ... مكاتب لليتامى من نواحيها
لومكنت سور القرآن من كلم ... نادتك ياخير تاليها وواعيها

واحدث رضوان النصرى (٧٦٠) المدرسة بغرناطة ولم تكن بها وكانوا كما قال ابن سعيد يقرأون فى جميع العلوم فى المساجد باجرة فهم يقرأون لان يعلموا لا لان يأخذوا جارياً فالعالم منهم بارع لانه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على ذلك أن يترك الشغل الذى يستفيد منه وينفق من عنده حتى يعلم .

وكثيراً ما كان ملوك الاندلس يقترحون على الناس حفظ الكتاب الفلانى من كتب الادب والعلم ومن حفظه فله كذا دينار فما هو الا أن يحفظه مئات طمعاً فى الجائزة وعم التلذذ بالادب جميع طبقات المجتمع عندهم . وكثير من الشعراء كانوا ينتجعون بشعرهم الملوك والامراء يمدحونهم فيصلونهم ويؤونهم زمناً على نحو ما كانت الحال فى القرون الوسطى فى المتشاعرين المتغنين بالشعر المتكففين به فى بلاد الافرنج ويسمونهم بالافرنسية التروبادور والتروفير [1]
Les Troubadours et les Trouveres

---

(١) التروبادور شعراء كانوا يقولون الشعر باللغة الافرنسية القديمة فى القرن الحادى عشر الى

***

وكان تعليم البنات شائعاً عندهم وكثير منهن يحفظن بضعة دواوين من دواوين العرب وينظمن ويترسلن كالاوربيات اليوم واذا عرفت ان المدارس كانت مبذولة فى المدن والقرى فلا تستغرب بعد ذلك ان قال أحد مؤرخي الافرنج ان سكان اسبانيا الاسلامية الا قليلا كانوا يقرأون ويكتبون على حين كان اهل الطبقة العليا فى أوربا المسيحية أميين لايقرأون ماعدا أفراداً قلائل من الشمامسة جعلوا الكتابة من شأنهم .

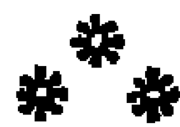
وكان للاندلسيين غرام بتسبيل الكتب على المطالعة ولهم خزائن كتب عامة وخاصة وكانت قرطبة أكثر بلاد الاندلس كتباً وأهلها أشدالناس اعتناء بخزائن الكتب صار ذلك عندهم من آلات التعين والرئاسة فلا يكاد يخلو دار من خزانة فيها كتب قيمة . وقد انشأ الحكم الثانى عدة مكاتب للمطالعين فكان يرسل وكلاءه الى المشرق يستنسخون الاسفار فما هو الا أن يؤلف المؤلف تصنيفه حتى تستنسخ منه نسخة أو نسخ لتحمل الى خليفة الاندلس ولا يفوت بلاده شيء من حركة العقول وكانت دار كتبه تحتوي على أربعمائة الف مجلد جاء فهرسها فى أربعة وأربعين مجلداً ولطالما أجزل ملوك الاندلس الصلات لبعض مؤلفى الشرق والاندلس حتى يذكروا فى مقدمتها أنهم الفوها برسم خزائنهم ومن المؤلفين من كانوا يرضون بذلك ومنهم من لايرضون به يقصدون أن يكون لمن يستفيد منه

وكان للعلماء والمؤرخين والشعراء والادباء فى الاندلس مجامع علمية وأدبية أشبه بالمجامع أو الاكاديميات فى هذا العصر وذلك لنشر العلم والمعارف ومفاوضة الحكمة بينهم فنتج من اجتماعهم فوائد مهمة للعلم والمدنية . وكان المظفر بن

القرن الخامس عشر والتروفيرشعراء بلغة وال من القرن الحادى عشر الى القرن الخامس عشر كانوا يختلفون الى الملوك والعظماء ينشدون الاشعار ويضربون على الاوتار وربما أقاموا في قصورهم مدة ثم ينتقلون .

الافطس صاحب بطليوس من أعلم الملوك بالادب وله التصنيف المترجم بالتذكرة والمشهور بالكتاب المظفرى فى خمسين مجلداً فى الفنون والعلوم واستأدب لبنيه أبا عبد الله بن يونس وكان يحضره وأبا الحزم بن عليم وأمثالهما للمذاكرة والمباحثة فيفيد ويستفيد وكان لأبى عامر أمير الاندلس فى دولة هشام المؤيد مجلس معروف فى الاسبوع يجتمع فيه أهل العلوم للكلام فيها بحضرته .

وقد انشأ الحكم مجمعاً فى قصر مروان وقلده غيره من أمراء الاندلس فأنشأوا مجامع لهم . وانشأ احمد بن سعيد النصرى مجمعاً فى طليلة فكان يجتمع عنده أربعون عالماً من طليطلة والبلاد المجاورة ثلاثة أشهر فى السنة أى فى شهر تشرين الثاني وكانون الاول وكانون الثاني يعقدون اجتماعاتهم فى ردهة فرشت أحسن فرش فيبدأون عملهم بتلاوة آيات من الكتاب العزيز ثم يتذاكرون فى تفسير ما قرأوا ويأخذ بهم الاستطراد الى البحث فى فنون شتى من العلم والحكمة .



وكان أمير المسلمين على بن تاشفين لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء[1] فكان اذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد اليه أن لا يقطع أمراً ولا يبت حكومة فى صغير من الامور ولا كبير الا بمحضر أربعة من الفقهاء فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغاً عظيما لم يبلغوا مثله فى الصدر الاول من فتح الاندلس . وأمير المسلمين هذا هو الذى اجتمع له ولابيه من أعيان الكتاب وفرسان

---

(١) كان للقضاة فى الاندلس مشاورون حتى لا يصدروا الا عن آراء ناضجة واليك مثالا من تقليدهم : « هذا كتاب تنويه وترفيع ، وانهاض الي مرقي رفيع ، أمر بكتبه الامير الناصر للدين أبو جعفر بن أبى جعفر أدام الله تأييده ونصره ، للوزير الفقيه الاحل المشاور الحسيب الاكمل أبى بكر بن أبى جمرة ادام الله عزه انهضه به الى الشورى ليكون عند ما يقطع بامر ، أو يحكم فى نازلة ، يجرى الحكم بها على ما يصدر عن مشورته ومذهبه ، لما علمه من فضله وذكائه وجده فى اكتساب العلم واقتنائه ، ولكون هذه المرتبة ليست طريفة له بل تليدة ، متوارثة عن اسلافه الكريمة وآبائه ، فيلتحملها تحمل المستقل بأعبائها ، اللاحق بأنبائها ، العالم بمقاصدها المتوخات المعتمدة وانحائها ، والله يزيده تنويها وترفيعاً ويبوءه من حظوته وتمجيده مكانا رفيعا ، وكتب في التاسع لذي حجة ٥٣٩ الثقة بالله عز وجل اه .

البلاغة مالم يتفق اجتماعه فى عصر من الاعصار فانقطع اليهما من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى اشبهت حضرتها حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم وكانت أيام بنى المظفر بغرب الاندلس أعياداً ومواسم وكانوا ملجأً لاهل الآداب خلدت فيهم ولهم قصائد أشادت مآثرهم ، وابقت على غابر الدهر حمد ذكرهم .

كان أهل دانية اقرأ أهل الاندلس لان مجاهداً العامرى كان يستجلب القراء ويفضل عليهم وينفق الاموال فكانوا يقصدونه ويقيمون عنده فكثروا فى بلاده قلنا واذا كان عرض للاندلس فى بعض أدوارها مافرق جامعتها السياسية فاستفادمن ذلك أعداؤها فقد كان لتفريقهم الى ممالك صغرى داعياً الى التنافس أحياناً حتى صار لكل اقليم مزية ليست لغيره ، واختص كل ملك بشىء فاتخذ أسباب النجاح فيه ، واستدعى أهل الاخصاء من رجاله .

ومن لطيف تدبيرهم فى الانفاق على الجند دون تحميل الامة أعباءه وهو تحت السلاح ما عمله ابن جهور رئيس قرطبة من جعل أهل الاسواق جنداً وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم محصاة عليهم يأخذون ربحها فقط ورؤوس الاموال باقية محفوظة يؤخذون بها ويراعون فى الوقت بعد الوقت كيف حفظهم لها وفرق السلاح عليهم وأمرهم بتفريقه فى الدكاكين وفى البيوت حتى اذا دهم أمر فى ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه .

ومن أجمل أعمالهم فى اقامة قسطاس العدل ان هشام بن عبد الرحمن الداخل كان يبعث الى الكور قوماً عدولاً يسألون الناس عن سير العمال ثم ينصرفون اليه بما عندهم . واعترض له يوماً متظلم من أحد عماله فبدر الى الشاكى وقال له : احلف على كل ماظلمك فيه فان كان ضربك فاضربه أو هتك لك ستراً فاهتك ستره أو أخذ لك مالا فخذ من ماله مثله الا أن يكون أصاب منك حداً من حدود الله فجعل الرجل لايحلف على شىء الا أقيد منه .

ولقد بنى الخليفة عبد الله بن محمد الساباط بين القصر والجامع بمدينة قرطبة

وكان يقف فيه قبل صلاة الجمعة وبعدها فيرى الناس ويشرف على اجتهادهم وحركاتهم ويسير بجماعاتهم ويسمع قول المتظلم ولا يخفى عليه شيء من أمور الناس وكان يقعد أيضاً على الابواب فى أيام معلومة فترفع اليه فيه الظلامات وتصل اليه الكتب على باب حديد قد صنع مشرحباً مستطيلا لذلك فلا يتعذر على ضعيف ايصال بطاقته بيده ولا انهاء مظلمة على لسانه وفتح باباً في قصره سماه باب العدل وكان يقعد فيه للناس يوماً معلوماً فى الجمعة ليباشر أحوال الناس بنفسه ولا يجعل بينه وبين المظلوم ستراً . فكانت سيرة عمالهم مع الرعايا ان يتحفظوا من كل أمر يوجب الشكوى منهم وينقبضون عن التحامل على من دونهم .

وهكذا فانه لا يكاد يخطر ببالك شيء من أدوات الحضارة ومقومات العمران وأساليب العلم والمعرفة الا قام به أو ببعضه ملوك الاندلس وأهلها حتى التماثيل فانها كانت تجعل فى قصور العظماء والصور تزين بها غرفهم وردهاتهم لذلك أبقوا على أكثر ما كان فى البلاد قبل الفتح من التماثيل للاعتبار بها خصوصاً بعد ان انغمسوا فى الحضارة قال أبو عامر البريانى فى الصنم الذى بشاطبة :

بقية من بقايا الروم معجبة — أبدى البناة بها من علمهم حكما
لم أدر ما أضمروا فيه سوى أمم — تتابعت بعد سموه لنا صنما
كالمبرد الفرد ما أخطا مشبهه — حقاً لقد برد الايام والامما
كأنه واعظ طال الوقوف به — مما يحدث عن عاد وعن إرما
فانظر الى حجر صلد يكلمنا — أشجى وأوعظ من قس لمن فهما

وقد أقاموا حدائق للحيوانات والنباتات وعنوا حتى بصراع الثيران فضارعوا الاسبانيين وربما فاقوهم وأولعوا بالرقص ولهم منه أنواع وكذلك آلات الطرب كالخيال (١) والكرج والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس والكثيرة

---

(١) الخيال هو الذى يسمى خيال الظل أو الخيال الراقص أو خيال جعفر الراقص وجعفر اسم مخترعه يسميه العامة كركوز «قره كوز» وبالفرنسية Marionnette, polichinelle والكرج تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة باطراف اقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيول فيكررن

والقيثار والزلامى والشقرة والنورة والبوق وكان فى مدينة آبدة من أصناف الملاهى والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ماتظنهن فيه احذق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والدكر واخراج القرى والمربط والفتوخة

أما الموسيقى فقد كان زرياب أدخلها الاندلس فكان يجرى عندهم مجرى الموصلى فى الغناء وله طريق أخذت عنه وأصوات استفيدت منه وعلا عند الملوك وأحسنوا اليه حتى كادوا يفرطون وشهر شهرة ضرب بها المثل . ولا عجب اذا قلنا ان تفرق الاندلس اصقاعاً وممالك كان أشبه بتفريق المانيا وايطاليا قبل وحدتهما الى أمارات صغيرة تتنافس فى مضمار العلم والصنائع والعمران .

مدينة مجريط

٩٨

سار بنا القطار من باريز الى جنوبي فرنسا ماراً بأراض عامرة بزراعتها دالة على سلامة ذوق أهلها وتفننهم فى ضروب الحياة المادية والأدبية ولما اجتزنا جبال البيرنات « جبل الثنايا » دخلنا ليلا محطة إرون الاسبانية قاصدين الى

ويفررن ويثاقفن وهى من آلات الرقص وتسمى بالفرنسبة Carrousel, chevaux de bois والروطة ضرب من الرباب معربة عن الاندلسية Rotta أو Rote, وبالافرنسية rotte أو Rote, والمؤنس قربة يركب فيها مزمار ولعلها من اصل اسبانى يقالها بالفرنسية Musette أو Cornemuse والكثيرة ضرب من السنطور تنقر أوتارها بالاصابع Cithare والقثار Guitare آلة ذات ستة أوتار ولها يد مقسومه الى انصاف الحان يركب عليه دساتين والزلامى نوع من المزمار هو تصحيف الزنامى نسبة الى زنام مستنبط الناى وكان زنام زماراً مشهوراً عند هرون الرشيد يضرب به المثل فى حسن صناعته . والشقرة والنورة مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه والعود معروف وبالفرنسية Luth والرباب معروف وبالفرنسية Rebec والقانون مشهور وبالفرنسية Harpe والبوق معروف . والدكر نوع من الرقص أو اللعب يعرفه الزنج والحبش وبالفرنسية Kalenda والقرى نوع من لعب المشعوذين والفتوخة جمع فتخة وهى خاتم كبير وهى لعبة الخاتم «من مقالة للعلامة الاب انستاس مارى الكرملى : المقتبس م ١ ص ٤٣٥»

مجريط عاصمة اسبانيا الحديثة كثرت لواعج الاشواق الى الصقع الاندلسي واشتدت تباريح الذكرى

وأكثر مايكون الشوق يوماً اذا دنت الخيام من الخيام

تمثلت للعين تلك الأمة العربية الغربية ، وما أثلته من الأمجاد فى هذه البلاد ، وظهرت فيه من مظاهر الحياة الراقية ، تذكرت جيلا عظيما ، لم يبق سوى التحدث بطيب أخباره . والتطلع الى جميل آثاره ، ذكرت عشرات الألوف من العظماء ضمت الاندلس أعظمهم ، وكان كل واحد أمة برأسه ومنهم من لم ينبغ أمثال لهم فى أمة فى القرون المتواصلة وودت لو أمكن العمل بحكمة المعرى حين قال :

خفف الوطء ما اظن أديم الا رض الا من هذه الأجساد

وحرام بنا وان قدم العهـ ـد هوان الآباء والأجداد

مدينة مجريط أو مدريد هى عاصمة اسبانيا منذ سنة ١٥٦٠ وسكانها اليوم يقربون من سبعمائة ألف وهى العاصمة التى اختارها فيليب الثانى لتوسطها من البلاد وكانت على عهد العرب حصناً أو بليدة ولم ترزقها الطبيعة نهراً كبيراً ولا ضاحية بديعة مشجرة مثمرة بل كان قديماً فى أرباضها بعض الغابات فخطمت ولم يبق منها الا القليل . على أن فيها اليوم مافى جميع عواصم الغرب من المرافق والمصانع . زرت بعضها وهى لاتختلف عن مصانع الأمم اللاتينية الا قليلا بل هى أقل عظمة من مصانع ايطاليا وفرنسا وليس فى مجريط أثر يعتد به من آثار العرب ، وأما آثار الاسبانيين الحديثة فليست مما يعجب به كثيراً لأنها حديثة عهد على الأغلب وتكاد تكون الصبغة الدينية متجلية فى كل مصنع من مصانعهم.

وأكثر أحياء المدينة صيقة وبيوتها مزدحمة كسائر المدن المنحطة فى أوربا الا ان بعض الأحياء والدور المستحدثه هى على الطراز الغربى الجديد ولها حدائق وساحات على جانب من السعة مستوفاة شروط الصحة . وقد أنشئت فى زمن الحرب العامة فى مجريط وغيرها من مدن اسبانيا بيوت أقامها أغنياء الحرب أى الذين اتجروا فيها وربحوا وربحت بهم اسبانيا لحيادها وقد أحسنت لنفسها بالتزامها

خطة المسالمة ومن هذه البيوت مايقتضى ألوفاً من الليرات . فلما اشتدت الازمه على أوربا عامة لحق اسبانيا من أثرها شيء بالطبع فوقف العمل فى بعض تلك البنايات وكذلك كثير من المشاريع والمعامل التى أحدثوها مغتنمين فرصة تقاتل جيرانهم

في مجريط تسعون كنيسة من الكنائس التى لاشأن لها في نظر التاريخ وعلم العاديات . وليس لها مقام رفيع فى باب البناء الحسن . والمصانع التى من هذا القبيل ليست بالكثيرة العدد وقد قام القصر الملكى اليوم محل القصر العربى وكان هنرى الرابع جعل هذا القصر محلا للصيد . وفى متحفهاالوطنى بعض آثار العرب التى أفلتت من أيدى الذين زهدوا فيها بصنع المتعصبين من رجال الدين وخربوها وأتلفوها . أما تاريخ هذا الحصن العربي أى مجريط فليس بعظيم وخلاصته أنه أخذ من العرب ثم استعادوه الى أن استولى الاسبان على طليطلة سنة ١٠٨٦ م فأصبحت مجريط يومئذ اسبانية وقد زادت مكانة مجريط فكبرت رقعتها فى الجزء الثاني من القرن التاسع عشر وذلك لاتصالها بالخطوط الحديدية مع الولايات ومع فرنسا والبرتقال وقد أنشىء فيها في العهد الأخير تراموای كهربائي Metropolitain تحت الأرض على مثال تراموای باريز ولندرا وبرلين ونيويورك .

دير الاسكوريال

٩٩

أهم مافى صاحية مجريط دير الاسكوريال على أحد وخمسين كيلو متراً منها بناه فيليب الثانى ونجزت عمارته سنة ١٥٨٤ وعمر فيه حفيده فيليب الرابع البانتيون مدفن العظماء من الآل الملوكى وقيل انه أنفق على الدير خمسة عشر مليوناً ونصف

مليون من البستاس أى الفرنك الاسبانى .

والاسكوريال كما قال عنه واصفوه من الافرنج مثال مما تعمله الارادة ومما لا تعمله فقد قيل ان الارادة قادرة فى بعض الاحوال وعاجزة عن إيجاد عمل واحد يدل على نبوغ وعبقرية وهذه الشعلة الالهية قد نقصت فى عمل باني الدير : فمن انه نشأ فى عهد لم يشتهر بقوة الايجاد ولا بسلامة الذوق فجاء بناؤه جافاً رغم ما تعاوره من أيدى المهندسين لم ينم عن لطف ولا حوى أسباب الجمال . وغلب على البناء تصنع الملك فيليب في مظاهر أبهته وعظمته ولطالما ضيق صدور أسرته وحاشيته منه فى هذا الشأن فلم يكن لهم هم الا أن يدهنوه وكان من طبعه أن يتدخل فيما لا يعلم حتى أفسد على المهندسين عملهم أو كاد وجاء العمل الذى أبقاه للاعقاب حتى يفتخروا به وليس فيه كبير أمر من جمال الهندام والنظام أشبه بسجن مظلم وديماس منحوت .

وأهم ما يلفت النظر فى هذا الدير دار كتبه وفيها خمسة وأربعون ألفاً من المجلدات حوت كثيراً من المخطوطات والنقوش والرسوم ومنها الكتاب المقدس الذى كان يقرأ فيه بعض ملوك اسبانيا فى القرون الوسطى وبعضها كتب باللاتينية ومنها ما كتب بالاسبانيولية أو اليونانية ومنها المزين باجمل الرسوم ومنها المذهب المكتوب على رق ويهمنا من هذه المكتبة مجموعة الكتب العربية وهى الفا مجلد كانت السفن الاسبانية غنمتها من مركب لاحد ملوك مراكش المتأخرين . وكان فى هذا الدير قبل القرن السابع عشر نحو ثلاثة آلاف مخطوط عربى فالتهمتها النار فى الحريق الذى نشب فى الدير مع ما التهمت من الكتب الاخرى .

فليست الكتب العربية فى خزانة الاسكوريال اسبانية المصدر كلها كما أكد لنا أحد علماء الاسبان وصاحب البيت أدرى بالذى فيه أخبرنى أن الاسبان غنموا هذه الكتب من سفينة كانت لاحد سلاطين الغرب الاقصى فوقعت فى أيدى الاسبان وقال آخر أن أصل هذه المجموعة كانت لاحد سفراء اسبانيا

لدى الباب العالي ولما غادر الاستانة أهداها للملكفوضعها هذا في الدير الذي كان ملكاً له ولآله من بعده والرواية الاولى أصح .

وقد وصف هذه الكتب باللاتينية أحد رهبان الموارنة من سنة ١٧٤٩ – ١٧٥٣ وفيها ١٩٥٥ مخطوطاً رأيت نموذجات منها وقرأت وصف الآخر فيما كتبه أحد علماء المشرقيات من الفرنسيس ولا سيما القسم الذي يهمني منها

عراني في هذا الدير ما عرا كثيرين قبلي من السويداء ثم السكون والراحة والبرودة التي تدعو الى العزلة والتفكر والانكماش والدرس وانك لتشعر وأنت تسير تحت قباب الاسكوريال العارية من التفنن والزينة بهواء بارد من حياة الاديار كما تشعر في مدارس اكسفورد وبيعها والنازل هنا بطبيعته يرى دافعاً من نفسه يدفعه إلى أن يشغل نفسه بشيء وما من ملجأ أوفق لنسيان العالم يحمل ساكنه على البحث عن الحقائق وعلى الصبر في كشف المسائل المتعذرة المبهمة المجهولة مثل هذه المعاهد .

قرطبة والزهراء

١٠٠

بأربعة فاقت الامصار قرطبة　　منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة　　والعلم أعظم شيء وهو رابعها

لم يكتب لي أن أزور مدينة طليطلة لاشهد فيها قصور العرب القديمة ومساجدها القائمة الى اليوم وعادياتها المأثورة وكانت من عظائم مدائن الاندلس وهي من قرطبة على عشرين يوماً فاكتفيت بزيارة ثلاث مدن من أمهات المدن الاندلسية قرطبة واشبيلية وغرناطة وهي العواصم الثلاث التي تأصل فيها حكم العرب وطالت أيامه .

وقرطبة كانت في عزها أعظم مدائن الاندلس فأصبحت الآن وليس فيها من

السكان سوى ثمانية وخمسين ألف ساكن وقيل ان مساجدها بلغت ألفاً وستمائة مسجد وحماماتها ستمائة وذكر آخرون انه كان فيها مائتا ألف دار وثمانون ألف قصر دورها ثلاثون ألف ذراع وكان بخارجها ثلاثة آلاف قرية فى كل واحدة منبر وفقيه مقلس (١) تكون الفتيا فى الاحكام والشرائع له يأتون كل جمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويطالمونه بأحوال بلدهم .

قال المراكشى : بلغت قرطبة من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس مبلغاً لم تبلغه بلدة . حكى ابن فياض فى تاريخه فى أخبار قرطبة قال كان بالربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى هذا ما فى ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها وكان الماشى يستضىء بسرج قرطبة ثلثة فراسخ لاينقطع عنه الضوء .

وفى تواريخ الافرنج ان قرطبة كانت منقطعة القرين بين مدن الغرب أى أوربا وليس مايشبهها بعمرانها وسكانها فكان فيها خمسمائة ألف ساكن و٢٨٧ ربضاً وهى مكتظة بالسكان وقد قامت المتنزهات البهجة المغروسة بأنواع الاشجار على طول الوادى الكبير والقصور والمصايف مغطاة بالخضرة وكان فى هذا الوادى الكبير أربعة عشر ألف قرية .

فقرطبة كانت أعظم مدينة بالاندلس وليس بجميع المغرب « لها شبه كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق » ووصفها المقدسى فقال : « وصف ماشئت من طيبها ورحبها فانها جنة الاندلس على ماحكى لى وهى مصر الاندلس وقد دلت الدلائل واتفقت الآراء على أنه مصر جليل رفيق طيب وان ثم عدلا ونظراً وسياسة طيبة ونعمة ظاهرة وديناً وهى فى جهاد ونفير أبداً مع علم كثير وسلطان خطير وخصائص وتجارات

---

(١) المقلس هو الذى يلبس القالس أو القلنسوة وكان يحق للمقلس وحده فى الاندلس ان يفتى وكان عليه ان يستظهر الموطأ والمدونة أو عشرة آلاف حديث وللمقلسين الحق ان يلبسوا القالس فقط وتكتب بالصاد (قاله دوزى فى ملحقه على المعجمات العربية)

وفوائد » وذكروا ان لاهل قرطبة رئاسة ووقار لاتزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم .

ليس فى قرطبة اليوم من آثار العرب سوى قطعة من مسجدها الأعظم بناه عبد الرحمن الداخل وكان معبداً للويزغوت على اسم القديس منصور وقد ملكه المسيحيون وأخذ المسلمون نصفه سنة ٧٨٥ م ولما شرع بالبناء ابتاع عبد الرحمن النصف الآخر منهم كما فعل الوليد الاموى فى دمشق يوم بنى جامعها واستصفى النصف الآخر من أربابه المسيحيين وعوضهم عنه كنائس أخرى .

وزاد الناصر عبد الرحمن بن محمد فى المسجد الجامع بقرطبة زيادته المشهورة وفيها القبو الكبير الذى يصطف المؤذنون أمامه يوم الجمعة للاذان وهو من أعجب البنيان . وحبس المستنصر بالله على الجامع بقرطبة لما كملت زيادته ربع جميع ماجرته اليه الوراثة عن أبيه أمير المؤمنين فى جميع كور الاندلس وأقاليمها على ثغور الاندلس كافة تفرق غلات هذه الضياع عاما بعد عام على ضعفائهم الا أن تكون بقرطبة مجاعة فتفرق فيهم .

ومما قيل فى آثار مدينة قرطبة وعظمها حين تكامل أمرها فى مدة بنى أمية ان عدة الدور التى بداخلها للرعية دون الوزراء وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار ومساجدها ثلاثة آلاف وعدة الدور التى بقصرها الزهراء أربعمائة دار وذلك لسكنى السلطان وحاشيته وأهل بيته .

وقالوا ان المسلمين لما فتحوا قرطبة وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها على حنايا وثاق الأركان من تأسيس الأمم الداثرة قد هدمها مرور النهر على ممر الازمان فتقدم الى فضيلة النظر فيها عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه عند مااتصل به خبرها فامر السمح بابتنائها فصنعت على أتم وأعظم مابنى عليه جسر من حجارة سور المدينة . وربما كان هذا أول عمل فى العمران قام على أيدى عرب الاندلس فى القرن الأول للهجرة .

قال بعضهم لم يكن للعرب هندسة خاصة لما دخلوا قرطبة وكانوا يعتمدون على هندسة أهل البلاد التي تغلبوا عليها فنسجوا في بناء المسجد على مثال مساجد مصر ومسجد القيروان وكان هـذا من أعظم مساجد الاسلام وقيل أنه بنى على شكل مسجد دمشق وكان فيه ١٤١٨ سارية تشبه غابة ملتفة والباقى منها الآن ٨٦٠ وهى أدق من سوارى الجامع الأموى اليوم وقال آخر ان البانى واخلافه جلبوا هذه السوارى من ابنية قديمة وبيع مسيحية فى القاصية كجنوبى فرنسا وأفريقية أي قرطاجنة والاستانة وتبين ان أكثرها من مقالع اندلسية ومحراب هذا المسجد الجامع لايزال محفوظاً وهو دهشة الى اليوم والى مابعداليوم وعلو قبته تسعة أمتار حفر فى قطعة واحدة من المرمر وعمل بالفسيفساء وزبرت عليه آيات كريمة . وله اثنان وعشرون بابا معمولا بالنحاس بقى الآن منها ١٢ بابا وعلى بعضها صورة نقوشها الاصلية وقد قام البرج الذى هناك مقام المنارة التى أنشأها عبد الرحمن الناصر . يقول جوسيه لو أقيمت البيعة التى أقاموها وسط الجامع على عهد شارلكان فى مكان آخر لصار لها شأن وهى هنا من أبشع آثار الهندسة اذ أحدث بانوها بها ضرراً على بناءٍ وحيد من نوعه فى العالم .

وكان فى جامع قرطبة سبعة آلاف مصباح تنعكس أنوارها على النقوش المذهبة والزمرد والياقوت والمفصص وغيرها فتزيد فى جماله وعلى ما أصيب به هذا المسجد من الأضرار بقى الى اليوم من أغرب ابنية الأرض .

قال غوتيه : لاسبيل الى وصف التأثر الذى يشعر به المرء عند دخوله هـذا المسجد الاسلامى القديم فيتراءى لك انك تسير فى غابة مسقوفة لافى بناء مصنوع وحيث اتجهت يضيع بصرك فى صفوف من السوارى تلتقى وتمتد على مرمى البصر مثل غراس من المرمر ظهرت من تلقاء نفسها على أديم الأرض اه .

ثم ان البيعة التى أقيمت وسط جامع قرطبة والبيع الصغرى التى جعلت فى أكثر زواياه قد شوهت من محاسنه وابدلته عن أصله وفى نية ديوان الآثار فيما بلغنى أن يرجع القديم كما كان وينقل الآثار المسيحية من جامع قرطبة ليبقى

بدون زيادة ولا نقصان طرازاً فى البناء منقطع القرين فى الأرضين الا ان البيعة الوسطى بيعة شارلكان يصعب نقل انقاضها لما فيها من الزخرف ولما صرف عليها من المال .

هذا مابقى من آثار الأجداد فى قرطبة وقد زرتها وأرباضها فرأيتها وهى على منبسط من الأرض تشبه ضاحيتها ضواحى دمشق وهندسة أكثر بيوتها الجديدة على الطراز العربى البديع ولأهلها الى هذا العهد حرمة له وغرام به وحرص عليه يعدونه من جملة مقدساتهم . وعلى أربعة أميال من قرطبة بنيت مدينة الزهراء سنة ٣٢٥ ﻫ بناها الناصر لدين الله الأموى فى ست عشرة سنة وطولها ألف وستمائة ذراع وعرضها ألف وسبعون ذراعاً وجعل فى سورها ثلثمائة برج وخص ثلثها قصوراً للخلافة وثلثها للخدم وثلثها بساتين وكان يدخل فيها كل يوم من الحجر المنحوت ستة آلاف صخرة سوى الآجر وغيره وحمل اليها الرخام من أقطار الغرب ودخل فيها أربعة آلاف وثلثمائة سارية وأهدى ملك الفرنج لبانيها أربعين سارية رخام واما الوردى والأخضر فمن أفريقية والحوض المذهب جلب من قسطنطينية والحوض الصغير عليه صورة أسد وصورة غزال وصورة عقاب وصورة ثعبان وغير ذلك والكل بالذهب المرصع بالجوهر وكان ينفق عليها ثلث دخل الاندلس وكان دخلها يومئذ خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف درهم .

وقال أحد المؤرخين ان مباني قصر الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية جلبت من رومية وقسطنطينية وقرطاجنة وتونس وأفريقية فيها خمسة عشر ألف باب ملبس بالحديد والنحاس المموه وكان عدد الفتيان فيها ثلاثة عشر ألف فتى وسبعمائة وخمسين فتى وعدد النساء بقصر الزهراء ستة آلاف وثلثمائة امرأة وأربع عشرة امرأة وكان على الحجر الذى جلب من مقالع الاندلس أو حمل من القاصية نقوش وتماثيل وصور على صور الانسان ولماجلبه أحمد الفيلسوف وقيل غيره أمر الناصر بنصبه فى وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ونصب عليه

اثني عشر تمثالاً . وقال بعضهم عمل في الزهراء عشرة آلاف عامل خمساً وعشرين سنة وفي الشرق من الوادي الكبير مدينة الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر التي يقول فيها ابن عربي لما دخلها ووجدها متهدمة :

ديار بأكناف الملاعب تلمع   وما انبهامن ساكن فهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب   فتصمت أحياناً وحيناً ترجع
فخاطبت منها طائراً متفرداً   له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكي   فقال على دهر مضى ليس يرجع

وقد حرقت الزهراء وهدمت في حدود سنة ٤٠٠ ﻫ وبقيت رسومها وخربت قرطبة وما فيها من القصور والمرافق في حرب البربر وسقطت قرطبة في أيدي العدو سنة ٦٣٣ ﻫ بعد ان كانت مدة خمسة قرون وخمس قرن في أيدي العرب ولم يعد حكمهم اليها بعد ذلك ولما خلت قرطبة من سلطان يرجع الى أمره صار كل من قويت يده عمر مدينة فخربت قرطبة وعمرت اشبيلية .

مدينة اشبيلية

١٠١

على شاطىء الوادي الكبير في أجمل بقاع الاندلس وأعدلها هواء وأزكاها تربة قامت هذه العاصمة التي كانت من أعظم مدن الاندلس بعد سقوط قرطبة في أيدي الاسبان وكانت مدينة الحظ والسرور على اختلاف الدهور والعصور وليس اليوم في اشبيلية بقايا كثيرة من آثار العرب الا الجيرالدا أومنارة الجامع الاعظم وهي أعجوبة اشبيلية ترى من مكان بعيد بناها مهندس عربي من سنة ١١٨٤ — ١١٩٦ لأبي يوسف بن يوسف من دولة الموحدين وهي من الآجر يدق حجمها كلما ارتفعت في الهواء وقاعدتها عبارة عن مربع ذي ١٣ متراً و ٥٥ سنتمتراً ويزيد سمك الجدران على مترين وقد تشوهت بما زاد عليها الاسبان

بعد خروجها من أيدى العرب وهى الآن قبة جرس البيعة الكبرى .

قال فى ذيل اللباب : فدخل (يعنى أمير المؤمنين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن) اشبيلية فى غرة صفر سنة ٥٩٣ فاخذ فى اتمام بناء الجامع وتشييد مناره وعمل التفافيح من أملح مايكون من عظمة لا أعرف له قدراً الا أن الوسط منها لم يدخل على باب المؤذن حتى قطع الرخامة من أسفلها وزنة العمود الذى ركب عليه أربعون ربعاً من الحديد وكان الذى صنعها ورفعها فى أعلى المنار المعلم أبو الليث الصقلى وموّهت تلك التفافيح بمائة ألف دينار ذهباً اه .

ومن أجمل مافى كنيسة اشبيلية اليوم والجامع أمس ناووس من الصلب فيه بقايا خريستوف كولمبس الملاح الجنوى الذى اكتشف أميركا يحمله من أربعة أطرافه ملك قشتالة وملك ارغون وملك ليون وملك نافار وهو من صنع ميليدا سنة ١٨٩٢ كان فى كنيسة هافانا ثم نقل الى اشبيلية سنة ١٨٩٨ بعد ان تحررت كوبا من اسبانيا .

تقرب اشبيلية من البحر ولا ترتفع عن سطحه أكثر من ثمانية أمتار وقد قال الفرنجة فيها : ليست الجيرالدا ولا سائر مصانع اشبيلية ولا كنوز آثارها وجميل نقوشها على الحيطان هى التى اشتهرت بها اشبيلية البديعة ورددت المثل الذى سار فيها « من لم ير اشبيلية لم ير غريبة » بل ان مااشتهرت به فى جميع اسبانيا مظاهر سرور الحياة فيها من مراقص وأفراح ومواسم وحركة البهجة الدائمة التى تنبعث من سكانها على الدوام .

جرت مناظرة بين يدى منصور بن عبد المؤمن بين العالم أبى الوليد بن رشد والرئيس أبى بكر بن زهر فقال ابن رشد لابن زهر فى كلامه : ماأدرى ماتقول غير انه اذا مات عالم باشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها واذا مات مطرب بقرطبة فاريد بيع تركته حملت الى اشبيلية . وبهذا عرفت ان اشبيلية بلدة طرب وسرور فى معظم أدوارها ولطبيعة الاقليم دخل كبير فى هذا الشأن .

فى اشبيلية قصور كما فى قرطبة مصايف زرتها وزرت حدائقها وطوفت

فى اعطافها وهى ملك لا ناس من أغنياء البلاد تتناقل من سيد فيهم الى سيد ومنها ماجعل كما هو بيت بيلاتوس على الداخل اليه جعل يتقاضاه الحارس ليصرف على الفقراء كما جعلت الحكومة على كل داخل الى معهد من معاهـد العرب وغيرهم جعلا من النقود لتصرف منه على الترميم فليس فى البلاد مايعفى الناظر اليه والزائر له من دفع النقود من متاحف وآثار الا اذا كان بعض المغاور والحصون والسدود الخربة التى قامت فى كل ناحية من انحاء البلاد التى ظل فيها حكم العرب نافذاً دهراً طويلا .

كانت اشبيلية تعد من العواصم بكثرة سكانها ولما سقطت فى أيدى الاعداء هاجر من مسلميها فقط زهاء ثلثمائة ألف مسلم الى قرطبة وجيان وبلنسية وغرناطة حيث كانت راية بنى نصر تخفق . وناهيك ببلدة يهاجر من سكانها هـذا العدد وسكانها اليوم ١٤٨ ألفاً وتعد من المدن المتجددة وليس لها مسحة من القـديم الا ما كان من بعد عهد العرب وقد سقطت من بعد جلائهم عنها الى الحضيض .

مدينة غرناطة

١٠٢

بلد يحف به الرياض كأنه وجه جميل والرياض عـذاره
وكأنما واديه معصم غادة ومن الجسور المحكمات سواره

هـذا ماقاله ابن الخطيب في هـذه العاصمة آخر ماحكمته العرب من أرض الاندلس من عواصمها وحواضرها جمعت فيها بقاياهم وجالياتهـم فظلوا فيها نحو قرنين ونصف قرن وعمروها فادهشوا العالم بعمرانها . جاءها جميع المسلمين الذين لم يحبوا ان يبقوا فى البلاد التى وقعت فى قبضة العدو يحتمون بملوكها من بنى نصر جاؤها ألوفاً ألوفاً من قرطبـة واشبيلية وبلنسية يحملون اليها ما كان مبعثراً من الصنائع والثروة فى تلك الأرجاء .

قالوا ان غرناطة قاعـدة بلاد الاندلس وعروس مدنها وخارجها لانظير له في بلاد الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلا يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من الأنهر الكثيرة والبساتين والجنات والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة . وحكى ابن سعيد ان غرناطة تسمى دمشق الاندلس لسكنى أهل دمشق بها عند دخولهم الأندلس وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه والاشجار وقد أطل عليها جبـل الثلج Sierra Nevada — كما أطل جبل الثلج أو جبل الشيخ أو جبل حرمون على دمشق — وفي ذلك يقول ابن جبير :

يادمشق الغرب هاتيك لقد زدت عليها
تحتك الأنهار تجري وهي تنصب اليها

قال ابن سعيد أشار ابن جبير الى أن غرناطة في مكان مشرف وغوطتها تحتها تجرى فيها الأنهار ودمشق في وهدة تنصب اليها الانهار وقد قال الله تعالى في وصف الجنـة تجري من تحتها الأنهار . أما غوطة غرناطة اليوم فليست كغوطة دمشق بأشجارها الملتفة ولا كما كانت كذلك على عهد العرب بل هي جرداء مرداء ولذلك كان منظرها أشبه بمنظر سهل البقاع اذا أطللت عليه من سفوح لبنان الغربي.

وغرناطة في كورة البيرة من أشرف كور هذا الاقليم نزلها جند دمشق .

قال الرازى : وفحص البيرة أي سوادها وريفها لا يشبه بشيء من بقاع الارض طيباً ولا شرفاً الا بالغوطة غوطة دمشق .

وقال ابن الخطيب : وفحصها أي فحص غرناطة لا فيح المشبه بالغوطة الدمشقية حديث الركاب وسمر الليالى قد دحاه الله في بسيط سهل تخترقه المذانب وتتخلله الانهار والجداول وتزاحم فيه الغرف والجنات في ذرع أربعين ميلا ونحوها تنبو العين فيها عن وجهه ولا تتخطى المحاسن منها مقدار رفعة الهضاب والجبال لمتطامية منه بشكل ثلثي دائرة قد علت منذ المدينة فيما يلي المركز من جهة القبلة مستندة الى أطواد سامية وهضاب عالية ومناظر مشرقة فهي قيد البصر ومنتهى الحسن ومعنى الكمال .

ويتزل الثلج شتاء وصيفاً على جبل غرناطة وينبجس منه ستة وثلاثون نهراً كما تنبجس من سفوحه العيون . قال أبو الحجاج ابن حسان :

أحن الى غرناطة كلما هفت نسيم الصبا تهدي الصبا وتسوق
سقى الله من غرناطة كل منهل بمنهل سحب ماؤهن هريق
ديار يدور الحسن بين خيامها وارض بها قلب الشجي مشوق
أغرناطة العلياء بالله خبري : ألهائم الباكى اليك طريق ؟
وما شاقنى الا نضارة منظر وبهجة دار للعيون تروق
تأمل اذا أملت حوز مؤمل ومد من الحمرا عليك شقيق
وأعلام نجد والسكينة قد علت وللشفق الاعلى تلوح بروق
وقد سل شنيل فرنداً مهنداً نضى فوق در ذرّ فيه عقيق
اذا نمّ منه طيب نشر اراكه أراك فتيت المسك وهو فتيق
ومهما بكى جفن الغمام تبسمت ثغور أقاح فى الرياض أنيق

ولما غدت غرناطة عاصمة ابن الاحمر من دولة بنى نصر بالسيف تارة وبحسن السياسة مع الأحزاب المعادية أو بمحالفة القشتاليين الاسبانيين وبنى مرين المراكشيين تارة أخرى جعلها العرب الذين طردوا من المدن المجاورة وطناً لهم ونشط ملوكها الصنائع والتجارة وعمروا الطرق والمجاري وتسلسل ذلك فيها فأتم الثاني ما بدأ به الأول وزينوا البلاد بابنية بديعة فأصبحت غرناطة أغنى مدينة فى شبه جزيرة ايبريا وبحكمة أمرائها انبعثت منها شعلة المدنية المغربية فى اسبانيا وأنست عنايتهم بالزراعة والصناعة عهد قرطبة وما كان فيها من العلوم والصناعات وجمال البناء وأصبحت قصورهم مثابة العلماء والأدباء والفلاسفة « فصارت المصر المقصود والمعقل الذي تنضوى اليه العساكر والجنود » ولما استولى عليها الاسبان سنة ١٤٩١ م بعد ان حاصروها سبعة أشهر فنيت فى خلالها ازواد المحاصرين من العرب وفنيت خيلهم كما فنى كثير من نجدة الرجال بالقتل والجراحات — كان سكانها نصف مليون نسمة (نفوسها اليوم ٧٦ ألفاً) فانحطت على عهد الاسبان

بعد حين وأقفرت من السكان بما أصدره الملوك الكاثوليك من الأوامر المحرقاء ولما اشتدت فيها وطأة ديوان التفتيش الديني ظل الحكام والرهبان يستأصلون شأفة العرب حتى لم يبقوا منهم باقية وكان لها على عهد العرب ١٠٣٠ برجاً متزاحمة بالبيوت وقال ابن الخطيب ان الأبراج بلغت الى مايناهز أربعة عشر ألفاً وكان فى جوارها ماينيف على ثلاثمائة قرية عدا مايجاور الحضرة من قرى الأقليم أو مااستضيف اليها من حدود الحصون المجاورة (وكان أكثرها امصاراً فيها مايناهز خمسين خطة تنصب فيها لله المنابر وترفع الايدى وتتوجه الوجوه ويشتمل سورها وما وراءه من الأرحاء الطاحنة بالماء ماينيف على مائة وثلاثين رحى)

قصر الحمراء

١٠٣

هم الملوك اذا أرادوا ذكرها	من بعدهم فبألسن البنيان
أو ماترى الهرمين قد بقيا وكم	ملك محاه حوادث الازمان
ان البناء اذا تعاظم شأنه	أضحى يدل على عظيم الشان

الحمراء ويقال لها القصبة الحمراء ومعنى القصبة عندهم القلعة وتسمى حمراء غرناطة وهى مطلة على مدينة غرناطة اطلال الصالحية من سفح قاسيون على دمشق. سميت بالحمراء لاحمرار جدرانها بل للون التربة التى قامت عليها فى سفح جبل غرناطة ومعظمها مبنى بالخزف والكلس والحصباء . وفى قصبة الحمراء قصور العرب وهى ثلاثة قصور منفصلة عن القلعة وتدخل فيها المدينة الصغرى القائمة على تلك الاكمة وقد بنى كل قصر منها فى زمن غير زمن القصر الآخر وبقى من القصر الأول شيء قليل وهى المقصورة والكنيسة وكان جامعاً بناه محمد الثالث من ملوك بنى نصر قال فيه ابن الخطيب ان أعظم مناقبه المسجد الجامع بالحمراء

على ماهو عليه من الظرف والتنجيد والترقيش ونخامةالعمل وأحكام أنواع الفضة وابداع أثرها أنفق عليه من مال الجزية فظهر بها منقبة له يتيمة فاق بها من تقدمه ومن تأخره من قومه .

والقصر الثاني قصر الآس وفيه الآس الكثير كان مقر السلطان ومجلس الحكم أودار السلطنة يقعد فيه للمظالم ويستقبل السفراء وكبار رجال المملكة . والقصر الثالث منعزل عن القصرين الآخرين قليلا وكان فيه دائرة حرمه ومساكنه الخاصة وفى هذا القصر صحن الاسود وهو فى الجزء الأوسط منه .

فقاعة السفراء عبارة عن مربع مساحته ١١ متراً بعلو ١٨ كان الملك يستقبل بها وفيها عرشه الى الشمال أمام المدخل وهى تطل على ربض البيازين ومدينة غرناطة وقد ركبت فى كل نافذة وسطى أعمدة صغيرة من العجمى أو الشمسية تدفع حرارة الشمس . ونقش هذه القاعة من أجمل ما حوت الحمراء وكان فيها ١٥٢ صورة مختلفة طبعت بالجص الطرى على الجدران فى قوالب من حديد وهى الى الحمرة والزرقة المشبعة .

أما فناء الاسود فهو صحن واسع فيه اثناعشر أسداً رابضاً من الرخام تحمل الاناء العظيم القائم وسط الدار ويخرج الماء من أفواهها وتسيل الفوارات من أعلى الصحن الذى جعل قطعة واحدة كبيرة كأنه حوض واسع من أحواض بيوت دمشق القديمة وكأن ابن حمديس الصقلي وصف هذه الدار عندما وصف دار المنصور ببجاية فقال :

واعمر بقصر الملك ناديك الذى ... اضحى بمجدك بيته معمورا
قصر لو انك قد كحلت بنوره ... أعمى لعاد إلى المقام بصيرا
واشتق من معنى الحياة نسيمه ... فيكاد يحدث للعظام نشورا
نسى «الصبيح» مع «المليح» بذكره ... وسما ففاق خورنقاً وسديرا
ولو ان بالايوان قوبل حسنه ... ما كان شيئاً عنده مذكورا
أعيت مصانعه على الفرس الاولى ... رفعوا البناء واحكموا التدبيرا

ومضت على الروم الدهور وما بنوا — لملوكهم شبهاً له ونظيرا
اذكرتنا الفردوس حين أريتنا — غرفاً رفعت بناءها وقصورا
فالمحسنون تزيدوا أعمالهم — ورجوا بذلك جنة وحريرا
والمذنبون هدوا الصراط وكفرت — حسناتهم لذنوبهم تكفيرا
فلك من الافلاك الا انه — حقر البدور فاطلع المنصورا
أبصرته فرأيت أبدع منظر — ثم انثنيت بناظرى محسورا
وظننت انى حالم فى جنة — لما رأيت الملك فيه كبيرا
واذا الولائد فتحت أبوابه — جعلت ترحب بالعفاة صريرا
عضت على حلقاتهن ضراغم — فغرت بها أفواهها تكسيرا
فكأنها لبدت لتهصر عندها — من لم يكن بدخوله مأمورا
تجرى الخواطر مطلقات أعنة — فيه فتكبو عن مداه قصورا
بمرخم الساحات تحسب أنه — فرش المها وتوشح الكافورا
ومحصب بالدر تحسب تربه — مسكا تضوع نشره وعبيرا
يستخلف الاصباح منه اذا انقضى — صبحاً على غسق الظلام منيرا
وضراغم سكنت عرين رئاسة — تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها — وأذاب فى أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك — فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما — أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها — ناراً وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول — ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه — درعاً فقدر سردها تقديرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها — عيناى بحر عجائب مسجورا
شجرية ذهبية نزعت الى — سحر يؤثر فى النهى تأثيراً
قد صولجت أغصانها فكأنما — قنصت لهن من الفضاء طيورا

وكأنما تأبى لواقع طيرها ... أن تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها ... ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعدُّ من الفصاح فانشدت ... جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما فى كل غصن فضة ... لانت فأرسل خيطها مجرورا
وتريك فى الصهريج موضع قطرها ... فوق الزبرجد لؤلؤاً منثورا
ضحكت محاسنه اليك كأنما ... جعلت لها زهر النجوم ثغورا
ومصفح الابواب تبراً نظّروا ... بالنقش بين شكوله تنظيرا
تبدو مسامير النضار كما علت ... فلك النهود من الحسان صدورا
خلعت عليه غلائلاً ورسية ... شمس ترد الطرف عنه حسيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفه ... أبصرت روضاً فى السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التى ... حامت لتبنى فى ذراه وكورا
وضعت به صناعه أقلامها ... فأرتك كل طريدة تصويرا
وكأنما للشمس فيه ليقةٌ ... مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأن ماء اللازورد مخرم ... بالخط فى ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاءة ... تركوا مكان وشاحها مقصورا
يامالك الارض الذى أضحى له ... ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدمت ... واستوجبت لقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كل رياسة ... منها ودمرت العدا تدميرا

وهناك قاعة الحكم وقاعة بنى سراج والمقصورة . تخرج من واحدة فتدخل فى أخرى فتخالك فى جنة عالية قطوفها دانية لا تستطيع وصفها لبدائعها الكثيرة وهناك قاعة اسمها قاعة الاختين كانت على ما يظهر لجلوس نساء الملك في الشتاء ونقشها من أقصى ما بلغه النقش العربى من الاتقان وأهم مافيها المقرنص الذى حوى نحو خمسة آلاف شكل مختلف بعضها عن بعض تألف منها مجموع يصعب وصفه لجماله وقبتها أعجوبة البناء ومثال الصبر والعمل وكأنها

كانت فى يد صانعها كالعجين يعمل فيها ماشاء من الصور أو كأنها خلقت خلقة ولم تمسسها يد بشر

وبالقرب من قصور الحمراء جنة العريف وهى حديقة كبرى فيها جميع أشجار القطر وأزهاره قامت هندستها فى منحدراتها وا كماتها وبسائطها على أسلوب يأخذ بمجامع القلوب وفيها سطوح ومغاور ومخابىء وفوارات وسياج تشبه المصايف الايطالية في عهد النهضة وفيها كثير من شجر السرو ومن جملتها سروة يدعونها سروة السلطان عمرها نحو ستمائة سنة وتحتها فيما يقال تواعدت أمرأة أبي عبد الله مع ابن سراج

ولقد كان للسلطان أوائل المئة الثامنة فى غرناطة ما يناهز مائة جنة مثل جنة العريف على ما روى صاحب الاحاطة وناهيك بمدينة فيها مثل هذا العدد الدثر من الجنان وذلك فى الحقيقة من أمارات المدنية والرفاهية .

ورد ذكر الحمراء لأول مرة فى واقعة حدثت سنة ٢٧٧ ﻫ فاعتصم بها القيسيون من العرب وقد تأثرهم عصاة من الاسبانيين فنجا الأمير الأموى بحيلة غريبة وخرج مخرجاً مدهشاً مع رجاله ولما استولى الموحدون على غرناطة التجأ المرابطون الى هذ القصر . واشتهرت الحمراء على عهد دوله بنى نصر أو بنى الاحمر الذين استقلوا بأمارة غرناطة بعد سقوط قرطبة واشبيلية وجعلوها عاصمتهم فأنشأ محمد بن الأحمر قصره الملكى بالقرب من السور والقلعة وفى عهد الامبراطور شارلكان جعل جامع الحمراء كنيسة فأبدلت صورة القصر الملكي القديم وأنشئ باب المدخل الذي يجتاز منه السور الذى طوله ٣٥٠٠ متر وفيه عدة أبراج .

وقالوا ان فرديناند وايزابيلا الكاثوليكية عنيا كل العناية بالحمراء لما اغتنما فرصة اختلاف العرب وأمرائهم وعزما على اخراج جميع العرب من اسبانيا وقد أمرا بترميم نقوشها الداخلية ورمما جدرانها وكان شارلكان على شدة حرصه على آثار الحمراء والابقاء عليها عمر مبانى ليخلد فيها اسمه ولكنها لم تتم وأوردوا فى معرض البرهان على ولوعه بالآثار العربية ما نسب اليه من القول عند ما وقع

بصره على آثار الحمراء : يا لشقاء من أضاع كل هذا .

جاء فى دائرة المعارف الاسلامية : واذا وقع التنظير بين قصر الحمراء والقصور والجوامع التى بنيت على ذاك العهد فى القاهرة مثلا كجامع السلطان حسن الذى بنى سنة ١٣٥٦ م تبين الفرق العظيم بين البنائين فانك ترى لهندسة جامع القاهرة أمثالا كثيرة فى حين بنى قصر الحمراء على غير مثال محتذى ولا يوجد فى مملكة من الممالك قصر اسلامى مثل الحمراء وبقدمه لم يبن له شبيه مع انه شيد بمواد سريعة الانحلال اللهم الا أبنية العصر الأموي التى عثر عليها الباحثون فى بادية الشام شرقى بلاد موآب وبعض الخرائب من العصر العباسي فى سامرا والرقة .

وقصارى القول ان الحمراء مصيف تحف به حدائق واسعة ومتنزهات وفيه المياه الجارية والنبات والحيوان الكثير ونقوشه تبهر الأبصار وفى مسالك الأبصار: ان الحمراء كثيرة المبانى الضخمة والقصور ظريفة جداً يجرى بها الماء تحت بلاط كما يجرى فى المدينة فلا يخلو منه مسجد ولا بيت وبأعلى برج منها عين ماء وجامعها من أبدع الجوامع حسناً وأحسنها بناء وبه الثريات الفضية معلقة وبحائط محرابه أحجار ياقوت مرصعة فى جملة ما نمق به من الذهب والفضة ومنبره من العاج والآبنوس .

ولما استولى ملوك قشتالة على الحمراء سلموها الى مهندسين من العرب بلغ من حذقهم انك لا تعرف ما أدخلوه فيها من الاصلاح ولا تميزه عن الاصل الذى كانت عليه من قبل . ودام هذا الترميم فى الحمراء الى ثورة العرب سنة ١٥٦٩ وفى سنة ١٥٢٢ أصيبت بهزة أرضية وفى سنة ١٥٩٠ بحريق في مطحنة بارود سببت خراب أقسام منها ثم تركت وشأنها فى القرن السابع عشر والثامن عشر وقد نسف جنود نابليون سنة ١٨١٢ قسما منها بالمواد الملتهبة معتبرين الحمراء حصناً وذلك عند جلائهم عن اسبانيا ثم أخذت همة حكومة اسبانيا تتجدد لاعادة الحمراء الى حالتها الأولى .

ويقول جوسيه ان ملوك اسبانيا لما دخلوا الحمراء لم يعاملوا آثار خصومهم

معاملة أعداء بل معاملة أصحاب . وبعدان ذكر كيف كانوا يتعهدونها وكيف عهدوا الى مهندسين من العرب استخدموهم لترميمها قال : وأهملت الحمراء من بدء القرن السابع عشر الى أواسط القرن الثامن عشر فأخذ يسكنها جنود بياطرة وأرباب حرب وحاكة وفاخرانيون وأسرات فقيرة فكانت الأوساخ فيها وفى جدرانها والناس يعبثون بما فيهاوربما أصابها شيء من البارود والقذائف فتبدلت محاسنها وبليت بعض حيطانها ونقوشها ورسومها ومعالمها ثم صحت نية حكومة اسبانيا على تعهد تلك القصور وارجاعها الى حالها وكانت الهمة فى هذا الشأن تفتر ثم تتجدد بحسب سلطان ملوك اسبانيا ودرجتهم من العقل والفهم .

وفى هذا القصر أو المدينة البديعة ماعدا الآثار العربية قصر شارلكان أراد أن يوسع به دائرته سنة ١٥٢٦ بناه من الجزية التى كان يتقاضاها من العرب للسماح لهم باجراء بعض شعائرهم . ومن أعمال شارلكان ابنية لم تتم لقلة المال فيما يظهر والغالب انه حاول بما أنشأه من الأبنية ان يطمس آثار العرب ليجعل لبنائه الرجحان فلم يتم له ماأراد وبقيت الحمراء أجمل مثال في القصور على مر العصور والدهور .

وليس فى الحمراء من الفرش والأوانى الباقية من عهد العرب سوى جرة طولها كثر من متر صنعت من تراب بالميناء ولها لمعان لازوردى وذهبي رسم عليها حيوانات ونقوش عربية وهى من صنع معامل غرناطة فى القديم

هذه صورة مصغرة من وصف هذا القصر وما طرأ عليه إلي يومنا هذا وهو مقصد السائحين من أهل الأرض وكأن ابن حمديس وصفه اذ قال :

قصر يقصر وهو غير مقصر عن وصفه فى الحسن والاحسان
وكأنه من درة شفافة نعشى العيون بشدة اللمعان
لايرتقى الراقي الى شرفاته الا بمعراج من اللحظان
عرج بأرض الناصرية كى ترى شرف المكان وقدرة الامكان
فى جنــة غناء فردوسية محفوفة بالروح والريحان

وتوقدت بالجمر من نارنجها فكأنما خلقت من النيران
وكأنهن كرات تبر أحمر جعلت صوالجها من القضبان
ان فاخر الأترج قال له ازدجر حتى تجوز طبائع الأعيان
لي نفحة المحبوب حين يشمني طيباً ولون الصب حين ترانى
منى المصبغ حين يبسط كفه فبنان كل خريدة كبنانى
والماء منه سبائك فضية ذابت على درجات شاذروان
وكأنما سيف هناك مشطب القته يوم الحرب كف جبان
كم شاخص فيه يطيل تعجباً من دوحة نبتت من العقيان
عجباً لها تسقى الرياض ينابعاً نبعت من الثمرات والاغصان
خصت بطائرة على فنن لها حسنت فافرد حسنها من ثان
قس الطيور الخاشعات بلاغة وفصاحة من منطق وبيان
فاذا أتيح لها الكلام تكلمت بخرير ماء دائم الهملان
وكأن صانعها استبد بصنعة فخر الجماد بها على الحيوان
أوفت على حوض لها فكأنها منها إلى العجب العجاب روانى
فكأنها ظنت حلاوة مائها شهداً فذاقته بكل لسان
وزرافة فى الجوف من أنبوبها ماء يريك الجرى فى الطيران
مركوزة فى الرمح حيث ترى له من طعنه الحلق انعطاف سنان
وكأنها ترمى السماء ببندق مستنبط من لؤلؤ وجمان
لو عاد ذاك الماء نفطاً أحرقت فى الجو منه قميص كل عنان
فى بركة قامت على حافاتها أسد تذل لعزة السلطان
نزعت الى ظلم النفوس نفوسها فلذلك انترعت من الابدان
وكأن برد الماء منها مطفئ ناراً مضرمة من العدوان
وكأنما الحيات من أفواهها يطرحن أنفسهن فى الغدران
وكأنما الحيتان اذ لم تخشها أخذت من المنصور عقد أمان

كم مجلس يجرى السرور مسابقاً　　منه خيول اللهو فى ميدان
يجلو دماه على الخدود ملاحة　　فكأنه المحراب من غمدان
فسماؤه فى سمكها علوية　　وقبابه فلكية البنيان

كتابات الحمراء

١٠٤

يقرأ فى قصر الحمراء كثيراً من الآيات والمواعظ والأشعار زبرت على الحجر أو بالجص بالخط الأندلسى المشبك وهو أقرب الى النسخ المتعارف فى هذه البلاد الشرقية منه بالخط المغربى ومما تقرأه على أحد الأبواب « أمر ببناء هذا الباب المسمى بباب الشريعة أسعد الله به شريعة الاسلام كما جعله فخراً باقياً على الأيام مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس أبى الوليد بن نصر كافى الله فى الاسلام صنائعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية فشيد ذلك فى شهر المولد المعظم من عام تسعة وأربعين وسبعمائة جعله الله عزة واقية وكتبه فى الأعمال الصالحة الباقية »

ومنها « الملك الدائم والعز القائم » ومنها « الحمد لله على نعمة الاسلام » ومنها « عز لمولانا أبي عبد الله » ومنها « ولا غالب الاالله » ومنها « وما بكم من نعمة فمن الله » ومنها « النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير المسلمين » ومنها « وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » ومنها « فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » ومن الأبيات التى رسمت على احدى القباب فى مدح أبي الحجاج يوسف الأول

تبارك من ولاك أمر عباده　　فاولى بك الاسلام فضلا وأنعما

فكم بلدة بالكفر صبحت أهلها   وأمسيت فى أعمارهم متحكما
وطوقتهم طوق الأسار فأصبحوا   ببابك يبنون القصور تخدما
وفتحت بالسيف الجزيرة عنوة   ففتحت باباً كان للنصر مبهما

***

ولو خير الاسلام فيما يريده   لما اختار الا أن تعيش وتسلما

الى أن قال :

فامنت حتى الغصن من نفحة الصبا   وأرهبت حتى النجم فى كبد السما
فان رعشت زهر النجوم مخيفة   وان مال غصن البان شكرك يمما

ومنها: ومن قبلها استفتحت عشرين معقلا   وصيرت ما فيها لجيشك مغنما

وكتب فى قاعة السفراء

أنا محلاة عروس   ذات حسن وكمال
فانظر الابريق تعرف   فضل صدقى فى مقالى
واعتبر تاجى تجده   مشبهاً تاج الهلال
وابن نصر شمس فلك   فى ضياء وجمال
دام فى رفعة شأن   آمناً وقت الزوال

وكتب أيضاً

وحكيت كرسى العروس وزدته   انى ضمنت سعادة الازواج
من جاءنى يشكو الظماء فموردى   صرف الزلال العذب دون مزاج
فكأننى قوس الغمام اذا بدا   والشمس مولانا أبو الحجاج
لازال محروس المثابة ماغدا   بيت الإلاه مثابة الحجاج

وكتب على القبة

تحييك منى حين تصبح أو تمسى   ثغور المنى واليمن والسعد والأنس
هى القبة العليا ونحن بناتها   ولكن لى التفضيل والعز فى جنسى
جوارح كنت القلب لاشك بينها   وفى القلب تبدو قوة الروح والنفس

وان كان أشكالى بروج سمائها   ففي عدا مابينها شرف الشمس

ومما كتب أيضاً على بركة صحن الاسود وهو من نظم الوزير أبي عبدالله محمد بن يوسف بن زمرك تلميذ لسان الدين بن الخطيب :

تبارك من أعطى الامام محمدا   مغانى زانت بالجمال المغانيا
والا فهذا الروض فيه بدائع   أبى الله أن يلفى لها الحسن ثانيا
ومنحوتة من لؤلؤ شف نورها   تحلى بمرفض الجمان النواحيا
يذوب لجين سال بين جواهر   غدا مثلها فى الحسن أبيض صافيا
تشابه جار للعيون بجامد   فلم ندر أياً منهما كان جاريا
ألم تر ان الماء تجرى بصفحها   ولكنها مدت عليه المجاريا
كمثل محب فاض بالدمع جفنه   وغيض ذاك الدمع اذ خاف واشيا
وهل هى فى التحقيق غير غمامة   تفيض الى الآساد منها السواقيا
وقد أشبهت كف الخليفة اذغدت   تفيض الى أسد الجهاد الايادىا
فيامن رأى الآساد وهى روابض   عداها الحيا عن أن تكون عواديا
وياوارث الانصار لاعن كلالة   تراث جلال تستخف الرواسيا
عليك سلام الله فاسلم مخلداً   تجدد أعياداً وتبلى أعاديا

ومما كتب فى احدى القاعات أيضاً من نظم الوزير ابن زمرك

أنا الروض قد أصبحت بالحسن حاليا   تأمل جمالى تستفد شرح حاليا
أباهي من المولى الامام محمد   باكرم من يأتي ومن كان ماضيا
ولله مبناه الجميل فانه   يفوق على حكم السعود المبانيا
فكم فيه للابصار من متنزه   تجد به (؟) نفس الحليم الامانيا
تبيت له خمس الثريا معيذة   ويصبح معتل النواسم راقيا
به القبة الغراء قل نظيرها   ترى الحسن فيها مستكناً وباديا
تمد لها الجوزاء كف مصافح   ويدنو لها بدر السماء مناجيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت بها   ولم تك في أفق السماء جواريا

ولو مثلت فى ساحتيها وسابقت الى خدمة ترضيه منها الجواريا
ولا عجب ان فاقت الشهب في العلى وان جاوزت فيها المدى المتناهيا
فبين يدى مولاى قامت لخدمة ومن خدم الاعلى استفاد المعاليا
بها البهو قد حاز البهاء وقد غدا به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم حلة قد جللته بحليها من الوشى تنسى السابرى اليمانيا
وكم من قسى فى ذراه ترفعت على عمد بالنور بانت حواليا
فتحسبها الافلاك دارت قسيها تظل عمود الصبح اذ لاح باديا
سواري قد جاءت بكل غريبة فطارت بها الأمثال تجرى سواريا
به المرمر المجلو قد شف نوره فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
اذا ما أضاءت بالشعاع تخالها على عظم الاجرام منها لآليا
فلم نر قصراً منه أنم نضرة واعطر ارجاء وأحلى مجانيا
مصارفة النقدين فيه بمثلها أجاز بها قاضى الجمال التقاضيا
فان ملأت كف النسيم مع الضحى دراهم نور ظل عنها مكافيا
فيملأ حجر الروض حول غصونها دنانير شمس تترك الروض حاليا

ومن الأبيات اللطيفة

وجاد بها برد الهواء نسيمها فصحت هواءً والنسيم قد اعتلا
وقد حزت من كل المحاسن غاية تقبس عنها الشهب فى الافق الأعلا
وانى بهذا الروض عين قريرة وانسان تلك العين حقاً هو المولى

وفى الاندلس الى اليوم على كثرة ما انتاب مصانعها وقلاعها ومدارسها وتر[...] وجسورها وسدودها من التخريب لاتزال ترى بعض كتابات من النظم والن[...] وبعضها مثال البلاغة والفصاحة لأن الاندلسيين عاشوا وتنعموا في أرض معتد[لة] الهواء جميلة الطبيعة فلابدع ان جادت القرائح على تلك النسبة وظهرت فى كتابهم وشعرائهم آثار الابداع والاعجاب .

ذكرى مؤلمة

١٠٥

مضت أعوام تلتها أعوام ، والنفس تتحدث بالارتحال الى الاندلس المحبوبة ، تستنفض معالمها ومجاهلها ، وتستبطن معاهدها ومصانعها ، فتتدبر ، وتذكر ، وتستفيد وتفيد . ولما اتاحت لها الاقدار ، بلوغ تلك الامصار ، عرض لها ما كدر صفو تلك الذكرى ، ذكرى التطواف فى الاندلس بعد عزها للاعتبار ، بالدمى والاحجار ، واستنطاق الآثار ، واستقراء الاخبار ، لمعرفة عمل العرب فى تلك الديار . .

اتفق نزولى غرناطة فى اليوم الثاني من كانون الثاني ، اليوم الذى خرج فيه أبو عبد الله آخر ملوك بنى الاحمر من عاصمة الاندلس ، وانتقلت أحكامها الى أيدى الغالبين من الاسبانيين ؛ والجرس يدوى فى كنيسة الحمراء دوياً متواصلا لامتساوقاً مدة أربع وعشرين ساعة ، احتفالاً بهذا اليوم الذى يعده أهل اسبانيا عامة وسكان غرناطة من بينهم خاصة من أسعد أيامهم الغر . احتفلوا به ضروب الاحتفال ، ومن جملة مظاهر سرورهم مأدبة أدبها يومئذ شيخ مدينة غرناطة فى النزل الذى حللته فى جوار الحمراء واسمه نزل « واشنطون » على اسم واشنطون محرر أميركا الشمالية وقد حضر المأدبة عظماء المدينة وشربوا وطربوا على ذكر استيلاء أجدادهم على آخر أرض احتلتها العرب من شبه جزيرتهم .

تذكرت ذاك اليوم المشؤوم ، وقد رفع الصليب الفضى على أعلى برج فى الحمراء اشارة الى ظفر الاسبان الاخير وخروج العرب من هذه الديار ، وقد أخذ أبو عبد الله بن الاحمر يتحفز فى حاشينه ليخرج من الحمراء قبل أن يبغته العدو فيها ، ويتلفت وهو يجتاز جبل التاج الى غرناطة البديعة فيتنهد ويبكى ، وأمه ترافقه وتقول له : لا تبك كالنساء ملكاً لم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال .

كل سنة يبالغ القوم هنا بعيد غرناطة السنوى وقد احتفلوا به حتى اليوم

أربعمائة وثلاثين سنة يتذكرون كل مرة نصرتهم على أعدائهم ويوماً تمت لهم فيه وحدتهم القومية والدينية ، وقد مثلوا أفظع مأساة ارتكبتها أنفس متعصبة جاهلة ، وسلكوا للخلاص من مخالفيهم طرقاً بشعة ، لم يسلكها هؤلاء معهم يوم استصفوا أرضهم وحلوا دياراتهم ، وهم فى رفعة ومنعة ، وغبطة وسعة . يحشدون يوم الحفل رجالهم ونساءهم وذراريهم يحفزون أرواحهم ليوقظوها ، ويهيجون كوامن الصدور ليعتبروا بما وقع لهم فى سالف العصور وليعلموهم ان غلبة سنة ١٤٩٢ وان كانت من باب تسلط الجهل على العلم الا أنها دلت على أن الثأر لا ينسى ولو بعد ثمانية قرون .

وما كان أجدر بالعرب ان يعدوا آخر يوم خرجوا فيه من الاندلس من أيام البؤس ، المشتملة بالحزن ، المملوءة بالاستعبار ، يتناشدون فيه التعازى والمراثى ، ويتطارحون حديث محنة مضت ، وتذكارها المؤلم لم يبرح يتجدد ، وشرر شرها لم يزل يتولد ويتوالد .

قيل ان أناساً من جالية الاندلس فى بر العدوة مابرحوا الى اليوم وقد انقضت أربعة قرون على مغادرتهم بلداً نبت لهم فيه العز ، وأثمر المجد والسعد ، يخلف الوالد منهم لبنيه فى جملة مخلفاته ، مفاتيح داره فى الاندلس على أمل أن يعود أولاده اليها ذات يوم ويفتحوها وينزلوها . تذكار ان عده بعضهم فى باب الهزل ، وقيده فى سجل المستحيلات ، يحوى ولا جرم فى مطاويه أجمل العظات ، وأعظم التذكارات .

وحقيق بكل بلد للعرب فقد استقلاله ان يقيم كل سنة المآتم على ماحل به خصوصاً فى البلاد التى يعبث فيها المتغلبون بمشخصات المغلوبين فان بعض العناصر الاوربية كالاسبان لم يكتفوا بطرد العرب من بلادهم بل يحاولون اليوم فى الريف من بلاد مراكش ان يجلوهم عنها بعد ان تأصلت كلمتهم فيها منذ ثلاثة عشر قرناً أقاموا خلالها مدنيات وانشأوا أمجاداً لهم ودولات .

ان العرب الذين أنشأوا من العدم مدنية الاندلس وقاموا فى عصور الظلمات

بأعمال لايكاد يصدق الناظر اليها انها بنت قرائحهم ، وثمرة عقولهم ، لولم تتناصر على ذلك أصدق الروايات ، لا يعجزهم اليوم ، والعصر عصر النور ، أن يقوموا بمثل ماعمله أجدادهم ، لو نفس خناقهم ، وملكوا زمناً قيادأ نفسهم . بعض أهل الغرب اليوم حرب على الشرق وسوف تكون لهذا الغلبة للاحتفاظ بدياره وآثاره ، وأمامه اسبانيا والبورتقال اللتان ثأرتا لنفسهما من مستعبديهما بعد قرون ولم تكونا فى رقي العرب اليوم عدداً وعدداً ، ومضاء وغناء .

أضعف أمة اليوم فى الغرب لايبلغ عدد أهلها عدد أهل أقليم واحد من أقاليم العرب أو قطر من أقطارهم تتناغى الليل والنهار بآثارها وتتحدث بمفاخر أجدادها وتقدس أعمال نوابغها ورجالها ولا تنسى يداً للمحسن اليها ، ولا اساءة مجرم جان عليها . العرب توغلوا يوم اشتد سلطانهم في جنوبي أوربا ونشأت لهم حكومات فى شبه جزيرة أيبريا وجزيرة صقلية وسردانية فارتكبوا بذلك جناية فى عرف أهل تلك الديار ، أفليس من العدل ان تغتفر لهم هذه الهفوة أوالغزوة ، فى جانب ماحملوه الى من غلبوهم من ضروب المعارف والصناعات ، ومستحسن الآداب والأخلاق . العرب حملوا الى الاندلس حضارة رائقة ، ونظاماً محكما ، أحلوها محل الفوضى والتوحش ، والسخافات والخرافات .

تود كل أمة اليوم مهما بلغ من تراجع الحضارة بينها ان تحكم نفسها بنفسها وتمثل مشخصاتها ومقدساتها ، فهل ينال العرب هذه الأمنية وهم ليسوا دون بعض الأمم الاوربية التي أخذت تتمتع الواحدة تلوالأخرى باستقلالها منذ قرن من الزمن فليس كل أمم أوربا بحضارتهم الانكليز والالمان والفرنسيس ولا كل الشعوب العربية على مستوى واحد فى الحضارة والنور .

جلاء المسلمين وتنصيرهم

١٠٦

لما استولى العرب المسلمون على الاندلس لم يكرهوا أحداً من سكان البلاد الاصليين على الدخول فى دينهم ، بل أظهروا التسامح المقبول الذى يأمرهم به الدين الحنيف ، وأطلقوا للناس حريتهم في ذلك ، فكان بعض الاسبانيين يدينون بالاسلام برضاهم .

فعهد العرب اذاً فى الاندلس كان عهد تسامح وحرية . لم تعهده من قبل ولا من بعد ولم يمنع عن بث الدين المسيحى الادعاته المفرطون ، ممن كانوا يقفون على أبواب المساجد والجوامع ، ويدعون المسلمين الى دينهم ، ولا جوزوا أخذ مال أحد من أهل ذمتهم بل اكتفوا بجزية بسيطة ، وساووهم فى جميع الامور بانفسهم . مثال من لطف الحكم تعلمه الفاتحون من كتابهم فلم يحيدوا عنه قيد غلوة ، وهم فى عز سلطانهم ، والقول الفصل فى الارض كلها لهم ولقومهم مدة قرون طويلة .

هكذا فعل العرب فى أبان قوتهم ، فانظر ماذا صنع الاسبان يوم قوى سلطانهم وكيف عاملوا العرب نقلا عن شاهد العيان قال :

لما استولى صاحب قشتالة على مدينة بلش عام اثنين وتسعين وثمانمائة ودخلت في ذمته جميع القرى التى تلى بلش وقرى جبل منتميس وحصن قارش خرج أهل بلش من بلدهم مؤمنين . وحملوا ماقدروا على حمله من أموالهم فمنهم من جوزه العدو الى أرض العدوة ومنهم من أقام فى بعض تلك القرى ومنهم من صار الى أرض المسلمين التى بقيت بالاندلس .

ولما استولى الغالبون على مدينـة مالقة وباش وجميع الجهات الغربية لم يبق للمسلمين فى تلك الناحية ملجأ . وفى عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج العدو نحو حصون الشرقية وكانت فى صلحه فاستولى على تلك الحصون كلها وفى سنة ٨٩٤

خرج نحو حصن موجر فاستولى عليه وعلى الحصون القريبة منه ومن مدينة بسطة

وكان صاحب قشتالة كثيراً مايستعين بالمرتدين والمدجنين على قتال المسلمين يدلونه على عوراتهم ، ولطالما أمر بهدم المدن والقرى التى يستولى عليها يبنى بأنقاضها مسورات في بضعة أيام كما فعل فى غرناطة . ومن جملة الشروط التى شرط أهل غرناطة على ملك قشتالة أن يؤمنهم فى أنفسهم ونسائهم وصبيانهم ومواشيهم ورباعهم وجناتهم ومحارثهم وجميع مابأيديهم ولا يغرمون الا الزكاة والعشر لمن أراد الاقامة ببلدة غرناطة . ومن أراد الخروج منها يبيع أصله بما يرضاه من الثمن لمن يريده من النصارى والمسلمين من غير غبن ، ومن أراد الجواز لبلاد العدوة بالغرب يبيع أصله ، ويحمل أمتعته ، ويحمله فى مراكبه الى أى أرض أراد من المسلمين من غير كراء ولا شىء يلزمه لمدة ثلاث سنين ، ومن أراد الاقامة من المسلمين بغرناطة فله الامان على نحو ماذكر وكتب لهم بذلك كتاباً ، وأخذوا عليه عهوداً ومواثيق فى دينه مغلظة . وبعد ذلك أخلى المسلمون مدينة الحمراء كما أخلوا غرناطة ودخلها الاسبانيون . ولما سمع أهل البشرة ان أهل غرناطة دخلت تحت ذمة النصارى أرسلوا بيعتهم الى ملك الروم ودخلوا فى بيعته فلم يبق للمسلمين موضع بالاندلس .

ولقد صرح صاحب قشتالة للمسلمين بالجواز الى الساحل فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة الواسعة المعتبرة بالثمن القليل ، وكذلك يبيع جنانه وأرض حرثه وكرمه وفدانه بأقل من ثمن الغلة التى كانت فيه ، فمنهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن ، ومنهم من اشتراه منه النصارى وكذلك جميع الحوائج والأمتعة ، ومن المسلمين من طمعوا فى عناية ملك النصارى بهم فاشتروا أموالا رخيصة وأمتعة وعزموا على المقام فى الاندلس .

ثم ان الملك أمر الأمير محمد بن على بالانصراف من غرناطة الى قرية اندرش من قرى البشرة فارتحل بعياله وحشمه وأمواله وأتباعه ، ثم ظهر له أن يصرفه

فبعث للمراكب تأتى لمرسى عذرة واجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجواز فركب الامير محمد ومن معه فى تلك المراكب حتى نزلوا مدينة مليلة ،فاس من عدوة المغرب .

وأخذ ملك الاسبان بعد حين ينقض الشروط التى اشترطها عليه المسلمون ، وشرع يفرض عليهم الفروض ، وثقلت عليهم المغارم ، وقطع لهم الاذان،وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة الى الارباض والقرى ، وبعد ذلك دعاهم الى التنصر وأكرههم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا فى دينه كرها وصارت الاندلس كلها نصرانية ، وامتنع بعض أهل الأندلس من التنصر كأهل قرية ونجرو البشرة واندرش وبلفيق ، فأحاط بهم ملك قشتالة وقتل رجالهم وسبى نساءهم وأخذ صبيانهم وسلب أموالهم ونصرهم واستعبدهم ، وامتنع أناس فى غربى الاندلس من التنصر وانحازوا الى جبل وعر منيع ، فلما امتنعوا عليه وقاتلهم فلم ينل منهم منالا أعطاهم الامان على ان يجوزهم لعدوة المغرب مؤمنين على ان لا يسرح لهم شيئاً من أموالهم غير الثياب التى كانت عليهم وجوزهم لعدوة المغرب كما شرطوا ولم تقم للاسلام والمسلمين بعد ذلك قائمة .

قال السلاوى : التزم أهل غرناطة طاعة صاحب قشتالة لما استولى عليها سنة سبع وتسعين وثمانمائة والبقاء تحت حكمه ولما نقض الشروط وهى سبعة وستون شرطاً عروة عروة ومنها اقامة شريعة المسلمين على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم الا بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والاوقاف كذلك الى أن آل الحال لحملهم على التنصر فتنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وكان أهل الاندلس كثيرا ما يهاجرون الى بلاد الاسلام غير ان عامتهم كانوا قد تخلقوا بأخلاق العجم (غير العرب من الاسبان) وأثر فيهم ذلك أثراً ظاهراً لطول صحبتهم لهم ، ونشأة أعقابهم بين أظهرهم الى ان كانت سنة ست عشرة وألف ، فهاجر جميع من لم يتنصر منهم الى بلاد المغرب وغيرها ، وفى خلال ذلك منع العرب من التكلم بالعربية (١) .

(١) لما انقرضت دولة العرب وبقى بعضهم فيها حافظوا على دينهم مع شدة الاضطهاد ولكنهم

قال المقري : كان النصارى بالاندلس قد شددوا على المسلمين بها فى التنصر حتى انهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلا عن غيرها من الحديد وقاموا فى بعض الجبال علي النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصراً الى ان كان اخراج النصارى اياهم اعوام سبعة عشر وألف فخرجت ألوف بفاس وألوف أخر بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس وخرج طوائف بتطاوين وسلا والجزائر وعمروا القرى واغتبط بهم الناس وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم (١) ووصل جماعة منهم الى القسطنطينية والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام .

***

هذا مارواه مؤرخو العرب واليك ماقاله مؤرخو الافرنج فى هذه الكارثة : جاء فى التاريخ العام للافيس ورامبو : صحت النية سنة ١٦٠٩ على نفى العرب Les morisques وكانوا يؤلفون عنصراً خاصاً عصى على التمثل ولم ينزل عن

نسوا أو الزموا بإهمال اللغة العربية وصارت اللغة القشتالية أى الاسبانية ملكة متوارثة فيهم فكتبوا علومهم بها لكن بحروف عربية وسموها (الخيادو — Aljamiado) ووجه التسمية أن العرب يسمون كل ماليس بعربى اعجمياً وجرى على منوالهم الاندلسيون فكانوا يسمون اللغة القشتالية أى الاسبانية باسم « الاعجمية » ثم انتقلت هذه اللفظة الى اللغة الاسبانية بغير حرف العين لعدم وجود ما يقابله فى اللغات الافرنجية فصارت الكلمة مقابل هذا الصوت (الاجاميا) ولما كان أهل اسبانيا يقلبون أغلب الجيمات خاآت قالوا (الاخاميا) أو (الخيا) ورسموها بحروفهم هكذا بعد أن سكنوا حركة اللام (Alj amia) وعلامة النسبة عندهم do توضع فى آخر الكلمة فلذلك قالوا (Aljamiado) أى الاعجمى . (السفر الى المؤتمر)

(١) قال ابن ابى دينار ان المهاجرين من الاندلس الى تونس سنة ١٠١٧ - ١٠١٨ هـ كانوا خلقاً كثيراً فاوسع لهم عثمان داى فى البلاد وفرق ضعفاهم على الناس واذن لهم ان يعمروا حيث شاؤوا فاشتروا الهناشير وبنوا فيها واتسعوا فى البلاد فعمرت بهم واستوطنوا فى عدة أماكن وبنوا أكثر من عشرين بلدا فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الاشجار ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من أهل البلاد ، وذكر السيد حسن حسنى عبد الوهاب من علماء تونس فى رسالة بالافرنسية ذكر فيها أصول التونسيين انه دخل تونس في القرنين ونصف القرن الذي انتهى بها جلاء العرب عن الاندلس لا أقل من مئة ألف أندلسى وأن الطبقة المتمدنة الغنية من الاندلسيين نزلت مدينة تونس واختلطت بأهلها وقلدهم ملوك بني حفص فيها خطط القضاء والادارة والتعليم .

مشخصاته ومميزاته على كثرة مابذل فيليب الثاني من الجهد فوقع الاتفاق على التذرع بكل مايمكن لاهلاكهم فعمدت الحكومة الى الخروج عن القانون بدعوى قيامها بما فيه سلامتها ولانجاز وحدة اسبانيا وانقاذ البلاد من أولئك المحالفين سراً للاتراك والانكليز والفرنسيس على حين اشتدت شوكة قرصان البحر من البربر وهنري الرابع يضع خططه السرية فحاذرت اسبانيا العواقب وقام رئيس أساقفة بلنسية يدعو الى طرد العرب مدعياً ان منهم تسعين ألفاً يستطيعون حمل السلاح واذا أغار على اسبانيا عدوها تسوء حالها ويحرج موقعها . واذا كان القشتالي كسلاناً فقيراً كان يكره من العرب منافستهم الشديدة له التي اكسبتهم غنى بفضل اقتصادهم نادى رئيس الاساقفة ان مما يخشى منه ان يحتكر هؤلاء العرب جميع ثروتنا ويؤدوا بالمسيحيين الى العدم والشقاء . وقال غيره انهم يدخرون على الدوام وعلمهم عبارة عن سرقتنا فهم الدودة التي تقرض اسبانيا . وعلى هذا كان من التعصب الديني ان قضي على العرب . ولما تعذر تنصيرهم رأوا ان الطريق الوحيد الى الخلاص من خطرهم المادى والمعنوى يكون بطردهم فقوى نفوذ رجال الكهنوت على ممثلي طبقات الاشراف فى البلاد وكانت عقول هؤلاء أكثر استنارة يحرصون على الاحتفاظ بالعرب فى بلادهم لانهم عاملون ينفعونهم بعملهم ويدرون عليهم ريعاً كبيراً فقاموا ينكرون الشدة التي ارتأى أن يعمد اليها المجلس والحبر نديم الملك فلم يلبث بقايا العرب فى بلنسية والاندلس ومرسية وقشتالة وارغون وكتلون ان غربوا (ايلول ١٦٠٩ تموز ١٦١٠) وحملوا الى أفريقية حيث هلك عدد كبير منهم وثار أربعون ألفاً منهم فاعتصموا فى جبال بلنسية فذبحوا أو استعبدوا ففقدت اسبانيا بهم على أقرب تقدير من خمسمائة الى ستمائة ألف من أحسن العاملين فى الزراعة والصناعات وعجلت بذلك خرابها وبعملها هذا ابتاعت وحدتها الدينية بالثمن الغالى وفرح الرأى العام الاسبانى اذ ذاك بما تم فى هذا الشأن وعدوه من أعظم الاعمال التي قامت فى عهد ملكهم ومنهم من رأوه نعمة من السماء ! وقال مؤرخ اسباني : يا لسعادة ملك توفق الى

أن يعمل هذا العمل من طرد العرب ، ولكن الامم خارج اسبانيا عدوا عمل الاسبانيين من تغريب العرب جنوناً بل وصفه ريشليو بأنه أفظع عمل بربري ذكره تاريخ القرون .

وفى التاريخ العام أيضاً أن خضوع العرب فى اسبانيا قد أقلق ملوك الكاثوليك [1] وفتح أمامهم مسألة تطالوا الى حلها بما عهد فى عنصرهم من المضاء الوحشي وبما اشتهرت به قرون التدين من التعصب وعدم التسامح فرأوا ان بعض مئات الالوف من الاسرائيليين والمسيحيين يكثرون سواد المخالفين وهم كثير نسلهم لايعلم ماذا يكون منهم وهم على ماهم فيه من النمو يغتنون ويعملون فاشتد القلق من قوم يخالفون الاسبانيين بحضارتهم بل يعجبون بها ولهم ميول وعقائد وعواطف تخالف ماعليه الجمهور فبدأوا بالاسرائيليين حتى أن ميكل لوكاس أعظم سادات قشتالة ذبحه سكان جيان أمام المذبح فى الكنيسة سنة ١٤٧٣ لاتهامه بالعطف على الاسرائيليين .

وكان من مذابح سنة ١٣٩٠ ان اضطر ألوف من اليهود في معظم مدن قشتالة ان يتنصروا ومنهم من دام على نصرانيته ومنهم من رجع الى دينه الاصلى أوكان ظاهره مسيحياً وقلبه وعاداته قلب اسرائيلى وعاده . وكان منهم طبقة غنية محترمة وفى سنة ١٤٨١ وقع تخييرهم بين التنصر والجلاء فآثروا التاني إلا ان ديوان التفتيش لم تأخذه بهم رحمة كما لم يشفق على المسلمين سنة ١٤٩٢ فشقوا عصا الطاعة بما رأوه من تعصب الكردينال كسيمنس [2] الذى عمد الى تنصيرهم بأبشع الطرق من الحبس والشدة وأخذ الاولاد ولما فرغ صبرهم وعمدوا إلى السلاح نقض ما أعطوه من الشروط يوم تسليمهم غرناطة ولئن فضلوا أن يتنصروا على أن يهجروا بلادهم فانهم لم يسلموا أيضاً واشتد ديوان التفتيش

---

(١) يريد ملوك اسبانيا فان ملك اسبانيا لايزال الى اليوم يدعى فى الرسميات صاحب العظمة الكاثوليكى Sa Majeste, Cataica

(٢) هو مرشد ازابيلا الكاثوليكيه ملكة قشتالة حكم اسبانيا بعد موت فرديناند الكاثوليكى مات سنة ١٥١٧ وقد كان من أعظم من قصوا على العرب ومدنيتهم على مامر بك فى الفصول السابقة

فى مراقبتهم وكان الاسبانيون يرون فى عمل هذا الديوان الدينى سلامة عنصرهم وسلامة دينهم ولذلك كانوا شاكرين لعمله مهما قسا وغرم .

وقال ريناخ : لم تكتف اسبانيا بما قامت به من المظالم باسم الدين واحراق البشر وقتلهم وتعذيبهم بل رأت أن توهم الناس انه لاسبيل الى قيام وحدتها الا بنفى اليهود سنة ١٤٩٢ ونفى العرب (١٦٠٩) فسارمئات الالوف منهم يهجرون بلادهم وهلك منهم فى الطرق عشرات الالوف فحرمت اسبانيا من أحسن العاملين فيها وفقدت تجارها الماهرين وأطباءها الحاذقين وقد قتل فى اسبانيا وحدها بفعل ديوان التفتيش الدينى نحو مئة ألف انسان على الاقل ونفى منها مليون ونصف وبذلك خربت مدنية تلك البلاد الجميلة .

وقال سيديليو : كان طرد العرب من اسبانيا من موجبات تأخرها كما وقع لمدينة نانت يوم طرد منها من كان مخالفاً للكثلكة فاضر ذلك بالصناعة الفرنساوية وقد تمكن الكردينال كسيمنس من تعويق جميع آثار المسلمين وأمر بأحراق ثمانين ألف مخطوط عربي فى ساحات غرناطة .

سقوط الاندلس

١٠٧

كان العرب فى الاندلس فى جهاد دائم مع أعدائهم منذ وطئ طارق بن زياد وموسى بن نصير أرضها ، ورفعوا علم الامويين على ربوعها ، ودفعوا باعدائهم الى أقصى الشمال . يسكن الجلالقة وغيرهم حيناً إذا وجدوا العرب مستمسكين بعروة الوحدة ، ومتى شاهدوا اختلاف أمور العرب أو آنسوا من بعضهم ميلا اليهم أو نزوعاً الى الاحتماء بهم لينالوا من خصومهم يحملون حملات منكرة ، ويقاتلون أعداءهم بكل مافيهم من قوة ولذلك قلت غارات الاسبانيين والبرتقاليين

على البلاد التى نزلها العرب على عهد دولة بنى أمية أوائل المئة الخامسة وان كان الثوار لم ينقطعوا تماماً فى الداخل عن مجاذبة الامويين حبل السلطة .

ثم فسدت عصبية هـذه الدولة من العرب واستولى ملوك الطوائف علي الاندلس واقتسموا خطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة وانتزاكل واحد منهم على ما كان فى ولايته وشمخ بأنفه وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شارته واستبد كل واحد منهم بجانب من الاندلس ودعي نفسه ملكا فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمعتضد والمظفر وأمثالها حتى نعى عليهم ابن شرف عملهم بقوله المأثور

مما يزهدنى فى أرض اندلس — اسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها — كالهر يحكى انتفاخا صورة الاسد

أو كما قال ابن حزم : فضيحة لم يقع فى الدهر مثلها أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها يسمى كل واحد منهم بأمير المؤمنين ويخطب لهم في زمن واحد أحدهم فى اشبيلية والثانى بالجزيرة الخضراء والثالث بمالقة والرابع بسبتة وأصبح العرب والبربر فى خصام مستديم والجميع فى خلاف مع أهل المغرب الاقصي من الجنوب وفى حروب مع بقايا الامم الاسبانية والبرتقالية من الشمال والغرب .

سقطت الاندلس لتشتت أهواء امرائها وأصبح بعضهم « ولا هم له سوى كأس يشربها وقينة تسمعه ، ولهو يقطع به أيامه » واسترسلوا الى اللذات وركنوا الى الراحات ، وأغفلوا الاجناد واحتجبوا عن الناس ، ولم يعودوا ينظرون فى الملك ، ومنهم من قتل كبار قواده ؛ ووسد الامور الى الضعاف فكثرت المظالم والمغارم ، وكثر الثوار مرات بشرق الاندلس وغربها من القضاة وغيرهم ، وهكذا تبدد شمل الجماعة « فضبط أشراف العمالات أزمة أمورهم ، وركبوا ظهور غرورهم ، فأتوا من ذلك بكل شنيعة »

قال ابن حزم : كانت طرطوش وسرقسطة وافراغة ولاردة وقلعة أيوب

فى يد بنى هود وبلنسية فى يد عبد الملك بن عبد العزيز والثغراى مافوق طليطلة من جهة الشمال فى يد بنى رزين وطليطلة فى يد بنى ذى النون وقرطبة فى أيدي أبناء جهور واشبيلية فى يد بنى عباد ومالقة والجزيرة الخضراء فى يد بنى برزال من البربر والمرية فى يد زهير العامرى ثم ابن صمادح ودانيــة وأعمالها والجزائر الشرقية (الباليار) فى يد مجاهــد العامرى وبطليوس ويابرة وشنترين ولشبونة فى يد بنى الافطس وأصبح كل امرىء وما اختار من الالقاب والاسماء حتى ان المســتعين لما جلس على عرش الخلافة قال للناس أجمعــين : ارتعوا كيف شئتم ، وارتسموا بما أحببتم من الخطط ، فتسمى بالوزارة فى أيامه منفردة ومثناة (أى الوزير وذي الوزارتين) أراذل الدائرة ، وأخابث النظار ، فضــلا عن زعانف الـكتاب والخدمة .

قسمت الاندلس بعد سقوط الأمويين ، الى تسع عشرة مملـكة منها قرطبة واشبيلية وجيان وقرمونة والغرب والجزيرة الخضراء ومرسية وبلنسية ودانية وطرطوشة ولاردة وسرقسطة وطليطلة وباجة ولشبونةوغيرها . ولقد كان يخشى بعد هذا التفرق وتراجع أمر الدولة الأموية ان تسقط الاندلس دفعة واحدة ولـكن قدر الله أن يكون ملوك الجلالقة وقشتالة وغيرهم مشتتة كلمتهم متفرقة أهواؤهم وقيض للبلاد دولةأخرىجديدة قوية جاءتهامن الجنوبأى من المغرب الأقصى وهى دولة المرابطين فافرج بها عن العرب بعض الفرج فجاء يوسف بن تاشفين وقاتل الادفانش سنة ٤٨٠ وانتصر عليه وكانت البــلاد الى البوار بسبب استيلاء النصارى عليها وأخذهم الاتاوة من ملوكها قاطبة .

ثم عادت أحوال الاندلس فاختلت اختلالا مفرطاً آخر دولة أمــير المسلمين على بن يوسف أوجب ذلك « تخاذل المرابطين وتواكلهم ، وميلهم الى الدعة ، وايثارهم الراحة ، وطاعتهم النساء ، فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلوا فى أعينهم ، واجترأ عليهم العدو ، فاستولى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم . » . حتى جاء الموحدون كما كان المرابطون من قبل بدعوة عقلاء الاندلس وأمرائها وقد

كانوا يدعونهـم الى نصرتهم بضروب الفصاحـة من الشعر والنثر ويستنفرون الناس من العدوة .

لما اشتدالحصار على أهل اشبيليةسنة ٦٤٥ صنع ابراهيم بن سهل الاسرائيلى قصيدة يستنفر بها الغزاة من العدوة ويستنصر بامراء العرب وذلك اذ كان العدو عليها قال فيها :

يامعشرالعرب الذين توارثوا   شيم الحمية كابراً عن كابر
ان الاله قد اشترى أرواحكم   بيعوا ويهنئكم وفاء المشترى
أنتم أحق بنصر دين نبيكم   وبكم تمهد فى قديم الاعصر

الى أن قال :

والخيل تضجر فى المرابط عرة   الا تجوس حريم رهط الاصفر
كم نكروا من معلم ، كم دمروا   من معشر ، كم غيروا من مشعر
كم أبطلوا سنن النبى ، وعطلوا   من حلية التوحيد صهوة منبر

الى أن قال :

عندالخطوب النكر يبدو فضلكم   والنار تخبر عن ذكاء العنبر
لوصور الاسلام شخصاً جاءكم   عمداً بنفس الوامق المتحير
ولو انه نادى النصير لخصكم   ودعاكم ياأسرتي يامعشرى

نعم كانت التفرقة بين أمراء العرب فى الاندلس مما علم أعداءهم كيف يتحدون ليدفعوهم عن أرضهم كما وقع للعرب فى صقلية سنة ٤٣١ فانهم بعد ان دافعوا عنها جيوش البيزنطيين والنورمانديين والروسيين والفاكريكيين قسموا صقلية الى أمارات صغرى فانشأوا جمهورية فى بلرم وأخرى فى سر قوزة وكان ذلك من أكبر الدواعى فى زوال سلطانهم . لاجرم ان ضعف الوازعين الدينى والمدنى من ميل القوم الى الراحة والدعة وضعف الأخلاق الحربيـة فيهم وانتشار الفوضى فى أحكامهم كان منه ان تأذن الله بذهاب ريحهم لا كما يدعي بعض العامة من أن

رواج سوق الشعر كان السبب في زوال الاندلس وتبديد شمل أهلها فقد كان الشعر عندهم من جملة المسليات لان للعرب عامة غراماً به والأدب وسيلة الى العلوم كافة والعرب أمة أولعت منذ عرف تاريخها بالفصاحة والبلاغة .

ومن تدبر سير الحروب بين العرب والاسبان والبرتقاليين في المدة التي ارتفعت فيها أعلام المسلمين على الاندلس يدرك أن القوتين قوة الغالب والمغلوب كانت متعادلة في أكثر الأيام ولكن تكتب الغلبة للفريق الذي كان جنده منظماً أحسن من جند خصمه وكان بعض خلفاء الاندلس يعتمدون على جنود لهم من الرقيق كالصقالبة وغيرهم ويعفون رعاياهم من التجند على حين كان زعماء الاسبان يصرفون أيام شبابهم في تعلم الضرب بالسيف والرمح لقتال أعدائهم [1] والعرب لايجوزون أن يستبدلوا العادات الحربية بأعمال الزراعة وما في المدنية الراقية من التمتع والهناء فكان الناس في الممالك النصرانية يضطرون الى الخدمة في الجندية ويرافق الاشراف ملوكهم الى الحرب مع أتباعهم .

أما العرب فلا يخرج أحدهم الا الى الجهاد واذا خرج فيكون خروجه على الاغلب متكارهاً لمدة معينة فكانت أوضاع الاسبان حربية محضة تكون لهم بها الغلبة في القتال أما في البحر فكان العرب أشد بأساً وأقوى أساطيل ولهم في كل فرضة من فرض الاندلس سفن معدة وقد أقاموا لهم دور صناعة في المرية وطرطوشة وطرخونة وكانت معامل اشبيلية وقرطاجنة تخرج كل سنة سفناً جديدة تمخر في عرض البحار .

استولى الملوك من بني الأحمر قرنين ونصف قرن كما تقدم لنا الكلام في ذلك

(١) وصف لسان الدين أمة قشتالة بقوله : وحال هذه الامة غريب في الحماية الممزوجة بالوفاء والرقة ، والاستهانة بالنفوس في سبيل الحمية ، عادة العرب الاول واخبارهم في القتال غريبة من الاسترجال ، والرحف على الاقدام ، اميرهم ومأمورهم ، والجثو على الارض ، او الدفن في التراب ، والاستظهار في حال المحاربة ببعض الالحان المهيجه ، ورماتهم قسيهم عربية جافية ، وكلهم دروع ، ولا لجام عندهم ، والتقهقر مقدار الشبر ذنب عظيم وعار شنيع ، ورماتهم بسبقون الخيل في الطراد ، وحالهم في باب التحلي بالجواهر وكثرة آلات الفضة غريب اهـ

وهم الذين استولوا علي بقايا مجد العرب بعد ان انتصر سلطانهم سنة ٦٦٣ ه علي الفرنج واسترجع منهم اثنين وثلاثين بلداً من جملتها اشبيلية ومرسية ثم عاد العدو وأخذ بمخنقهم ولكن لم ينل منهم لاجتماع كلمتهم فى الداخل على الجملة ولما دب الهرم فى جسم دولتهم وقوى الاسبان باتحاد ازابيلا ملكة قشتالة وفرديناند ملك الاراغون أي باتحاد المملكتين الرئيستين فى الشمال تأذن الله بفناء الاندلس فلم يبق أمامهم الا التسليم والاستسلام وفى ذلك كان هلاكهم وبوارهم .

جبل طارق وطنجة

١٠٨

كان جبل طارق الذى نسب الى طارق بن زياد فاتح الاندلس وهو المكان الذى بلغه فى جيشه أواخر المئة الاولى بأيدى العرب مدة استيلائهم على الاندلس فلما دالت دولتهم عاد الى الاسبان ولبث فى حكمهم الى القرن الثامن عشر واستولى الانكليز عليه فى سنة ١٧٠٤ واحتفظوا به رغم محاولة الاسبان فى سنة ١٧٠٤ — ١٧٧٩ بمعاضدة الاسطول الفرنسوى للاستيلاء عليه فلم يستطع الاسطولان الفرنساوى والاسبانى تخليص هذا الحصن من أيدى الانكليز .

يعلو جبل طارق عن سطح البحر ٤٢٥ متراً وهو متصل مع القارة الاوروبية بسهل من الرمل فيه بطائح ويشرف على المدينة . وقد جعل الانكليز فيه قلعة شحنوها بالمدافع فجاءت من أحصن مافى العالم من الحصون . فهو فى الحقيقة قطعة من أرض اسبانيا ولكنه انكليزي الحكم والنظام يشرف على البحرين المحيط والمتوسط ويأخذ بمخنق السفن الغادية والرائحة بين القارات الثلاث أوربا وأميركا وأفريقية .

يبلغ سكان جبـل طارق اليوم ٢٢ ألفاً ماعـدا الحاميـة الانكليزية وأهلها مزيج من شعوب أوربا وأميركا وآسيا وأفريقية وكذلك ابنيتها مزيج من طراز الابنية عند الامم الكثيرة واللغتان الشائعتان هنا الاسبانية والانكليزية . ولا يحق اليوم لغـير الانكليزى التبعة ان يقتنى ملكا في هـذا المرفأ الضيق النطاق ويراقب الاجانب فيه مراقبة شديدة والمدينة كلها عبارة عن شارع واحد ضيق بنى فى الغالب منذ قرنين وعلى مقربة من جزيرة طريف وهى أشبه بقلعة كبيرة مشرفة على البحر .

جئت جبل طارق من غرناطة وانتهيت بالجزيرة الخضراء آخر عمل اسـبانيا والمسافة بين هذه الجزيرة وجبل طارق بضع دقائق يجتازها المجتاز على ظهر سفينة .

وعلى بضعة أميال من جبـل طارق ترى مدينة طنجة قائمة على البحر في بر العدوة من ثغور الغرب الأقصى وأول أرض أفريقية يقع نظر الخارج من القارة الاوربية عليها فينتقل السائح انتقالا فجائياً من مدنية راقيـة الى مدنية مشعثة منحطة وليس بين القارتين الاوربية والافريقية الا مجاز صغير كان العرب يسمونه الزقاق .

اغتنمت فرصـة انتظار الباخرة الانـكليزية التى تسافر من جبـل طارق الى مارسـيليا فى يومين فزرت طنجة وطوفت فى ارجائها وسكانها اليوم نحو أربعين ألفاً فيهم كثير من الاسبانيين والبرتقاليين والطليان والفرنساويين وهى من المدن التى استعمرها الفينيقيون فيما مضى ولا تزال محتفظة بطرازها الشرقي على كثرة ماتداول عليهامن الأمم بعدالاسلام فقد استولى عليها البرتقاليون سنة ١٤٧١ م والانـكليز سنة ١٦٦٢ وحاصرها الفرنسيس سنة ١٨٤٤ وبقيت منذ ذاك الحين فى يد المراكشيين وهى الآن مشاع لـكل الدول أو تحت حمايتهم ويتنازعها الفرنسيس والاسبان كما يتنازعون على السبق فى حماية بلاد الغرب الأقصى . ويقيم فيها كثير من معتمدى الدول والسلاطين المخلوعين من أمراء المسلمين فى الغرب الاقصى أمثال مولاى عبد العزيز ومولاي الحفيظ .

نعم ان المراكشيين مازالوا فى هذا الثغر وما وراءه من البلدان على تصلبهم فى عاداتهم رغم التيار الشديد الهاجم عليهم من أوربا وهم منها على ثلاث ساعات بحراً لا يفصلهم عنها الا بحر الزقاق وبين طنجة والجزيرة الخضراء اثنا عشر ميلا « وهو أضيق موضع فيه وأوسع موضع فيه نحو ثمانية عشر ميلا » قال الفقيه المرادى المتكلم القيروانى بعد خلاصه من بحر الزقاق ووصوله الى مدينة سبتة :

سمعت التجار وقد حدثوا بشدة أهوال بحر الزقاق
فقلت لهم قربونى اليه انشفه من حر يوم الفراق
فلما فعلت جرت ادمعى فعاد كما كان قبل التلاق

علم المشرقيات فى اسبانيا

١٠٩

كان على اسبانيا وتاريخها مرتبط بتاريخ العرب ثمانية قرون ان تكون اول دولة غربية تعنى باللغة العربية ولكنها تعد من الاواخر لان الارتقاء يتبع بعضه بعضاً ولا تنفق امة الا مما عندها ومع هذا حدثنا التاريخ ان اول مدرسة (١) عربية أنشئت فى طليطلة اوائل القرن الحادي عشر ومن هذه المدرسة نشأت تربية الاسبانيين على مناحى العرب وفى سنة ١١٣٠ أنشأ رئيس اساقفة طليطلة مدرسة للتراجمة فى هذه المدينة وبها رسخت اللغة العربية والافكار العربية فى اسبانيا المسيحية . وكان من نتائج وقعة العقاب ان حررت اسبانيا من رق العبودية للمسلمين وأدرك ملوك قشتالة ان ليس من العقل مقاطعة الماضى القديم وانهم فى حاجة بعد الى أن يتعلموا من معلميهم القدماء ومنافسيهم الالداء من العرب فحاول الفونس العاشر أن يعمل لاسبانيا المسيحية ماعمله العرب لاعلاء

---

(١) مجلة المقتبس المجلد الرابع .

شأن الاسلام وذلك بالاخذ باحسن مافي الحضارتين ومزجهما بالحضارة الاسبانية فأسست سنة ١٢٥٤ فى اشبيلية مدرسةعامة لاتينية عربية وحفظ لمدينة مرسية رونقها العربي الصرف واستدعى الى عاصمته العلماء من جميع الملل والنحل ليؤسس مدرسة طليطلة الثانية وقوامها اختياراحسن المعارف النافعة وهي أقرب الى التسامح من المدرسة الاولى اذ كانت تجمع الى التقاليد اللاتينية الحضارة العربية والعلم العبراني .

كان لليهود يد طولى فى نقل العلوم من العربيــة الى اللاتينية لأن المرابطين والموحدين الذين استولوا على الاندلس بعد الامويين كانوا الى التعصب . بددوا كتب الفلسفة وأحرقوها ليرضوا بذلك العامة والفقهاء ولولا تراجم الاسرائيليين لضاع كثير من أوضاع مدنية العرب في الاندلس .

ثم بدا لرجال الدين من الاسبان ان يسعوا في نشر دينهم بين المسلمين فاخذوا يعنون باللغــة العربية ليتعلمها الرهبان ويجادلوا مخالفيهم بالبرهان فوضع أحــد الدومنيكيين أول معجم عربي باللغة الاسبانية سنة ١٢٣٠ وفى سنة ١٣١١ — ١٢ امتدح البابا اكلمنص الخامس فى أحد المجامع الدينية من انشاء درس لتعليم العربية فى مدرسة صلمنكة وفى أواسط القرن الثالث عشر كان الدومنيكيون مثال الغيرة فى نشر اللغات الشرقية بين أبناء رهبنتهم ومنها العربية وأنشأ صاحب أراغون مدرسة لتعليم اللغات الشرقيــة فى ميرامار وأنشأ المجمع الديني فى طليطلة ينفق على طغمة من الرهبان مؤلفة من ثمانية أشخاص انقطعوا لدراسة العربية وعلى هذا ظلت الجمعيات الدينية ولاسيما الفرنسيسكانية الى القرن الثامن عشر فى اسبانيا هى القائمة بدعوة المستشرقين الى درس آداب الشرق ولغاته وتاريخه .

ولم تنل مدرســة صلمنكة شهرة طائلة فى أوربا حتى غدت احــدى المراكز العلمية الأربعة وهى باريز واكسفورد وبولون الا أنها بتأثير العلم العربى أقامت على أساس معقول تعليم العلوم الطبيعية والطب ولم يكن فى مدرسة صلمنكة في أواخر القرن الثالث عشر غير خمس وعشرين حلقة للتدريس منها حلقة لليونانية

وأخرى للعبرانية وثالثة للعربية فأصبحت في القرن السادس عشر سبعين حلقة فيها سبعة آلاف طالب .

ولما اعلن الاسبانيون الحرب على جنسية العرب ومدنيتهم ودينهم ضعفت العناية باللغة العربية ولم يكتف القوم باستصفاء جميع الجوامع وجعلها كنائس بل أخذوا ينصرون المسلمين بالاكراه وفى سنة ١٥٠١ - ٢ طردوا من مملكتى قشتالة وغرناطه كل من ظلوا محافظين على الاسلام ولم يعد للدومنيكيين والفرنسيسكانيين من حاجة لتعلم العربية ليتمكنوا من مجادلة الفقهاء وتخلوا عن علومهم لانها افسدت أفكارهم وزهد المسيحيون فى علوم المسلمين وقام فى أذهانهم انها خطر عليهم .

صدر أمر الكردينال كسيمنس سنة ١٥١١ بعد ان أحرق فى ساحات غرناطة كمية من الكتب العربية ان تباد كتب العرب من بلاد اسبانيا عامة فتم ذلك فى نصف قرن ولولا المترجمات منها الى العبرية واللاتينية لبادت مدنية العرب من تلك البلاد . وأخذ ديوان التفتيش الدينى على نفسه ابادة كل أثر للعرب وما كان متنصرة المغاربة الذين دانوا بالنصرانية مكرهين ليستطيعوا ابداء أسفهم الا سراً وفى الكتب العربية المكتوبة بالعجمية أى المكتوبة بحروف اسبانية دليل على تعلق أولئك المتنصرة بقديمهم .

وفى سنة ١٥٥٦ منع فيليب الثاني متنصرة المسلمين من استعمال اللغة العربية وأرادهم على أن تنزع من أسمائهم التراكيب العربية وعن أجسامهم الالبسة الشرقية ليمزجهم بزعمه فى سواد أبناء المذهب الكاثوليكى ثم طردوا على عهد فيليب الثالث وكان عددهم نحو مليون نسمة على صورة قاسية سخيفة ولم يبق من الحضارة العربية واللغة العربية فى اسبانيا غير ذكراها وزهد القوم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فى تعليم العربية فى اسبانيا اللهم الا على طريقة افرادية وغدا الاطلاع على العربية نقصاً ولربما اتهم من يتعلمها بالالحاد بعد ان كان أهل الطبقة العليا من الاسبان أيام عز العرب يحلون باقوال فلاسفة العرب كلامهم

ويدرسون الفلسفة العربية درس مستبصر مستفيد لا درس ناقد عنيد ويعدون الاطلاع على الآداب العربية من أمارات الظرف والكياسة .

وعلى هذا لم يبق لمدرسة الفرنسيسكان فى أشبيلية من أساليب تعلم العربية الا أثر ضئيل وأراد شارل الثالث أن يعيد الى اسبانيا عهد الآداب العربية فاستدعى لذلك رهباناً موارنة من سورية ليعلموا الاسبانيين لغتهم الاصلية الثانية ويحق للنصف الثانى من القرن الثامن عشر ان يباهى باساتذة متمكنين من أسرار العربية فى اسبانيا .

ولما ادخل الاصلاح الى الكليات القديمة فى أواخر النصف الاول من القرن التاسع عشر عادت العربية تدرس فى جامعات اسبانيا رسمياً ولما استلمت الحكومة الاسبانية سنة ١٨٥٧ زمام اصلاح التعليم من دون رجال الدين او الملك أو الاشراف ربحت اللغة العربية حتى كادت تعود اليها حياتها التى كانت لها فى شبه جزيرة اسبانيا من القرن الثانى عشر الى القرن الخامس عشر فاخذت معرفة اللغات والآداب العبرية والعربية تدخل من تلقاء نفسها فى قائمة دروس التعليم العالى وأخذ المستعربون ينتفعون من المخطوطات العربية المحفوظة فى مكتبة الاسكوريال ومكتبة الامة ومكتبة المجمع العلمى التاريخى ومن المخطوطات العربية المكتوبة بحروف عبرية المحفوظة فى كاتدرائية طليطلة . دع مكتبة خزائن كايانكوس وكودرا وريبرا وآسين وغيرهم من رجال المشرقيات .

والعربية اليوم تدرس رسمياً فى كلية مجريط وغرناطة وبرشلونة وصلمنكة وبلنسية وأشبيلية وغيرها ولكن التدريس فيها مهمل والمدرسون غير كفاة الا فى العاصمة و بعض الولايات وقد نشر المستشرقون من الاسبان منذ أواخر القرن التاسع عشر كتباً عربية كثيرة متعلقة بتاريخ الاندلس وتراجم رجاله وبعض العلوم التى اشتغلوا بها ومنها الجيد وأكثره مملوء بالاغلاط والتحريف وهو دون مانشره الهولانديون والجرمانيون والبريطانيون والطليان من هذا القبيل من حيث الصحة والاتقان .

وأنت ترى ان الاستشراق العربي كان الدين هو الداعي اليه كما كان في معظم بلاد أوربا ثم امتزج الدين بحب المدنية ثم امتزج كلاهما باسم الاستعمار ولكن المحصول في شبه جزيرة ايبريا أي في اسبانيا والبرتقال قليل . وفي جامعة لشبونة عاصمة البرتقال درس عربي اليوم ومدرسة الاستاذ لوبيس الذي نشر بعض الكتب العربية فهو المرجع في البرتقال اليوم كما أن الاستاذ آسين مرجع الاسبان في مجريط وكلاهما عضو في المجمع العلمي العربي .

اسبانيا بعد العرب

١١٠

من القى نظرة بليغة على تاريخ شبه جزيرة اسبانيا يوقن ان الانحطاط دب في اهلها منذ قرون وان تراجع امرها يرجع تعليله الى امور كثيرة افاض فيها الاجتماعيون والمؤرخون والحكماء ، وانحطاط الاسبان كيف كانت الحال مؤكد لايختلفون هم فيه ومنهم من يقول ان منشأه حروبهم مع العرب وفتح امريكا فنفدت قوة الامة في اعمال هي الجنون بعينه . ويقول ـ القشتاليون ان حلوس ملك غريب على عرش اسبانيا انتج سلسلة من المصائب مازالت حتى اليوم تجرع صاب عذابها . ويزعم بعض مؤرخيهم ان الاصل في انحطاطهم كون البلاد قاحلة والطبيعة لم تساعدها على النمو . ويدعي آخرون ان السبب في بقاء اسبانيا منحطة ميل الشعب الى المقاومة والمشاكسة وغرامه في الاستقلال بحيث انقلب ذلك الى فوضى وغدت بلادهم مسرحا للفتن الاهلية وشغلت برد غارات المغيرين عليها ويدعي فريق آخر ان هذه الاخلاق في الاسبانيين وتحمسهم في رد غارات العدو وتغني اهل كل صقع بمزاياهم وركونهم الى العزلة والاستئثار ـ كل ذلك من امارات الوطنية فيهم وان كانوا في الاكثر اذا شكا عضو من أعضاء البلاد او قطر

من اقطارها لايشاركه فى شكواه جاره ولا اخوه . وعماد الوطنية عندهم هو الدين الكثوليكي يسيرون سيره ويندفعون بدوامله . ولا شأن فى اعمالهم للآراء التى تمليها المصلحة وتنبعث من عظمة الامة . وينسب بعض الكتاب الذين كتبوا عن اسبانيا عقب انحلال مملكتها الاستعمارية السر فى انحطاط امتهم الى تشبعها بدين مملوء بالخرافات ممزوج بالتصرف ويجيب آخرون ان ضعف الوازع الدينى فى قومهم هو الذى كان به مبدأ انحطاطهم وما قام مجدالا منه قديما الا بسائق الدين فلما قل المتقدون كثر المنحطون .

ويقول فوليه : اذ اسبانيا مؤلفة من عدة ممالك وفيها الاهوية المختلفة فالشمال منها اوربي والجنوب اشبه بقطر افريقي ـ فيه الليمون والبورتقال والتمر والرطب وانها في بعض اصقاعها تشبه روسيا حرها مدة ثلاثة اشهر من السنة كحر جهنم وشتاؤها تسعة اشهر وقد فطر الاسباني على شيء من القسوة تشبه لفحات جباله وفيه جفاء كطبيعة تربته ومحرق شمسه وانه ظل افريقياً وان كان يعد فى الاوربيين

ومزاج الاسباني صفراوى عصبي ومعنى ذلك ان في باطنه حرارة شديدة تحرقه فيعرف كيف يقمع هواه المذيب وان في استطاعته ان ينام على احقاده طويلا حتى اذا عرضت له الفرصة وثب ، وهم قساة على الحيوانات الاهلية قساة على الانسان قساة على انفسهم . وقد جاءتهم القسوة من اعتيادهم النظر الى الانسان يحرق بالنار ايام ديوان التفتيش الدينى وما زالت القسوة متسلسلة فى دمهم يساعدها ايضا اعتياد الاسبان صراع الثيران واذا ادعى بعضهم ان صراع الثيران يورث النشاط ـ ومتى كانت قسوة القلب تورث نشاطا ـ فان هذا الصراع هو التوحش بعينه وليس من الضرورى اهراق الدماء حتى ينشأ ابطال

الاسبانيون صادقون مخلصون اذا أعطوا عهدا وعندهم شعور بالاحترام والشرف وهم كرام يحبون اقراء الضيفان وربما زاد هذا الخلق فيهم فى الجنوب اكثر من الشمال ولكن لايجزم بانهم يميلون كثيرا الى الانسانية

اما تعصبهم فبه يضرب المثل وكان منه فساد أمرهم . قالوا ان التعصب بالنسبة للدين بمثابة الغيرة بالنسبة للحب واذ كان الاسبانى غيوراً جداً فى حبه فهو

متعصب جداً لدينه ومع هذا فقد رأينا الايطالى غيوراً فى حبه ولكنه غير متعصب فى الدين . قال فوليه ان أغناس دى لويولا (مؤسس الرهبنة اليسوعية) على ما كان فيه من المضاء والفتوة قد ساعد بدون أرادته على أضعاف بلاده لأن فساد آداب جماعته من الاسبان ومراقبتهم كل ضرب من ضروب الحرية كانا من الاسباب التى قضت على النفوس بالانحطاط . قال ولم ينشأ فى اسبانيا فلاسفة لأنه لايتأتى تحت سلطة ديوان التفتيش أن يتفلسف المرء بل يكون نصفه لاهوتيا والنصف الآخر فيلسوفاً والى اليوم لايزال الحال كذلك ليس للفلسفة من يمثلها في اسبانيا فى الحقيقة وتفس الامر

لاجرم أن الاسبانى شأن كل أمة انحطت يحتاج الى دراسة تاريخه دراسة تدبر وهو اليوم متأخر جداً فى مضمار العلوم ـ والتربية . وقد غرس فى العنصر الاسبانى الصبر والثبات وحب الأقدام . ودعا اختلاف طبيعته الى تخالف السكان فى المناحى والمنازع وكان كل جزء من البلاد قبل انشاء الخطوط الحديدية والطرق المعبدة منعزلا بذاته ضمن حدوده فاضطرت الشركات الى فتح زهاء مئة نفق طويل فى انحاء البلاد حتى يتيسر ربط الأجزاء المهمة بعضها ببعض وكذلك الحال فى صعوبة المواصلات البحرية فان فرصها وسواحلها على كثرتها وطولها صعبة المجاز على السفن . ومع هذا رأينا أمماً كثيرة غزت شبه جزيرة ايبريا مثل الايبريين (الذين سميت الجزيرة باسمهم) والسلتيين والفينيقيين واليونانيين والقرطاجنيين والرومانيين والسوافيين والفانداليين والوزيغوطيين والعرب والاسرائيليين والسوريين والبربر والمراطين والموحدين

ولم تمتزج تلك الشعوب التى دخلت اسبانيا على توالى القرون فى بودقة واحدة وكان السكان على الدوام متخالفين فى طبائعهم تخالفهم فى بيئاتهم بل لم تتم وحدتهم على ماهنالك من صلات ضعيفة سياسية لان أفراد الامة لم يتعاونوا كلهم على تأليف هذه الوحدة . فانا نرى البغضاء قد تأصلت فى قلوب الاسبانيين فليس التنافر على أتمه بين ابن الشمال وابن الجنوب فقط بل بين أهل المدن المتجاورة

شأن الأمم المنحطة . كان الاسبانيون وما زالوا وابن قشتالة منهم ينفرون من ابن الاندلس ويحتقرونه وأهل برشلونة يبغضون أهل بلنسية وأهل طرخونة يكرهون أهل رية وأهل مرسية لايميلون الى القرطاجنيين وأهل قادس يمقتون أهل شريش وهكذا يستعدى أهل كل مدينة أهل المدينة الأخرى ولولم يقم منهم ملوك عقلاء يضمون بالقوة شملهم ويدفعون العرب عن بلادهم لما قامت لهم قائمة وقيل لولم ينضو أمراء النصرانية فى تلك الحقبة ـ من الزمن تحت لواء واحد لكان الخطر على النصرانية نفسها وكان الواجب أنه لايتأخر اتحاد الاسبانيين حتى يقوم الملوك المتأخرون بلم شعثهم ولولم يكن أمراؤهم مختلفين بينهم وكذلك كان يصعب زحزحة العرب عن سلطانهم لولم يكونوا على اختلاف بينهم أيضاً .

ولقد كان أهل قشتالة يرون لسلامة اسبانيا ـ وهم الذين قاموا بأعمال مهمة فى جمع سلطان الاسبان وطردوا العرب من الاندلس أن يقطعوا شأفة المخالفين لهم فى الدين من العرب النازلين فى اسبانيا ولولم تفتح أميركا وتشتغل اسبانيا فى حرب فرنسا وانكلترا وتبدد قوتها فى الممالك التى ضمت اليها من طريق الارث لتم لها ماتريد من فتح مراكش .

لم تستفد اسبانيا من فتوحها لأن ملوكها كانوا يدبرون أمرها على هواهم ويربطون أهلها برباط الدين ولكن هذه الوصلة لم تقو على نزع الفوارق فى طبائعهم وعلى كثرة تحمس الفرد للوطنية لاتتعدى حماسته اسوار بلده خلافاً للفرنسيس والانكليز والالمان والطليان وغيرهم من الامم الكبرى فانها نهضت متحمسة حماسة ناشئة من نصر أحرزته وغلبة تمت لها على حين ترى اسبانيا لم تحرز مثل هذه النتيجة من انتصاراتها فى بلادها وفى الخارج وأن فقد الشعور الوطنى هو أهم عامل فى انحطاط اسبانيا تضاف اليه أسباب سياسية واقتصادية .

***

لا مراء فى أن النسبة مفقودة بين المشاريع التى قام بها ملوك اسبانيا وبين موارد البلاد الحقيقية من حيث الاقتصاد والجندية . ومن الجنون أن يعتقد أن

التوسع فى الفتوح فى الخارج ينمى قوى المملكة . ومن أبشع الجنون أن يعتقد ملوكهم أن مناجم الذهب فى العالم الجديد أميركا لا تنضب أبداً وأن الذهب المجلوب من أميركا يغنى الامة على وجه الدهر . قال فوليه : وكان فى افتتاح الاسبان أميركا باعثاً على تقلقل النفوس وتزعزع المبادىء فأصبح الناس يرقبون الفرص للاغتناء ونسوا أن الثروة بالعمل والاستمرار ولذلك قل فيهم المتشردون اذ رأوا كثيرين منهم اغتنوا بالمصادفات وآخرين افتقروا كذلك . وهكذا ماتت الارادة فى هذا الشعب . وما تاريخ استعمار اسبانيا الامثال وأى مثال لشعب ينتحر .

ثم ان ديوان التفتيش قرض بيوتاً وأسراً كانت مباءة ذكاء وجرائيم فهم وعلم فبقصائه عليها قضى على الصناعات والفنون والآداب . وكانت اسبانيا تستعمل فى دعايتها للدين « النار والحديد » فتسطو على الوجدانات المتحمسة وتقضى على الارادات القوية ثم تستكثر من الرهبنات فتكثر من العزب فيزيد العقم ويقل النسل ثم ان حروب شارلكان الجنونية ولا سيما فتح أميركا حرم البلاد أهل النشاط والاقدام وأضعف طبقة الاشراف بل قرض العالم من القرى فاقفرت وأغلقت بيوت برمتها وان طرد اليهود من اسبانيا سنة ١٤٩٢ وجميع سكانها الذين كانوا من أصل عربي بين سنة ١٦٠٩ ـ ١٦١٠ قد حرمها شعباً عرف بهمته ومضائه فحلت محل العاملين حثالة من الناس كانت أقرب الى الكسل المغروس فى سكان الجنوب المعروفة باحتقار الاعمال اليدوية وكثر التسول وحظر رجال الدين الاستحمام لأنه يشبه الوضوء عند المسلمين بزعمهم فكثرت الأمراض الجلدية وتعذر على الأطباء أن يصفوا لمرضاهم النظافة والاغتسال مخافة أن يفشو أمرهم ويقعوا تحت طائلة القصاص .

والظاهر أن الاسبانيين لم يكن لهم فى دور من الادوار ذوق فى الاشغال اليدوية وكانت بلادهم قليلة السكان قبل نزوح العرب منها فما بالك بها بعدهم ومدنها قليلة وكذلك العامر من قراها فهى من هذه الوجهة لا تشبه فرنسا ولا ايطاليا بحال من الأحوال . وبعد فاذا كانت الصناعة والتجارة قد بلغتا درجة

حسنة فى بعض العصور والامصار فى اسبانيا فذلك بفضل العرب والغرباء عن البلاد . وما زالت معامل اشبيلية وبرشلونة مشهورة بنسيج صوفها وقطنها وحريرها وأسلحة طليطلة وجلود قرطبة معروفة منذ عهد العرب هناك . فللغريب الى اليوم اليد الطولى على اسبانيا ومعظم المشاريع العمرانية فيها لجماعة من الانكليز والفرنسيس والالمان وغيرهم .

اذا اشتهر عن الاسبانى أنه من نسل أمة حربية فلم يعرف عنه أنه من أمة جندية . وشتان بين من يحارب منفرداً لحساب نفسه وفائدتها وبين من يقاتل صفوفاً صفوفاً بانتظام لنفع وطنه وخدمة غرض شريف ترمى اليه أمته فقد كانت عدة المحاربين تحت العلم الاسبانى من غير الاسبان فى حروب ايطاليا والفلاندر تسعة أضعاف المحاربين من أهل العنصر الاسبانى وهكذا فى كثير من حروبهم فى جنوب أميركا وفى جزائر البحر .

كان رائد حروب الفتوح الثاني La Reconquista الفكر الدينى فى الامة وموردها اموال الرهبان وبركات البابا الرسولية وتنشيط الاشراف فلما اراد الاسبانيون أن يعملوا خارج تخومهم حاتهم القوى وأعوزهم المال والرجال ولقد ذكر العارفون بان ما ساعد على انحطاط اسبانيا اكثر من فقر تربتها وبوار اراضيها وشقاء سكانها واوهام حكامها وفتح امريكا وطرد العرب واليهود منها فخرمت بطردهم موارد كثيرة من الرجال والعقول الذكية المفكرة ـ ان ما ساعد على انحطاطها فى الاكثر كان اعتزالها الدينى الذى فصلها عن بقية العالم واهم ذلك رسوخ اقدام قوميات فى ارضها ولم يشعر الاسبان فى زمان من أزمنة تاريخهم بانهم متضامنون ولذلك كانت الامة تدفع المال لرجال تستأجرهم جنودا حتى اذا ظفروا فى القاصية تقيم الاعياد والحفلات تكريما لهم وادهش من ذلك ماقال احد المؤرخين : بين اكثر أمم اوربا عقيب النهضة تحاول ان تكسر قيود الرق الدينى كانت اسبانيا تقاوم كل فكر اصلاحي يرمى الى التجدد وتقاتل فى ارضها وخارج ارضها كل مايراد منه تحرير العقول من الاستعباد فكانت اسبانيا تساعد البابابوية الايمن فى الضرب

على ايدى المجددين والمصلحين الذين كانت تنبعث انوار عقولهم فى الغرب بسرعة البرق

وكان من جهاد اسبانيا ان فقدت جميع املاكها ومستعمراتها الخارجية عن حدودها الطبيعية وان خرجت عنها البرتقال وكادت بلاد الكتلانكيين ان تودى معها واقتطعت انكلترا من ارضها جبل طارق وجاءت عليها ادوار قويت فيها الضغائن واشتد فيها الفقر وكثرت الضرائب ولا يستثنى من هذه الا رجال الدين وطبقة الاشراف حتى كادت اسبانيا ان تقسم اجزاء كما قسمت بولونيا قديما

وكلما قام المصلحون فيها أذوا وقتلوا حتى كان احد ملوكهم يقول ان الاسبانيين كالاولاد يبكون كلما حممتهم وغسلتهم. وما زالت البلاد على الرغم من حكمها الدستورى فى نزاع بين القديم والحديث ولا سلطان فيها الا لرجال الدين والجيش وبعبارة ثانية لرجال الدين وحاشية الملك الذين يخدمون على الاغلب مصالحهم الشخصية. اما النواب فيوشكون ان يكونوا اسما بلا مسمى وليس هناك رأى عام ولا جماعة من المنتخبين والنواب قد ينتخبهم الوزراء ويقرهم الناس وتكاد اسبانيا لا تشبه بادارتها الحكومات النيابية الا قليلا وذلك لان كبار الموظفين الذين يختارون اعضاء لمجلس الشيوخ ـ كالقواد والحكام ورؤساء الاساقفة قد اعتادوا ان لا ينظروا المسائل التى يبحثون فيها الا من حيث مصالح طبقاتهم الخاصة وهكذا بقية طبقات الاشراف والمنتخبين من الولايات لا يجرون الا على هذا المثال اما القضاء فيكاد يكون هزؤا والدعاوى تكلف نفقات باهظة أكثر من كل ممالك أوربا والذى يوكل اليه جلب الجناة قد يفسح لهم في الاكثر مجال الهرب مقابل مال قليل لأن الدرك يتقاضى راتباً ضئيلا فهو شريك المجرمين والجناة والمتهمين والبلاد أبداً غاصة بجمهور منهم وقد قال أحدهم : ان اسبانيا لا يحق لها أن تحسد مراكش على قضائها لان القضاء فى الأولى هو كالقضاء فى مراكش الى الانحطاط والسقوط. وسوء الاستعمال محسوس الأثر فى كل عمل من أعمال الحكومة هناك.

لايقـل عمـل العمال فى دواير الحـكومات الاوربية كما يقل فى حكومة اسبانيا فان من موظفيها من لايعمل أكثر من ساعتين ومنهم من يأتون خلسة الى دوائرهم ثم يذهبون حالا دون أن يأتوا بعمل . ومتى فوضت الوزارة الى أحدهم وزارته لا تطول أكثر من أشهر — لايفكر فى عمل مفيد بل يحرص على يقين أقاربه والمخلصين له فى المناصب . ومن أقبح قواعد الادارة فى اسبانيا تأسيس اللامركزية الشديدة فترى الولايات لا تستطيع أن تعين شرطياً ولا حارساً بل أن حق التعيين من شأن العاصمة مجريط ولا بسط المسائل ملفات من الاوراق طويلة عريضة لاينظر فيها أشهراً وصاحبها يذوب كمداً على نجاز عمله . واذا خلت وظيفة التدريس فى احدى مدارس الولايات لايعين الخلف قبل مضي شهرين أو ثلاثة فتغلق المدرسة خلال هذه المدة ويتشرد الأولاد .

وليس للاعمال الصحية أثر في غير المدن أما القرى والدساكر فانها محرومة من كل نظام صحي . وتخف التبعة الملقاة على عاتق الموظفين بنسبة أعمالهم ولا ترى فى الحقيقة أحداً يسأل عن عمله والشعب لايهتم الا لارضاء سادته ورؤسائه وقلما يثور للمطالبة بحق له الا اذا فقد الخبز أي بسائق الجوع ولا يثور دفاعاً عن أفكاره وأمانيه الوطنية . الشعب الاسبانى ملكى يتفانى فى الحـكم الملكى كما هو مغموس فى الدين وكان لرجال الكنيسة عندهم فى كل دور شأن وأي شأن . وجميع الحروب المدنية التى نشبت فى اسبانيا لم توقد جذوتها الا باسم الدين فاذا بدأنا بحرب الاسبان مع العرب لانقاذ اسبانيا من حكم هؤلاء نجد العامل الاكبر فيها — اختلاف الاديان . وهكذا مقابلة الاسبان للاصلاح الدينى وحرب الاستقلال وكانوا يحاربون فيها الفرنسيس لالحادهم أكثر من حربهم لهم لانهم أعداؤهم الذين قهروهم وغلبوهم على أمرهم ولولا حماية الاسطول الانكليزى ما وجدت البرتستانتية لها منفذا فى بعض مدن الساحل من اسبانيا

لئن كانت المرأة فى اسبانيا لاشأن لها فى الشؤن العامة وتعد ذات مقام منحط بخلاف ممالك اوروبا الراقية فلها شأن فى بعض المسائل التى يهتم لها رجال الدين

فيسوقونهن الى التدخل فباليس من خصائصهن توصلا الى مقاصد لهم . ومقاصد الرهبان هنا كثيرة لأن الرهبنات تملك نحو ثلث أراضى المملكة ولها عقارات وشركات منها ما تستثمره علناً ومنها ما تستثمره بالواسطة . وسلطة الرهبان وثروتهم تزيد مع الايام قوة واستحكاماً وفى اسبانيا زهاء سبعين ألف راهب يتقاضون من ميزانية الحكومة أربعين مليون بستاس أي ثمانين مليون فرنك فى السنة علاوة على ما لهم من ريع أملاكهم ولقد سألت أحد الاسبانيين ذات يوم عن الصناعات الرائجة فى بلادهم فأجابني بين الهزل والجد : عندنا ياسيدى ثلاث صناعات رائجة وهى صناعة الرهبان وصناعة النسوان وصناعة الثيران [1]

كانت اسبانيا فى اوائل القرن الماضى امة زراعية يحكمها الرهبان والقضاة فاستحالت من سنة ١٨٠٣ الى ١٨١٥ امة حربية وكان للجيش المقام الاول فى كل عمل حتى صار ينفق ستون فى المئة من ميزانية الدولة على الجيش . وأتي عليها زمن في اواخر حرب كوبا وعندها ٤٩٩ قائدا و٥٧٨ زعيما وزهاء ٢٣ الف ضابط اى نحو خمسة او ستة اضعاف مايلزمها لجيشها المنظم . فاصبحت القوتان العظيمتان الرهبنات والجيش تستنزفان قوة البلاد المادية والمعنوية يضاف الى ذلك سوء إدارة الحكومة هناك ففقد التناسب فى أجزاء البلاد واختل تقويمها وقلت رغبة

---

(١) كان صراع الثيران الى القرن السادس عشر خاصاً بالفرسان يعمدون اليه للتمرين الحربى أو للاحتفال باعياد وكان فيه خطر على حياة المتصارعين اذ يقضى على الفارس أن ينحر الثور برمحه وفى أوائل القرن الثامن عشر أصبح صراع الثيران أقل خطرا وجعلته الحكومة للفرجة وانشأت له معاهد وهى تربو على مائتى معهد فى اسبانيا لها أوقات معلومة فى السنة ويفتخر من كان ثوره عاصيا على الصراع والنزال اذ يدل على مبلغ عنايته وتربيته أما اذا صرعه فحدث عن تفاخره ولا حرج . وقد أقامت الحكومة ميادين لصراع الثيران تتسع لالوف من المتفرجين وذلك فى أمهات مدنها فميدان بلنسية يسع ستة عشر ألفا وميدان أشبيلية اثني عشر ألفا وميدان غرناطه سبعة عشر ألفا وهكذا أحدثت اسبانيا ساحات لهذه الفرج فى مالقة وسرقسطة وصلمنكة وقادس ومجريط والجزيرة وبرشلونة وغيرها أقل ما يسع منها تسعة آلاف نسمة ومن ذلك نحكم على مبلغ صبابة القوم بصراع الثيران ومكانته من نفوسهم .

السكان فى العمل ومنهم من يعدونه شائنا فيدعون الشرف ولا يسمون لادنى عمل ولذلك تركوا فى الماضى الاعمال المهمة للمسلمين والعبيد ثم اخذ فكر الاغتناء يسود بسرعة بين القوم حتى اصبح افراد منهم يهيمون على وجوههم فى الارض ليغتنوا فى برهة قليلة ونشأت من ذلك مخاطر ومهالك ولم يعن العناية التامة باستحصال خيرات البلاد والانتفاع بزراعتها ومعادنها الانتفاع المطلوب .

ولك بعد هذا ان تتصور كم عدد المتسولين — عددهم مئة الف — والمتشردين والطفيليين من كل صنف من الاصناف . لا جرم أن عددهم لم يبلغ فى مملكة مابلغه في اسبانيا . وكان من نتائج طرد العرب واليهود من اسبانيا ان انتقلت صناعات هؤلاء وأعمالهم الى الغرباء من غير الاسبانيين ولا تزال الى اليوم . حتى ان بعض الصنائع كالحرير والجلد والصوف والحبال قد بارت بخروج العرب من الاندلس ولا تزال معامل غرناطة واشبيلية وطليطلة وغيرها آخذة فى الانحطاط سنة عن سنة.

ومن أسوأ الأعمال فى اسبانيا جباية الخراج وتوزيعه وفساد الطرق فى اتفاقه فلو استعاضت اسبانيا عن الاتفاق على الجيش وعلى عشرات الالوف من الرهبان وعلى جمهور عظيم من الموظفين الذين لا يعملون عملا بفتح مدارس وتعبيد طرق وفتح أقنية وغرس أشجار لكان حقيقاً فى ذلك نجاحها الاقتصادى على ماأثبت ذلك المفكرون .

وبينا نجد فى فرنسا عشرين مليوناً ونصف مليون من سكانها البالغين زهاء أحد وأربعين مليوناً يعملون فى الزراعة نجد خمسة ملايين من الاسبان فقط أى ربع سكانها يعملون فى الزراعة . والزراعة مورد حياة البلاد الوحيد . ونجد فى اسبانيا ٤٨،٨ فى المئة من أرضها بوراً على حين لاترى فى بريطانيا العظمى سوى ٢٨.٤ من أرضها لايستفاد منه و٢٣ من أرض هولاندة و١٩.٣ فى ايطاليا و١٠،٢ فى المجر و٩،٩ فى ألمانيا و ٩.٤ فى البلجيك و ٦.٩ فى النمسا و ٩ فى فرنسا أما الاثنان والخمسون في المئة من أرض اسبانيا فانها لاتزرع الا زراعة ناقصة بحيث أن الكيلومتر المربع لايقوم باطعام أكثر من أربعين شخصاً وهذا ولا شك منبعث من أنانية الأغنياء وجهل الفقراء

فى اسبانيا ١٥ ألف كيلو متر من الخطوط الحديدية و ٥٥ ألف كيلو متر من الطرق المعبدة فى حين ترى فى فرنسا ومساحة المملكتين واحـدة تقريباً ٦٩٨ ألف كيلو متر من الطرق المعبدة و ٥١،٤٣١ كيلو متراً من الخطوط الحـديدية وليس فى اسبانيا سوى ٢٩٨ كيلو متراً من الخطوط الحديدية فى كل عشرة آلاف كيلو متر على أنك تجد فى مثل هذه المساحة فى ايطاليا ٥٨٠ كيلومتراً وفى النمسا ٧٦٢ وفي فرنسا ٨٧٤ وفى ألمانيا ١٠٠٧ وفى بريطانيا ١١٨٠ وفى البلجيك ١٦٢٣ ولذلك يضطر المسافر فى اسبانيا ان يركب القطار من بلدة الى أخرى قريبة ومنها يذهب فى تعاريج على غير فائدة لانها ليست متصلة بجارتها بسكة حديدية مباشرة ومع أن معظم الخطوط الحديدية لشركات أجنبية فقد أصيبت بمرض البلاد نفسها وأعنى سوء الادارة ورداءة الحال .

داءان قتالان كان على الحكومة هنا ان تقاتلهما واعنى بهم انانية الاغنياء وجهل الفقراء . فالعلم متأخر جدا فى ارض اسبانيا لان نصف سكانها لا يقرأون ولا يكتبون وفى احصاء اخر ان من سكان اسبانيا ستة ملايين يقرأون وخمسة يكتبون ويقرأون واربعة عشر مليونا أميون وليس فى البلاد اكثر من ٥٢ الف كتاب ومدرسة للذكور والاناث ولكليهما معا وفى فرنسا ٨٢،٢١١ مدرسة ابتدائية و١٠٥٧ مدرسة وسطى وفى اسبانيا عشر جامعات وهى جامعة مجريط وبرشلونه وغرناطة وافيدو وصلمنكه وسانتياغو وسرقسطه واشبيلية وبلنسية وفالادوليدا واذا فرضنا ان الواجب تعليمهم اربعة ملايين من الاولاد لاقتضى ان يكون لهم ٨٠ الف معلم ومعلمة اذا أردنا ان نسلم خمسين ولدا لكل مرب فى حين ليس فى البلاد سوى ٢٦ الفا اما المدارس الخاصة فلا تتجاوز الخمسة آلاف مدرسة وفيها نحو ستة آلاف استاذ دع رداءة التعليم فان التلميذ يصرف اوقاته فى التعليم الدينى والصلاة والمعلم غير موسع عليه يعمل متثاقلا بل قد يستجدى ويستوكف الاكف أحيانا لان الحكومة قد تقطع عنه راتبه الضئيل لقلة المال وليس هناك أماكن لائقة بالتدريس وحقيق بمن كان مثل هؤلاء المعلمين أن يحتاج الى من يعلمه

التعليم فى اسبانيا صورى غير عملى وجميع طبقات المدارس محتاجة الى الاصلاح الكثير وفى أمثال الاسبان « المعرفة الكثيرة تقود الى الالحاد » قال أحدهم : وليس على من يدعون أن التعليم لا فائدة منه وليس فى العلم من الفضائل التى تنسبونها اليه فى ارتقاء الشعوب الا أن ينظروا الى اسبانيا فهناك مثال من الجهل يضاف اليه اعتقاد أعمى .

***

كانت اسبانيا أيام عزها تملك البورتغال ونابل وميلان وأقليم الفرانش كونته والفلاندر فى أوربا ومعظم مايدعى اليوم باسم أميركا الجنوبية وكثيراً من المستعمرات المهمة في أفريقية والهند وما ليزيا ومن بورنيو الى كليفورنيا وما كان المحيط الكبير الا بحيرة اسبانيولية وبعد قرن من موت فيليب الثاني تناقشت وزارات أوربا فى الطريقة التى يجب بها تقسيم اسبانيا ولم تنجح هذه الأمة فى مستعمراتها لانها لم تحسن حتى الآن ان تستعمر أرضها فقد استولت على جزائر ماريان والكارولين وغيرهما من أرخبيل المحيط قروناً بدون أن يخطر لها أن تستعمرها ولا تزال غير محتفلة بأملاكها فى خليج غينة وجزائر كناريا وقد تخلت عن المكسيك سنة ١٨٣٦ وعن شيلى فى سنة ١٨٤٥ وعن الارجنتين فى سنة ١٨٥١ وعن بيرو سنة ١٨٦٥ وعن كولومبيا سنة ١٨٨١ وعن كوبا وبورتوريكو وفيلبين سنة ١٨٩٧ وانتهت سطوتها الاستعمارية سنة ١٨٩٨ وكانت أيام حكمها فى تلك المستعمرات من أشأم الأيام السوداء فلم تكن اسبانيا ترسل الى أميركا الجنوبية — بل الى سائر مستعمراتها — سوى رهبان وموظفين وهؤلاء أضروا بها أكثر مما نفعوها . ولطالما أنذرت المستعمرات دار الملك بالانسلاخ عنه فكان يهزأ بأقوال أهلها . ولقد أنذرت بلدية هافان عاصمة كوبا منذ سنة ١٨١٠ انها اذا لم تبدل قانونها الاقتصادى والجمركى تصبح كوبا بلدة غريبة فهزأت اسبانيا بهذا القول لأن اسبانيا ومستعمراتها كانت اذذاك ٣٨ مليونا من النفوس على حين لم يكن سكان الولايات المتحدة جمعاء يناهز الثمانية ملايين

نسمة بيد ان العبرة بالكيفية لا بالكمية ولم تربح اسبانيا من حكمها الاعوام الطويلة بلاد أميركا الجنوبية الا نشرها لغتها ولا سيا فى المكسيك[1] وعدد السكان الاصليين هناك يقدر بثمانية ملايين ثم دخل فيهم غيرهم من المهاجرين ولا تزال الهجرة متصلة فتفقد اسبانيا كل سنة نحو مئتى ألف اسبانى يهاجرون الى أميركا وغيرها ويرتحل نصفهم على أن لا يعودوا اليها ولكنها تربح منهم أموالا فيرسلون اليها كل سنة بنحو مائة وخمسين مليون بستاس ومنهم من ينشيء المدارس والكنائس والمباني المخلدة المتلدة ليعطوها للحكومة عنوان حبهم بلادهم ومعرفتهم جميلها . وقوام هذا الحب العاطفة القديمة ليس الا .

أخذت الشعوب الاسبانية فى أميركا تميل بالعلم المجرد عن كل صبغة دينية حتى قال أحد رؤساء الكليات الاسبانية يجب علينا اذا أنصفنا أن نذهب الى أميركا نتعلم فى جامعاتها لانهم صبوا الى العلم المحض على حين لم تزل كلياتنا تتأثر بمؤثرات رجال الكهنوت . وكتب أحدهم منذ مدة ليس عندنا معاشر الاسبانيين ديوان تفتيش دينى الآن بل فينا فكر ديوان التفتيش الذى مازال يسرى فينا ويذلنا . ولذلك ترى ألوفاً من أبناء جمهوريات أميركا الجنوبية يرتحلون الى أوربا ليدرسوا فى جامعاتها ولا يغشون اسبانيا التى تجمعهم بها رابطة الدين والجنس واللغة لعلمهم بانحطاطها وهيهات ان يعود الى جامعة صلمنكة الاسبانية — المشهورة فى القرون الوسطى بانها احدى الجامعات الأربع التى كانت تفيض النور على عالم النصرانية — بهاؤها ورونقها القديم والمدارس فى جنوبي أميركا تسير على خطة المدارس فى فرنسا .

***

يقول بعض من كتبوا على اسبانيا انها بلاد ديمقراطية والحال انها ارستقراطية

(١) يقدر عدد المتكلمين باللغة الاسبانية أو القشتالية فى اسبانيا وامريكا الجنوبية عدا البرازيل وغريانا وامريكا الوسطى والانتيل وفيلبين وفى مستعمرات اسبانية أخرى نزهاء ثمانين مليوناً . ولغة البرازيل البرتغالية وعدد المتكلمين بهذه اللغة فى أوربا وأميركا نحو ثلاثين مليونا

لأن الثروة والتعليم والتهذيب العقلي والحياة المرفهة السهلة كل ذلك خاص بفئة صغيرة من أهلها وجمهورا لامة يعيش محروماً كل ذلك والغلاء فاحش في البلاد لا في الكماليات التي تجلب من الخارج بل في الحاجيات وليس للاسبان حياة المجتمعات فان الاجتماعات والضيافات خاصة بالكبراء وقلما يخرج القوم من بيوتهم وقلما يسافرون ولا ذوق لهم في الاستمتاع بالطبيعة لسماع أصوات الطيور في الغابات والتمتع بالهواء الطلق والمناظر الجميلة والطبقة الوسطى قريبة من الدنيا لولا طلاء ظاهري عليها على انك ترى في الشعب السذاجة والاستقامة والكرم صفات أحتفظ بها .

العامة في الاسبان تتكلم كالخاصة لغة واحدة فصيحة لا تفاوت بينها والشعب خاضع صبور يحتمل مصابه . وقل ان ترى في اسبانيا من أبناء الطبقة الوسطى من يحسنون المدخل والمخرج ويعملون عملا صالحاً اللهم الا في بعض المراكز وقد تألفت منذ نحو ثلاثين سنة منهم طبقة مستنيرة في الجملة ولكنها قليلة ومع هذا بقيت المرأة فيهم على حالتها الأولى . وان القوم لينقصهم كثير من مبادىء الآداب الأولية الشائقة بين الأمم الراقية كالفرنسيس والانكليز والألمان وغيرهم فتراهم يدخنون في كل مكان خاص وعام ويبصقون في القطار والمقهى والنزل والفندق والبيع على صورة تشمئز منها النفس . والطبقة العليا الغنية في الاسبان تعيش عيشاً يقرب من عيش جمهور الناس في انكلترا وفرنسا .

كانت التيوكراسية والبلوتكراسية والبوروكراسية أي الحكم الألهي والديني والقرطاسي — أو الحكومة التي تدعي بأنها تصدر عن وحي سماوي أو تكون مأخوذة بوازع ديني أو تطيل في أوضاعها ومعاملاتها — من أمراض اسبانيا الاجتماعية فيما مضى ويزيد عليها اليوم مرض آخر وهو حب الجندية La Caciquism وليس في الاسبان عيوب متأصلة في عنصرهم بل عيوب عرضية ناشئة من التربية وقلة المعرفة وفساد النظام والأحكام ومعظم هذه الأمراض عارضي . ثم ان الاسبان من جهلهم بأنفسهم يجهلون غيرهم ويكرهون الغريب وان أظهروا له على رواية

بعضهم كرماً ولطفاً وقد اقتبسوا هذا الخلق من العرب كما قال فيهم أحد الباحثين .

وانا على ما نرى الآن من عيوبهم فى قذارتهم وتشردهم وجهلهم وقلة عنايتهم بالعمل احتفالهم بالصناعات وميلهم الى الاعتناء السريع نشهد فيهم صفات صالحة للبقاء وهى الثبات والصبر وحب الاستكثار من البنين والبنات والميل الى الشعر وهم من كثير من الوجوه يشبهون أهل سورية فى هزلهم واستكانتهم وتبلغهم بميسور العيش أوانبعاث هممهم الى أقصى مراميها . والاسبانى ولاسيما فى الجنوب يميل الى البطالة والراحة ويتفخل ويتعجرف ويولع بالخيالات وهم فى المدن والقرى يجتمعون أولاداً ونساءً ورجالا على الابواب وفى منعطفات الطرق ويتهازلون ويتلاكمون حتى لتظنك فى قرية كبيرة من قرى الشام تبرنط أهلها فقط أى لبسوا البرانيط أوالبراطيل أو القبعات وأحسن ما فيهم كثرة النسل ومنه مادة نجاحهم فى المستقبل وزيادة السكان تساعد على الانتخاب الطبيعى فى المجتمع وتضطر الناس الى العمل وتضمن النجاح الاخير للذكاء

ان الامة الاسبانية التى وحدت قواها فطردت العرب فى القرون الوسطى ثم وحدت قواها فى القرن التاسع عشر فطردت الفرنسيس على عهد نابوليون من أرضها قد اثبتت اذا انصفنا وطنيتها فى تينك الوقعتين المهمتين بيد أن من عيوبها أنها لاتستفيد من الخارج وقد أخذت الآن تفكر في مستقبلها ورقيت منذ انصرفت عن مستعمراتها لولا أن عادت فحدثتها نفسها بامتلاك الريف وحرب أهله فى مراكش ففشل جيشها وكان مؤلفاً من ثمانية عشر ألفاً أسر مع قواده وضباطه فعادت اسبانيا وأرسلت على الريفين أو بادية المغرب الاقصى مئة ألف مقاتل وما تدرى أيلتئم انتصارهم على هؤلاء البدو على ما فى نفوسهم من شمم وما فيها من العجب والخيلاء فيقال لهم بعد زمن قد ظفرتم ولكن بمن ؟ واذا غلب الريفيون فليسوا أول شعب ضعيف ذل أمام قوى . واذا استولى الاسبان على الريف وخضع لسلطانهم من أقصاه الى أقصاه لايساوى جزءاً من المال والدم المهراق وأرض اسبانيا الجميلة أحق بالعناية والاستثمار

البورتغال بعد العرب

١١١

ليس بين اسبانيا والبورتغال حدود طبيعية ولما وافى العرب شبه جزيرة ايبريا لم تكن مملكة البورتغال قد تأسست ولا لغتهم قد تم تأليفها وتقدم العرب الى بلادهم فاستولوا عليها وكان شأنهم فى لشبونة عاصمتها اليوم على المحيط شأنهم في بلنسية على البحر المتوسط فرسخت حضارتهم فى لشبونة وشنترين وشنترة ويابره وبطليوس وشلب وولب وباجة وطبيرة وقلمريه وشنت مارية كما رسخت فى برشلونة وطرخونة وبلنسية ودانية وقرمونة ووادى آش وغرناطة وجيان واشبيلية وقرطبة . وكان غرب الاندلس أو أكثر بلاد البورتغال من أول ماتخلص من حكم العرب فى القرن السادس .

ولم يشتهر البورتغاليون كثيراً فى كتب العرب الاندلسيين بل كانوا يطلقون فى الغالب اسم الروم على الاسبانيين والبورتغاليين معاً كما كانوا يطلقونه على غيرهم من آجيال الفرنجة واذ كان مقام البورتغاليين فى شبه جزيرة ايبريا ثانوياً - بالنسبة للاسبانيين كانت تأثيرات اللغة العربية أيضاً فى اللغة البورتغالية أقل منها فى اللغة الاسبانية وتأصلت فيهم عادات العرب أقل من تأصلها فى جيرانهم

غزا العرب البورتغاليين فى الزمن الذى غزوا فيه الاسبان ففتحت بلادهم أواخر القرن الاول للهجرة على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد وجاءها أناس من جزيرة العرب وبلاد البربر فنزلوها وعمرت بهم كما فعل اخوانهم فى بلاد اسبانيا حتى أصبحت كأنها مملكة اسلامية من بلاد العرب

ولما انحلت الدولة الاموية فى المشرق خضع لسلطان عبد الرحمن الداخل معظم شبه جزيرة ايبريا ومن جملتها بلاد البورتغال فاورثها هو وأخلافه عمراناً وثروة وبلغت لشبونة (اشبونة) عاصمتها أقصى مراقى العمران فى أيامهم ولم

تـكن بالبلد الطيب قبل العرب ، وما لبث البورتقاليون أن ألفوا حكومة لهم فى بلاد الجلالقة أخذت تقوى مع الزمن وتسير على الأغلب مع مملكتى قشتالة واراغون جنباً الى جنب فى قتال العرب .

قال مؤرخو الافرنج : خرب العرب بلاد البورتقال يوم خربوا افيـلا وصلمنـكة سنة ٣٩٩هـ وافتتح الفونس الخامس جزءاً من البورتقال سنة ٤١٨ — ١٠٢٧ وسنة ٥٤٣ أخذ ملك البورتقال لشبونة وشنترين (١) وشنترة وفى سنتى ٥٥٣ و ٥٧٣ توسع البورتقاليون فى فتوحهم وفى سنة ٥٨٥ خرب العرب بلاد البورتقال خصوصاً لشبونة ثم عاد البورتقاليون فى السنة التالية ٥٨٥ — ١١٩٠م فاستولوا على عدة حصون ، ويقول مؤرخو العرب ان ابن الرنك وهو من ملوك الفرنج غرب بلاد الأندلس ملك سنة ٥٨٣ مدينة شلب وهى من كبار مدن المسلمين واستولى عليها فسار صاحب الغرب والاندلس بعسكره فقاتلهم حتى ذلوا وسلموا ولما كان فى سنة ٥٨٥ قصد بطرو ابن الريق (؟) مدينة شلب فنزل عليها بعساكره وأعانه من البحر الافرنج بالبطس والشوانى وكان قد وجه اليهم يستدعيهم الى ان يعينوه على ان يجعل لهم سبى البلد وله هو المدينة خاصة ففعلوا ذلك ونزلوا عليها من البر والبحر فملـكوها ثم عاد المسلمون فأخذوها وأخذوا من بلادهم حصناً يقال طرّش .

تولى أمر البورتقال تسعة ملوك من الأسرة البورغونزية حكموها الى سنة ١٣٨٣ م فقووا قلوب أهلها واشـتغل البورتقاليون بدفع العرب عن بلادهم ، وعاونوا اخوانهم الاسبانيين معاونة شديدة للخلاص من العدو المشترك فقد هزم البورتقاليون المرابطين في وقعة شنترين وخلصوا جزءاً مهما من بلادهم وغلبوا

(١) قال الاصطخرى فى كتاب الاقاليم : وشنترين التى على البحر المحيط بها يقع الغبر ولا يعلم بحر الروم والبحر المحيط موضع غبر الابشنترين . . . ويقع بشنترين فى وقت من السنة من البحر دابة تحتك بحجارة على شط البحر فيقع منها وبر فى لون الخز لونه لون الذهب لا يغادر منه شيئا وهو عزيز قليل فيجمع منه وينسج منه ثياباً فيتلون فى اليوم الوانا ويحجر عليها ملوك بنى أمية فلا تنقل الاسرا وتزيد قيمة الثوب على الف دينار لعزته وحسنه اهـ قلنا وشنترين ليست على البحر المحيط ولكنها قريبة منه

العرب وعاونوا القشتاليين سنة ١٢١٢ فى وقعة العقاب التي أفضت كما قال ابن الأبار الى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها ، وكانت السبب الأقوى فى تحيف الروم بلادها حتى استولت عليها ، وعاون البورتقاليين سنة ١١٤٧ م ، ٥٤٣ هجيش مؤلف من الصليبيين الفرنساويين والانكليز والالمان والفلامانديين للاستيلاء على لشبونة وفتح الفونس الثالث القسم الجنوبى من البورتقال المعروف عند العرب باسم الغرب Algarve ١٢٤٩ - ١٢٥٣ بعد ان ملك العرب هذه الولاية من القرن الثامن الى القرن الثالث عشر ، ومنح ملك البورتقال المغلوبين الذين بقوا فى لشبونة من العرب بعض الحرية فظلوا فيها ، وقويت بهم التجارة البحرية ، وقد أسعد الحظ بلاد البورتقال فجاءها منذ استقلت ملوك الا النادر منهم على جانب من الدهاء والعقل يحسنون الغارة كما يحسنون الادارة فوسعوا حدود بلادهم وقووا الوطنية البورتقالية وعرفوا أمتهم طعم الاستقلال حتى ان أحدهم جلس على سرير الملك خمساً وستين سنة وقوى ملكه حتى قطع أمل ملوك قشتالة من بلاده وخلصها كما خلصها أخلافه من سطوة النبلاء ورجال الكهنوت فلم تترك البورتقال مجالا لجارتها القوية اسبانيا أن تأخذها .

ولما فتح البورتقاليون اقليم الغرب في اقصى الجنوب الغربي من شبه جزيرة ايبريا أخذوا يتوسعون فى فتوحهم فركبوا البحر وفتحوا بعض مدن الغرب الاقصى ولا سيما طنجه وأرسلوا الى بر العدوة من الجند بقدر ما كان أهل بر العدوة يرسلون منه نجدة لاخوانهم الاندلسيين العرب ثم شغل البرتقاليون بعد ذلك باكتشافاتهم البحرية ومستعمراتهم الجديدة فعدلوا عن التوغل فى الغرب الاقصى بل أزمعوا الرحيل منه .

وعلى ذكر الصليبيين الذين عاونوا البورتقاليين للاستيلاء على لشبونة لا بأس بأن نشير الى ان الاسبانيين والبرتقاليين كثيرا ما كانوا يستنصرون بجيرانهم من ملوك الافرنج فينجدونهم فقد جاء سنة ٤٨١ عدة أمراء فرنسويين لمعاونة اسبانيا على العرب وكذلك شخص كثير من الطليان وكلهم بأمر البابا وفى سنة ٦٠٨ قصد

صاحب الاندلس قلعة عظيمة للافرنج تدعى شلب تره ففتحها بعد حصار تضييق عليها شديد فراع فتح هذه القلعة الروم وخامرهم الرغب فخرج الادفنش الى قاصية بلاد الروم مستنفرا عظماء الروم وفرسانهم وذوى النجدة منهم فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها حتى بلغ نفيره الى القسطنطينية ووافقه صاحب ارغن وفى سنة ١٢١٠ م تحالف جميع ملوك النصرانية على التعاون على المسلمين واستنفر البابا أينوسان الثالث جميع امم أوربا الى غزو عرب الاندلس فاجتاز جبال البيرنات ستون ألف مسيحي لقتال العرب .

ولما انهزم الفونس ملك الفرنج وكان مقر ملكه طليطلة فى سنة ٥٩١ أقبح هزيمة عاد الى بلاده وركب بغلا وأقسم انه لا يركب فرساً حتى تنصره ملوك فرنجة فجمعوا الجموع العظيمة وجرت لهم مع المسلمين وقائع كثيرة الى أن ملكوا أكثر مدن الأندلس .

وهكذا كان ملوك الافرنج ينصرون ملوك قشتالة وارغن وليون خصوصاً من عرف منهم شوكة العرب اذ ذاك أمثال حكومات ايطاليا وفرنسا ، ولكن الفرنج كان ملوكهم من الضعف فى تلك الازمان بحيث يعجز كل واحد عن حفظ بلاده دع استخلاص بلاد غيره ، ثم ان الحروب الصليبية التى دامت نحو قرنين أخرت قليلا اخراج العرب من الاندلس ولو سيرت عليها بعض القوة التى سيرتها الى الأرض المقدسة لما طال حكم العرب على الاندلس الى أواخر القرن التاسع للهجرة .

كانت البرتقال تعتبر شريفاً كل برتقالي أسره العرب ولم يصبأ عن دينه الى الاسلام ، وكذلك كل من حاربوا العرب فى وقعة أوريك سنة ١١٣٩ التى كتب فيها النصر للبورتقاليين ولا تعد فى الاشراف كل من ضربوا امرأة بسيف أو رمح أو كذبوا أو هربوا من معركة وقعت للبورتقال مع العرب .

وما برحت البرتقال تئن من سلطة رجال الدين أنين جارتها اسبانيا وهى فى يد البابوات كالخاتم فى يد لابسه يقلبه كما يشاء حتى نادت منذ ثلاث عشر سنة

بالجمهورية وتخلصت من سلطة الكهنوت ، وكان أول عمل لها طردها الرهبنة اليسوعيــة من بلادها واستصفاؤها اديارها والقضاء على الرهبان والراهبات انتقاما منهم (المقتبس م ٥ ص ٤١٠) على سعيهم فى قتل فريرا رجل الاسبان الحر وكانوا قتلوه بمساعيهم لدى الحكومة على أبشع صورة عرفت فى عصر النور والمدنية فتخلصت البورتقال كما تخلصت أختها برازيل من قبل من الحكم الملكى ولهـا اليوم ٣٨٥٠٠٠٠ كيلو متر من المستعمرات يبلغ سكانهـا عشرين مليون نسمة ويبلغ سكان البورتقال ستة ملايين نسمة ينزلون فى ٩١٩٤٨ كيلو متراً ولا تزال حصون العرب الى اليوم على قمم الجبال فى مدينة شنتره ، وبجانب بعضها مسجد باقية آثاره الى الآن وعلى مقربة منه قبر دفن القوم فيه عظاما وجدوها ولم يعلموا أنها للمسلمين أو للنصارى فوضعوا على رجام القبر صورة الصليب وصورة الهلال والقسم الذى كانت تسكنه العرب فى لشبونة يعرف عندهم باسم الحمة (لا بتشديد الميم) ويسميه البورتقاليون الآن من باب التحريف الفاما ومنظر هذه المدينة يشبه المدائن الشرقية ومن أمهات مدن البورتقال كويمبرا Coimbra المعروفة فى كتب العرب باسم قلمرية . وهى الآن دار العـلم ومحط المعارف فى بلاد البورتقال ومنها مدينة بورتو واسمها فى كتب العرب برتقال وبها يسمى هذا القطر بورتقال . وفى هذه المدينة دار البورصة بنيت على الطراز العربى ونقشوا أعظم بهو فيها بالطراز العربى وزينوه بالزخارف وكتبوا فى ضمن رسومها اشعاراً عربية . وفى متحف لشبونة على ماحدثنى به الثقة كثير من الآثار العربية ولا سيما ما أخذه الالمان من الشام قبل الحرب الاخيرة فوقع فى أيدى الحلفاء فاعطوا السفينة الالمانية وما حوت للبورتقال لانها أسرت فى بحرها وذلك من جملة مكافأتهم لها على محاربتها فى صفوفهم وتجنيدها ثمانين ألفاً من كماة رجالها .

برلين

١١٢

كنت أود أن أرى انكلترا وألمانيا بعيني من عرفهما مباشرة لا بالواسطة وان اسمع الانكليزى والالمانى يتكلمان بلغتهما فافهمهما وأجيب على كلامهما دون أن أعمد الى اللغة الافرنسية . واذا سهل التخاطب بهذه اللغة مع خاصة الانكليز والالمان وغيرهم من شعوب الغرب فيتعذر التفاهم مع العامة من جمهور تلك الامم الا بواسطة ترجمان والترجمة يصعب أن تؤدى الروح الحقيقية فى المخاطب والمخاطب . وأن روح الامة لتتجلى للسائح بالاحتكاك بالخاصة والعامة وربما أخذ عن العامة مالا يتيسر له أخذه عن الخاصة ولذلك ساغ لنا أن نقول اننا فى البلاد التى ينطق أهلها باللغة الافرنسية كأننا فى بيوتنا وفى غيرها غرباء .

عرفنا الالمان بما كتبه عنهم الفرنساويون فى الكتب والمجلات والصحف . وفى ذلك الغناء فى معنى ادراك مقومات هذه الامة ومشخصاتها . ولكننا نشعر أن هناك أموراً يتعذر أصدار الحكم الصحيح عليها دون الوقوف على أسرار لغتهم والنزول عليهم اشهراً طويله والاحتكاك باهل الطبقات المختلفة منهم وقد يهتم الشرقى فى الغرب بامور لايحفل بها الغربى قال مونو المؤرخ الفرنساوى (١٨٤٤ — ١٩١٢) أن المانيا الوطن الثانى لجميع الرجال الذين يدرسون ويفكرون .

قضيت أحد وعشرين يوماً فى زيارة برلين وليبسيك وهاللى ومونيخ أشاهد نموذجات من معاهدها ومشاهدها ومكاتبها ومتاحفها وما أظن هذه الأيام تكفى لاستبطان عوامل الحياة المنبثة فى هذا الشعب الذي جعل العلم رائده وقائده في كل حركة من حركاته . وبتأثيره جدد شبابه بعد الهرم . وجمع شمله وقد أنبت منذ القدم .

أثرت الحرب العامة الاخيرة فى الغالب والمغلوب من أمم الغرب على أنهم كلهم

مغلوبون فى نظر العقل الصحيح بما صرفوه من الرجال والمال وخربوه من العمران . ولقد أثرت عوامل الحرب بالمتحاربين والمتحايدين . وهل العالم الا سلسلة اذا اهتز منها جانب تأثرت له سائر الجوانب ، ولذلك ترى الضعف باديا الآن فى بعض أوضاع ألمانيا كسككها الحديدية وتراموايآتها وطرقها ؛ فقد كانت برلين قبل الحرب تغسل شوارعها كل يوم بالماء والمطهرات وهى الآن قذرة بالنسبة لنظافتها السابقة لا قياساً لها مع عواصم الممالك الأخرى وكان بريدها وأسباب مواصلاتها مثلا سائرا فى النظام فلما كثر اعتصاب العملة لسقوط أسعار الورق المالى أصيبت بالخلل والشلل أحيانا .

كل شئ جديد فى عاصمة بروسيا بل عاصمة جرمانيا لانها هى جديدة وقل أن ترى فيها بناء عمره أكثر من عمر الانسان المعمر .

أدخل الى متحف من متاحفها يشتغل نظرك وعقلك فى أسلوب البناء أكثر مما يشتغلان بما حوى من التحف والعاديات كأن أبنيتهم الجديدة أنشئت على غير مثال وكلها نموذج من العلم العملى والنظام الغريب .

شوارع برلين وجاداتها وأسواقها على نمط متوافر متساوق لانها قامت فى وقت واحد على تخطيط جرى التصميم عليه لاول اختطاطها فلم يحيدوا عنه قيد غلوة والحال ليست كذلك فى لوندرا وباريز مثلا فانهما أنشئتا مع الزمن الطويل على أساليب مختلفة ، وشتان بين ما تجده من القدم الداعى الى التفكر والتأثر وبين ما تجده من الحداثة وما يتبعها من اللطافة والنضارة ، ولقد شبه أحد أصدقائنا من علماء الترك برلين وباريز بشخصين أحدهما حديث النعمة يحسن بزته وما يبدو عليه من الذهب والماس والآخر عريق فى المجد لا يبالى أي شيء اكتسى ويبعد عن الزينة ما أمكن .

قال هوره[1] لا يعتبر الالمان برلين فقط عاصمتهم بل ان كولون وليبسيك وهمبورغ ودرسله ومونيخ وجميع المدن القديمة لا تعترف لها بالارجحية

(١) كتاب « برلين » لجول هوره Gules Huret : Berlin

عليها أما انا فاحب عاصمة بروسيا لانهـا تسر وفيها قد توفرت اسباب الحياة والظرف والقرى وابتهج بمنظرها اللامع الجديد وبشوارعها الحديثة وواجهات أبنيتها البيضاء وشرفاتها المفضضة وزهورها وبيوتها الطريفة التي أخذت بحظ وافر من الجمال والنور والتنويع والتعريش مما يأخذ كله بمجامع قلبي . أما المدن القديمة فانها أيضاً تخلب الالباب كأنها الملكات ويرغب المرء فى زيارتها أحياناً للاستراحة من طفولية الشباب المفرطة . وهذا حال باريز فانها حوت المزيتين تقدم لزائريها ماخلا لطائف التاريخ والصناعة مايفتن الفؤاد ويأخذ بالقلب من أسباب السرور والتجديد . أما فى المدن التى فيها مايعجب ولا سيما قدمها فان الغرباء يصرفون فيها بعض أيام عطلة سريعة ولا يسكنون فيها مختارين دع المرضى والمنهوكة قواهم ممن عساهم ينزلونها اذ يجدون فيها وفيما حوت من العاديات الميتة أو العتيقة نغمة قد تنجع فى مداواة اجسامهم وقواهم . أما برلين فانها على العكس من هذا وذاك لان المدن الحديثة جداً تشبه الفتيات اللائى في السابعة عشرة من عمرهن فهن على نضارتهن وحداثتهن لم يستوفين شروط الكمال . أن من يدخل برلين من عشاق الفنون يشهد فيها مجموعة قد يأتي على رؤيتها فى مدة قصيرة ولـكنه مع ذلك يراها مملوءة باسباب المرغبات فى البقاء ويهتم لها كل من يحب الحياة ويعتقد فى المستقبل

قال وأن برلين لتزيد كل يوم اتساعا بمـا ينشأ فيها كل سنة من عشرات من الشوارع الحديثة حتى أن البيت لا يكاد ينجز بناؤه حتى يسكن وحذراً من رطوبة البناء يوقدون فيه مدة ثمانية أيام ناراً كثيرة قوية فيجف البناء ويخلص النازلون فيه من الخطر . وفي برلين شوارع طولها ١٢ كيلومتراً ولا تجد من يفاخر بها . وهذا مما يعجب منه لما فيه من الجرأة والثقة بالنفس والاعتماد على المستقبل والاحتياط وحسن الاسلوب الذى يتطلبه مثل هذا العمل . اذا رأيت هذه الشوارع ظننت نفسك فى أميركا تزور مدينة حديثة من مدنها . والبلدان التى كانت تعد ربضاً وضاحية لبرلين مثل شارلوتنبرغ ويلمرسدروف وبانكوف وريكسدروف

وغيرها اصبحت بما لها من الحدائق والحقول بيوتاً ومخازن وأماكن عامة حتى اغتنى من الاراضى من كان بالامس يزرع البطاطا والشوندر فى ارضه فاصبح من اصحاب الملايين بما باعه منها وقد بلغ ثمن المتر الواحد من الأرض فى حي المخازن الكبرى خمسة آلاف فرنك ذهب والمتر الذى كان يباع فى الضواحي بعشرة ماركات اصبح يباع بثلثمائة فرنك .

***

يصرف العملة والمستخدمون أيام الآحاد فى الضواحي ولذلك تغص البحيرات والغابات والشوارع بالعامة أما الخاصة ممن يحترمون انفسهم فلا يخرجون فى ذاك اليوم ليتركوا المجال لغيرهم واجور التنقل فى السكك الحديدية والتراموايات رخيصة للغاية وتجتمع الأسر البعيدة والشبان يتغنون باناشيد عسكرية حماسية والنظافة بادية على الجميع والنظام يتدفق من اطرافهم وكذلك حسن الذوق والادب .
ولا يلتفت أحد الى أحد بل كل امرئ مشتغل بنفسه واذا رأى الانسان أحد معارفه من بعيد حياه أحسن تحية وربما سلموا على الغريب سلام تعظيم واحترام يفعل ذلك رجالهم ونساؤهم واولادهم وبناتهم ويحمل كل واحد مظلته ورزمة بالقماش المشمع فيها خبز وحلويات وقهوة وسكر ويبتاعون للقهوة من المطعم ماء حارا بفلس أو فلسين فيطبخون فيه قهوتهم ومنهم من يذهب الى حانات الجعة ومنها ما يسع عشرة آلاف متنزه ومن الحدائق في الضواحي ماتضرب فيه الجوقات الموسيقية .

وفى أي ساعة دخلت المطاعم والحانات والمقاهى فى برلين تجد فيها أناساً وأسرات مع أن الأسرة الالمانية عرفت بحبها لبيوتها وكنها كالأسرة الانكليزية .
والحقيقة أن هذه الأسر الى نشاهدها ساكنة فى أماكن بعيدة تضرب لها موعداً فى أحد هذه المحال لتتزاور مع من تحب ثم ينصرف كل واحد من أعضائها الى عمله .

وحدثنى الثقة أن الالمانى يدعو صاحبه بالحاح الى تناول الجعة معاً وعند

أداء قيمة ما يشربان يدفع كل منهما عن نفسه ولسان حالهم المثل الافرنجى : « كل لنفسه والله للجميع » بمعنى أن الدعوة تكون للمباسطة والمفاكهة فقط لا ليكرم أحدهما الآخر بشىء من المال يغرمه وكأس يشربها بل قد تأصلت فيهم هذه العادة بعد الحرب الاخيرة فاصبح الشاب والشابة اذا تصاحبا ينفق كل منهما على نفسه فى دقيق النفقة وجليلها وكلاهما يستمتع بصاحبه خلافاً لعادة الامم كلها فى ان الرجال قوامون على النساء . والرجل ولا سيما فى الغرب اذا لقى المرأة التى يعرفها معرفة بسيطة يتولى اكرامها واطعامها وليس من العادة أن تنفق هى على طعامها وشرابها اذا صحبت الرجل مهما كانت منزلته منها

الالمان يحبون الزهور للغاية فمنذ شهر ايار ترى الزهور مبسوطة على الابنية والدور والفنادق غنيها وفقيرها من أول برلين الى آخرها وفى حى العملة يتنزه الانسان فى الصيف بين حائطين مزهرين علوهما عشرون مترا وكلها من الزهور المختلفة والبلدية تكافىء من يحسن زراعة الزهور ويتوفر على خدمتها أكثر من غيره ولذلك صح أن تسمى المانيا لا برلين وحدها « مملكة الزهور العطرة والورود المعرشة » لان الزهور لا تعدم منها إلا عند كلب الشتاء وتجليد المياه .

قالت مدام دى ستايل : ترى الحدائق جميلة فى بعض بلاد المانيا كما هى فى انكلترا والعناية البالغة التى تصرف أبداً فى الحدائق تدل على شدة ولوع القوم بالطبيعة . تجد فى انكلترا دوراً بسيطة للغاية قامت وسط الحدائق الأنيقة وصاحب الحديقة يهمل العناية بمسكنه ويزين حديقته وبستانه . هذا التأنق وهذه السذاجة إذا اجتمعتا فلا توجدان حقيقة على نسبة واحدة فى المانيا ولكنك ترى فى مجموع الفقراء واصحاب الاقطاعات ضربا من ضروب الحب للجمال الذى لا يلبث ان يورث الحريص عليه ذوقاً ولطفاً لانه المنبع الحقيقى لهما .

هذا بعض ما عرفته وعرفه غيرى فى برلين من أسباب الراحة والهناء . أما التى يرى مثلها فى كل بلدة أوربية من التمثيل والغناء والرقص فهو لحم فى موضوعه

أيضاً فيه الروح العسكرية والنظام الغريب . وكم من دار تمثيل أو مقهى أو مرقص يشبه قصور الملوك . وأسأل الله السلامة اذا وقعت الى مسرح من مسارحهم أو مرقص من مراقصهم فترى جمال الصناعة الى جمال الطبيعة الى جمال الهندام والنظام فيبهرك ماترى وتسمع وتقدر فى نفسك حالة القوم قبيل الحرب قبل أن يفقدوا رجلا من رجالهم أو درهما من أموالهم أو شبراً من أرضهم وديارهم .

المانيا الاقتصادية

١١٣

اختلت بعد الحرب جميع القواعد الاقتصادية فى الممالك الاوربية ولحق من ذلك بلاد المانيا قسط وافر لما أخذه ولا يزال يستوفيه منها دول الحلفاء من الغرامات والتعويضات ولذلك يصعب أعطاء حكم سليم على هـذه الامة وعلى ثروتها من النقد وغاية مانحدث به من هذا القبيل شؤون لها وقعت قبل الحرب وبه يحكمون عليها. والحاضر مهما انحط تجد فيه شيئاً من روح الغابر .

قالوا ان العمل قوة توجد نجاح الامة وتزيده(١) ونعنى بذلك العمل اليدوى كما نعنى العمل العقلى الذى يقوم به العلماء .

الانسان منتج العمل وفى الحكومات هو الشعب . ونتيجة العمل انتاج الثروة ويزيد ربح العمل بقدر تنظيم الأدوات الفنية وزيادة الربح فى العمل يتجلى فى الامة بارقام محصولاتها وحركتها الاقتصادية وغاية العمل فى دائرة الاقتصاد والاستهلاك ويتألف من زيادة ريع المحصول على النفقة اللازمة مقدار دخل أمة وزيادة دخل أمة على استهلاكها يمثل زيادة ثروة الامة وطموح الامة فى اقتصادياتها

---

(١) نجاح المانيا الوطنى من سنة ١٨٨٨ الى ١٩١٣ لهلفريش
Helfferich : La prospérité nationale de l, Allemagne de 1888 a 1913

هو نجاحها بزيادة عملها ثم بزيادة دخلها بحيث تستطيع تحسين حالتها الحيوية وأن تقوم بحاجياتها المادية والعقلية وترفع مستوى نجاحها

ان حركة الشعب فى بلاد هو العامل الاول فى تقدمه الاقتصادى والاجتماعي والسياسي والعقلى . ونمو الشعب فى مملكة يكون بزيادة قواه العاملة وقوته السياسية وتوسعته مسائله الاجتماعية والعقلية والادبية . ونمو أمة يستلزم زيادة دخل العمل الذى يضمن لها ما يلزم لبقائها . كان سكان البلاد التى تدخل اليوم فى أراضى جمهورية المانيا سنة ١٨١٦ ـ نحو خمسة وعشرين مليونًا فأصبحوا سنة ١٨٧١ أحد وأربعين مليونا وفى سنة ١٨٨٨ ثمانية وأربعين مليونًا وبلغوا فى احصاء قبل الحرب ستة وستين مليونًا ومن ذاك العهد بلغت زيادة الواردات نحو ٨٠٠٠٠٠ بالنسبة لعدد السكان . وتكثر هذه النسبة فى المانيا عن سائر ممالك أوربا ماعدا روسيا . فنشأت قلة هلاك الناس من تحسين التغذية والحالة الصحية وتقليل الاعمال الشاقة .

التفتت المانيا لاول نهضتها الى الزراعة وكانت اذ ذاك بحالة تستطيع معها أن تخرج من صادراتها ولا سيما الحنطة الى البلاد المجاورة كانكلترا وهولاندة وبلاد السكاندينافيا فكثر المال بين أيدى المزارعين ولا سيما فى شمالى المانيا وتبسط القوم في القرى فكثرت النفوس كثرة هائلة وتوفرت المقايضات والمواصلات وزادت الطرق وكثرت سرعة البرد . وقد أنشىء فى المانيا سنة ١٨٣٥ أول خط حديدى بين نور مبرغ وفورت وبعد عشر سنين بلغ مامد منها ٢١٣١ كيلومتراً وبعد سنة ١٨٤٨ أى عقيب الازمة الكبرى التى أصيبت بها البلاد استعادت المانيا قوتها وانهال عليها المال وزادت أسعار الاراضى بعد نزولها وظلت المانيا هكذا فى ازدياد باعمالها الاقتصادية الى حرب السبعين فأسست فى خلال ذلك بعض مصارفها المهمة وعدنت مناجمها واشتغلت معاملها وأنشئت خطوطها الحديدية وبعد تلك الحرب كثرت فيها الاعمال الاقتصادية وتأسست الشركات . وكانت السنين التالية أعوام رخاء ونماء لم يعهد لها نظير فى تاريخ الاقتصاد الالماني

أن القاعدة الكلية فى مسألة جمع رؤوس الاموال على الاسلوب الحديث والاستكثار أبداً منها وتنمية مساحة المعامل والمصانع والمعاهد على أنواعها وجمع جيوش متكاثرة من العملة واستخراج كمية أكبر من البضائع قد تحقق فى المانيا على صورة باهرة فنمت مصارفها فى برهة قليلة على نسبة خارقة للعادة وكذلك أسباب المواصلات ومشاريع صلاتها وتجارتها على الخطوط الحديدية والطرق النهرية والبحرية ومكاتب بريدها وبرقها وهاتفها وصناعاتها الكبرى من كل نوع وكثرت خطوطها الحديدية حتى بلغت سنة ١٩٠٠ — ٩٦ الف كيلو متر كان دخلها اذ ذاك نصف مليار مارك ذهباً فى السنة وقد صرف عليها ١٤ ملياراً وهكذا نجحت فى كل فرع من فروع العمل والانتاج .

قال لشتنبرجه : ان القرن العشرين زاد فى استيلاء الانسان على الامور زيادة كبرى فعمل ونجح فى عمله مافيه ادخال الحياة تدريجيا فى طور العقل ووفر الثروة المادية توفراً كبيراً وحل مشكلة اعاشة ستين مليوناً من البشر فى أرض المانيا على حين لم يكن فى هذه البقعة نفسها أوائل القرن التاسع عشر ما يقوم باعاشة أكثر من خمسة وعشرين مليوناً وعلى صورة كانت أشق مما هي عليه اليوم فاستحالت مملكة فقيرة زراعية الى معمل كبير مجهز بالعدد الصناعية والتجارية التامة الى التي ما بعدها . وهي تقوم بفضل حذق عملتها ورؤوس أموال أغنيائها وثروتهم المحصلة والالمان يعجبون وحق لهم العجب بما فيهم من صفات الاجتهاد والثبات فى العمل والنزاهة فى العلم والنظام وحسن التدريب والترتيب خصوصاً وهي صفات مكنتهم من أحراز مقام عال بين الامم الصناعية الحديثة ومن مجاراة الممالك فى الجهاد العام اه .

نعم أن ارتقاء الصناعات الالمانية قد جعل المانيا المعمل الاكبر للعالم اذا وقفت حركته وقف العالم وقد ظهر ذلك عقبى الحرب فلما كانت المانيا والممالك الوسطى فى أوربا محصورة كان العالم فى ضيق شديد حتى اذا فتحت حدودها وصدرت مصنوعاتها انفرج العالم وأي فرج . خذ لذلك الكتب فان المانيا

وحدها تطبع نصف ما يطبع منها فى العالم بأسره ونصف هذا النصف أى ربع كتب العالم تطبع فى ليبسيك فلم يكن فى أوائل القرن الماضى عدد المصنفات الجديدة التى تصدر فى المانياسوى ٣٩٠٠ — فاصبحت سنة ١٩٠٠ — ٢٤٧٩٢ وفى سنة ١٩٠٥ ٢٨و٨٨٦ وفى سنة ١٩٢١ — ٣٢و٣٤٥ كتاباً على حين طبعت أميركا فى هذه السنة ٨و٣٢٩ كتاباًوانكلترا ١١و٦٢٦ كتاباً . وكان فى المانيا سنة ١٩٠٥ — ٧١٥٢ كتبياً يصدرون الى البلاد الخارجية كتباً قيمتها مائتان وتسعون مليون مارك . وقد أصدرت المانيا الى انكلترا فقط خلال ثلاثة أشهر عقيب الهدنة ١٨١٨ من الكتب ماقيمته خمسمائة مليون مارك وفى المانيا زهاء ثمانية آلاف صحيفة يومية وشهرية وأسبوعية .

ولا عجب فقد قيل أن علم الاقتصاد كان قديماً يستند فقط الى العرف والتجربة وما النجاح الهائل الذى أحرزه العلم الاقتصادى الحديث الا منبعث من انتشار العلوم الطبيعية انتشاراً خارقاً للعادة ولتطبيق النتائج العلمية على العمل الاقتصادى فان العلوم الطبيعية والكيمياء وعلم الكهربائية وهى من متعلقات العلمين السابقين قد تسابقا فى هذا المضمار وأثر كل منهما جد التأثير في تبديل الادوات الاقتصادية وكان ذلك بفضل المفكرين والعلماء من الالمان الذين فتحوا فى هذه العلوم طرقاً جديدة وجددوا اتساع العلوم الطبيعية بما اكتشفوه من قانون حفظ القوة ولم يكتف الالمان من هذا العلم بنظرياته المجردة بل صار هذا الشعب المشهور بأنه شعب شعر وعلم خلال القرن الاخير أمة عملية موجدة وهذا الاشتراك بين الذكاء والعلم والارادة قاد المانيا الى أرقى درجات النجاح .

كان من نتائج انتشار العلوم الطبيعية وارتقاء العلم فى نواميس الحركة منذ القرن الثامن عشر ان يتوسع فى استعمال الادوات كأدوات الحياكة والصناعات المكانيكية وآلات الاستخراج والتعدين والمضخات وغيرها وباستخدام القوى الجديدة المحركة من البخار أولا والكهرباء آخراً ومن استعمال القوى المفجرة عم استعمال الادوات وانصرفت الهمم الى اتقانها لاجرم أن آلة البخار احترعت

فى القرن الثامن عشر ولكنها لم تكمل الا في القرن التاسع كما كثر معه استخدامها في الجملة . وبعض الترقى الذى حدث فى البخار مثل زيادة احمائه والتوربين هما من مكتشفات العهد الأخير . وساعد المانيا على ارتقائها غناها بمعادنها ففيها الحديد والذهب والفضة والقصدير والكاولين وغيرها من المعادن . ولم تكن المجارى الكهربائية منتفعاً بها حق الانتفاع في الابعاد الشاسعة وبدأت الحركة باختراع التلغراف الكهربائى نحو سنة ١٨٣٠ ثم باختراع الهاتف بعد ثلاثين سنة وفي أيامنا اخترع التلغراف والهاتف اللاسلكى . وكان لعلماء الالمان وأهل الصناعات منهم اليد الطولى في هذه الاختراعات وفى اكمال البرق والهاتف واستعمالها استعمالا عملياً وقد راعوا فى كل ذلك ولا سيما فى انتقال القوة الكهربائية والغازية والمحركة الى الابعاد الشاسعة قلة النفقة والاقتصاد من عمل الايدى وبذلك بدأت المستنقعات والبطائح فى بلاد المانيا تجفف وتعود صالحة للزراعة

وأن التوفيق الذى وقع في امكان جمع قوة ضخمة وذلك باجتماع القوة البخارية وتوزيع القوة الحادثة منها من محطة مركزية الى عدد كبير من المراكز المختلفة قد فتح لصنع الآلات ميداناً للعمل لا نهاية له فأنشئت أدوات لم تكن تعرف للتعدين والحديد والنسج والورق والزراعة وما يتبعها وعمل عدة الالكحول والجعة والسكر والصناعات الكيماوية وساعد ذلك كل المساعدة على ازدياد أسباب النقل بحراً وبراً وعلى سير السيارات والعجلات الكهربائية وعربات الركاب والبضائع وأسباب النقل فى الماء فى قوارب متحركة بذاتها حتى السفن التجارية والبوارج الحربية الضخمة واختراع المحرك الخفيف ذى الوقود قد مكن من اختراق الهواء فى الطيارات والمناطيد وبهذين الاختراعين حققت الآمال التى طالما حامت حولها أفكار بنى الانسان منذ ألوف من السنين .

وانتشار الكيمياء أكمل على أنفع وجه الاختراعات الطبيعية والكهربائية فيما يتعلق بالمسائل الاقتصادية ودرس المادة تأليفها وتبدلها درساً علمياً قد أثر

فى الحياة الاقتصادية عندماظهر علم فسيولوجيا النبات والكيمياءالزراعية وهى الاصل فى النظرية الحديثة للسماد وبذلك ارتقت الزراعة الى حد لانهاية له فى المانيا. ولئن كان أساس هـذه العلوم قد وضع فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ولكنها لم توضع موضع العمل الحقيقى الا فى الثلاثين سنة الاخيرة

ولما عرفت مكانة الحامض الفوسفورى والبوتاس والازوت لحفظ القوة المنتجة فى التربة وزيادتها وكانت هذه المواد مهملة الى ذلك العهد أصبح لها شأن مهم وقيمة غالية. وفى المانيا معادنمهمة من البوتاس تكاد تكون منقطعة القرين فى الارض. وقد شرعت المانيا تحسن الانتفاع مما ضمنته افلاذ تربتهامن المعادن فى الصناعة والزراعة على مقياسسارت فيه سيراً عظيما وان المانيا بما تستخرجه من المواد القطرانية هى فى الدرجة الاولى بين الامم لارتقاء أساليبها العلمية وأهم ما تستخرجه من القطران ألوان الانيلين والاليزادين والمستحضرات الصيدلية مثل الاسبيرين والفيناسيتين والسكارين وسائر أنواع الزيوت القطرانية

هذه نبذة فى حال المانيا الاقتصادية وجهادها فى مضمار الحياة المادية وقد ساعدها على ماهى فيه مزج كل شىء بالعلم وكل علم بالعمل بحيث يتراءى لك انسماء بلادها وأرضها تعمل عملا متساوقاً متقناً.

العلم والعمل

١١٤

قال أحد الالمان لرجل من الفرنساويين اننا من عدة وجوه متأخرون عنكم فقدكانت بلادنا التعسة مدة ثلاثة قرون مساحة حرب أوربا. أتذكرون أن الفرنسيس كانوا إذا فكروا فى مسألة عرش النمسا وغوستاف أدولف إذا أحب أن يصبح رئيس حزب البرتستانت ولويز الرابع عشر اذا نشأت له بعض

صعوبات مع الامبراطور كانوا كلهم ينزلون أرضنا ويقتتلون على أديمها فتخرب على الدوام فكنا فقراء بينا كنتم معاشر الفرنسيس آخذين بأسباب النجاح والترقى . قلنا ومعظم تخريبات الحرب الاخيرة لم تكن هذه المرة فى أرض المانيا بل فى بلاد الحلفاء من الفرنسيس والبلجيك والروس فتغيرت تلك النظرية .

وقد تداركت المانيا ما فيها من نقص وحمت نفسها وبسطت سلطانها بالمدرسة والثكنة . وجعل اليوم المعمل بدل الثكنة ولا يزال الالماني كما كان قبل الحرب الا قليلا يعيش موسعاً عليه ويأكل كثيراً ويؤوى الى مسكن حسن للغاية والعامل فيهم يكتسى أحسن من ثياب صاحب الاملاك فى الامم الاخرى ويستحم على الاقل مرة فى الاسبوع . ومن المدن ماتعطي لاعضاء بلدياتها رواتب الوزراء . وفى كل محل ترى صناديق الضمانة تعمل عملها مع المرضى والزمنى والشيوخ كما تشاهد ملاجئ للناقهين وعشرات من المعاهد تشبهها . وليس فى الطرق شحاذون والفقراء يؤخذ بأيديهم ويعالون بعض الشيء أو يستخدمون . ومن الناس فى المانيا من يبتاعون أحياناً بعض رفاهيتهم بالدين ولكثير من البيوت أثاث حسن لم يؤد أهله ثمنه . وكثير من مدنهم كانت تقترض ملايين لتنشئ بها دور تمثيل وتنصب فى ساحاتها التماثيل والنصب فالالمانى يستمتع بالحياة وربما تعجل الرفاهية

ولقد وضعت الحكومة يدها فى المانيا بعد الحرب على المساكن الفارغة في المدن فصارت لاتكريها إلا لمن كان له عيال تؤثرهم على غيرهم من العزب فحملت بذلك الناس على التزوج من طرف خفى ثم لما امتلأت الدور فى بعض المدن أعلنت أنها لاتتعهد بعد الآن بمسكن لصاحب أسرة يتطلبه منها فأخذ الفتيان في بعض الامارات ولا سيما فى باقاريا يتزوجون فى الثامنة عشرة من عمرهم حتى يولد لهم ويسدوا نقص الامة ويستعيضوا عمن فقدت من أبنائها فى الحرب وبذلك أصبحت المانيا تزيد فى السنة نحو مليون نسمة وناهيك بهذه الزيادة بعد عشرين أو ثلاثين سنة . وكل من يصلح للعمل فى المعمل أو فى الحقل ينال رزقه فى الحال

ولذلك قل أن ترى فى المانيا عطلا من عمل أو رجلا ضاقت عليه أوجه الحيل لاستحصال معاشه .

كانت الهجرة قبل الحرب كثيرة من ألمانيا الى أميركا وغيرها وزيادة المواليد على الوفيات كانت تسد الخلل ومازال بضعة ملايين من الالمان فى شمالى أميركا محتفظين الا قليلا بلغتهم ومشخصاتهم ولهم هناك جرائدهم ومدارسهم . ولالمانيا منذ القديم معرفة باستعمار الارض وتكثير النسل حتى أعطى ملوك بروسيا أراضى اربعمائة الف مهاجر فرنساوي وسالسبورغي وسوسنياني ممن كانوا يغادرون أرضهم هرباً من الاضطهاد الديني فى بلادهم الاصلية فأسكنوهم فى البلاد القليلة السكان فى بروسيا الشرقية فأصبحوا المانا مع الزمن واليوم نرى حكام المانيا يحاولون ارجاع قسم من سكان المدن الى الارياف والارباض ليتوفروا على الزراعة ولا يحملوا المدن فوق طاقتها

من كان ينزل المانيا قبل الحرب الاخيرة لم ير غير جند يتنقل ، وضباطاً تنزل وترحل ، كأن البلاد فى حالة حرب فلما ثارت الحرب العامة وغلب ذاك الجيش الالمانى العجيب بتدريبه وقوته على ما شهد له بذلك خصومه أصبحت لاترى للجندية تلك الروح التى بثتها بروسيا فى ست وعشرين أمارة المانية ضمتها الى صدرها وجعلتها بعد حرب السبعين الفرنساوية الالمانية مملكة متحدة الاجزاء قوية الدعائم . بل قد عادت تلك القوة إلى الكمون فقد أوقفت المانيا بعد الحرب معامل السلاح والتدمير والاساطيل البحرية والهوائية وقلبتها معامل صناعية وارتقاء الصناعة الالمانية كان علة الحرب أو احدى عللها . وكيف تترك انكلترا الاولية فى الصنائع لالمانيا كما كانت لها الاولية بجيوشها البرية وكاد يكون لها التقدم فى البحرية لو طال السلم بضع سنين أخرى ولم تنشب تلك الحرب الضروس . والتربية كما قال ميلتون لاتعد صالحة الا متى جعلت المرء كفؤاً لجميع أعمال السلم والحرب

قال غوستاف لوبون : مامن ينكر على الالمان ذوقهم فى العمل ونباتهم وفكرهم

فى النظام ووضع الخطط اللازمة له ولا سيا فى الأعمال المشتركة . وقال بلغ من ارتقاء الالمان فى النشوء الصناعي الحديث ان برزوا فى قليل من الزمن من مستوى منحط فى الجملة الى أول درجات المدنية . وقال أيضاً : استخدمت انكلترا الحرب لتوسع مملكتها الى أقصى ما يتصور من العظمة وتملى على الشعوب الضعيفة ارادتها وتستبدل في أوربا فضل تصدرها بتصدر الألمان . وقال أيضاً : لا يروق انكلترا أن ترى فى قارة أوربا دولة قوية تهددها فقد كانت سنة ١٨١٥ هذه الدولة دولة فرنسا وعلى رأسها نابوليون وفى سنة ١٩١٥ كانت تلك الدولة ألمانيا وعلى رأسها غليوم .

نشأت الروح البروستية من أربعة عوامل أساسية : «الثكنة» و«المدرسة» و « تأثيرات الفلاسفة » و « حكمة المؤرخين » . عوامل رئيسة عملت عملها عدة أجيال فأتت بتأثيرات مهمة يصعب معها نزع فكرة التسليح من نفوس الألمان بعد أن أصبحت عقيدة ثابتة فيهم حتى قال لوبون : ان الألمان لا يعدلون عن هذه العقيدة عقيدة حمل السلاح أو ينزع المسلمون عن الاسلام . وليس فى تاريخ العالم شئ من المعتقدات نزع من نفوس معتقديها بقوة السلاح ولا بالبرهان العقلى فان الألمان ينسبون جزءاً من تفوقهم الاقتصادى الى التسليح . يقول « لايبنز » الفيلسوف الألماني : يتأتى بالتربية تغيير ذهنية شعب فى أقل من قرن . وهذا الحكم لا يصح فى الشعوب التى ثبتت تراكيبها وكان لها ماض طويل فان روح عنصر تمثل شيئاً من معنى البقاء والديمومة وفى التربية تتوجه ملكة الأمة الى معنى معين ولكنها لا تتبدل .

بعد حرب الثلاثين سنة نزل سكان ألمانيا الى النصف وبحروب نابوليون بهظت الديون عاتق المدن قرناً من الزمن وأفلس ألوف من البيوت الكبيرة وكان العروسان بعد واقعة يينا يجعلان فى يديهما خاتمين من حديد بدل الذهب علامة الخطبة وقد نقشا عليه : أعطيت الذهب لأحصل على الحديد .

قلنا ان أول قوة من قوى ألمانيا الحديثة قوة المدرسة فقد كان فيها بحسب احصاء سنة ١٩٠٦ - ١٩٨ر٦١ مدرسة ابتدائية فيها ٣٥٨ر٧٧٩ر٩ تلميذاً ولها الآن احدى وعشرون جامعة لا يقل تلامذتهـا عن ٦٥ ألفاً هذا عدا المدارس الوسطى والصناعية والزراعية والمدارس الفنية العالية ومدارس العميان والزمنى والمعتوهين والصم والبكم والمصابين بالصرع ومدارس الليل للبالغين وغيرها مما يدعو الى تعليم وتربية . وتقسم المدارس فى ألمانيا طبقتين مدارس التربية والمدارس الخاصة أو الصناعية ويدخل فى الأولى المدارس الابتدائية والوسطى للذكور والأناث وهى ثلاث درجات مدارس القرى (من الصف الأول الى الرابع) ومدارس المدن من سبعة الى ثمانية صفوف والمدارس الوسطى فى المدن الكبرى مع تعليم لغة أجنبية (٩ صفوف) والمدارس الثانوية هى مدارس الذكور ذات تسعة صفوف وأربع لغات أجنبية ومدارس الأناث مع أربع لغات أجنبية ومدارس أخرى ذات تسعة صفوف ومنها ما يدرس ثلاث لغات أجنبية ومنها لغتين والمدارس المنظمة على طريقة فرنكفورت والمدارس الثانوية للبنات مع لغتين أجنبيتين وهى ذات تسعة أو عشرة صفوف هذا ماعدا المدارس الصناعية وما عدا مدارس المعلمين والمعلمات التى تناهز ٣٠٠ مدرسة عالية ووسطى ولا يقل تلامذة المدارس الدنيا والوسطى والعليا على اختلاف فروعها وأسمائها عن عشرة ملايين وناهيك بذلك من قوة لا مثيل لها فى المغرب اللهم الا فى الولايات المتحدة .

بدأت ألمانيا [1] فى أوائل القرن التاسع عشر بقيام الفيلسوف فيختى وهيجل لاصلاح التعليم وما أنشأه من الأوضاع العلمية التى حملت الحكومة على تولى ادارة التعليم بدل الكنيسة وأخذها على عاتقها تنسيقه ومراقبته ونشره على اختلاف درجاته ورأت الامة من واجبها أن تحمى المساكين والضعفاء خاصة وتدفع عنهم عوادى الهلاك وأسواء الفساد الادبي وتمد اليهم أيدي المعونة فى الازمات وتقيهم مقعدات العجز والزمانة فكان نجاح التعليم العام وتنظيم التضامن الاجتماعى

(١) ألمانيا الحديثة لهنري اشتنبرجه Henri Lichtenberger : L,Allemagne moderne

أول ما بذلت الحكومة الالمانية عنايتها به فبعد أن كانت المدارس-اللاتينية والكليات تخرج فى القرون السالفة رهباناً ولاهوتيين نزعت عن التعليم صبغته الدينية فأصبحت مجامع علمية لا يتصدر فيها اللاهوتيون ولا الفلاسفة واللغويون كما كانوا أوائل القرن الماضى بل التصدر فيها لرجال العلم والاطباء . ثم نزع التعليم من يد الكنيسة بتحريض بستالوزى أحد كبار علماء التربية فيهم (١٧٤٦—١٨٢٦) وأخذت تلقى فى نفوس التلاميذ الاعتماد على النفس وحب العمل وتبث فيهم القول بحب الذات أو بالشخصية الحرة المستقلة وأخذت المدارس تشرب طلبتها محبة الوطن كانه دين ثان وذلك بفضل العناية التى صرفت لتعليم اللغة الالمانية ولا يزال للكنيسة الى اليوم تأثير مهم فى ألمانيا ولا سيما فى دائرة التعليم الابتدائى والظاهر ان ألمانيا لا تنوي الآن نزع النصرانية من المدرسة حتى ان أرباب الافكار الحرة وهم بعيدون عن كل معتقد لا يرون بان نزع الصبغة الدينية من التعليم فى المانيا هو من الممكن أو مما يرغب فيه وهم معتقدون بأنه متى اصبحت المدرسة «كافرة» لا دين لها يحول قسم وافر من سكان البلاد ولاسيما الكاثوليك وجوههم عن المدارس العامة وينظمون لابنائهم مدارس خاصة لتعليمهم الدين الذى يرونه ضرورياً لهم .

زالت الحواجز التى كانت تحول دون أصناف التعليم وبطل اعتبار اللغة اللاتينية لغة اجبارية لكل من أراد التهذيب العالى وانتزع من المدرسة المدنية على التدريج ما كان لها سابقا من صبغة مدرسة لاتينية وغدا التعليم على اختلاف درجاته أكثر تشبعاً بالروح الادبية أو الفلسفية وأقل تمسكا بالنظريات وقامت بجانب المدرسة الادبية مدارس أحدث من مدارس الفلسفة الحقيقية والحسية وزادت العناية بتعليم العلوم واللغات الحية فكانت وافية بحاجات أهل المدن الصناعية أو التجارية ونشأت بالقرب من الكليات فى كل مكان مجامع علمية مازالت على ارتقاء ونماء ، وقد جرى بين الناس مجرى المثل قولهم بأن المعلم الألمانى كان هو الظافر الحقيقى فى معركتى سادونا وسيدان وأن غلبة المانيا

أنها في الحقيقة من سر تقدمها فى مضمار العلم والتهذيب . ولئن قالت فئة من العارفين بأن المانيا بالغت وا كثرت فى نشر العليم فان أهل الاعتدال منهم مازالوا موقنين على الجملة بأنه لاتحرز المكانة العليا في ايجاد العالم نحو التفوق والسلطة الا الامم التى تحسن أن تضمن لفتيانها تعليما متيناً وتهذيباً راسخاً بما تنظمه من المدارس المتقنة وما تكونه من البيوت الناجحة فى شؤونها الاقتصادية والسالمة من شوائب مفاسد الاخلاق

يرى العارفون أن تأويل الارتقاء الذي فازت به المانيا أتى من اسراعها قبل جميع الامم فى وضع قانون التعليم الاجبارى ومن عنايتها بتخريج أساتذة عارفين ما أمكن فى جميع فروع التعليم . وبالتعليم فتحت العقول واستوت (المقتبس م ٢ ص ٤٠٤) لقبول الافكار الحديثة فرق شعور الافراد ومرنت قواهم وامتد ذكاؤهم وقويت عقولهم وقل الاختلاف بين الطبقة العالية والطبقات النازلة فى المجتمع وذلك فى الامور الذهنية فقط فخرج عاميهم من غفلته وتغفله وصقل ذكاؤه ورق احساسه وبدأ يفكر فى غير الضروريات المادية في حياته اليومية واتسع أمامه ميدان النظر وامتد أفق الغايات السامية واهتم بالاطلاع على مايحدث فى العالم وقد زادت بارتقاء المانيا فى صناعاتها وتحسين زراعتها ورفاهية الامة وحسنت الاخلاق وسعدت الحياة وأصبحت داخلية المدن الى اللطف والذوق يتوفر فيها الزخرف والبهرج والنظافة المفرطة يلبس العملة منهم أجمل الثياب وأنظفها ويسكنون فى أبنية جديدة ويعيشون مرفهين بالجملة . وانتشرت الديمقراطية فى المدن أسرع من القرى حيث يهم السكان للزراعة والقيام على الماشية وساكن المدن أكثر علماً وحركة وحضارة . والفلاح فى العادة من المحافظين وعامل المدن ديمقراطى

هذه نتف من حال العلم والعمل فى المانيا والفضل الاول فى تسلسل العلم في أبنائها جيلا بعد جيل لما منحه امراء البيت المالك فى ساكس للآداب من أشرف أنواع المعونة والاستقلال منذ عهد الاصلاح الدينى ولا حرج اذا قلنا أن ليس

فى بلدفى الارض انتشر فيها التعليم كما انتشر فى ساكس وشمالى المانيا فهناك نشأ المذهب البرتستانتى وحرية البحث والنظر منذ ذاك العهد بشدة . قالت مدام دى ستايل هذا وأوردت أمثلة على انتشار العلم فى عهدها فى تلك البلاد يدهش لها سامعها وقالت ان الكتب منتشرة بحيث أن الحجار بل جميع طبقات العملة اذا أحبوا الراحة تجد كتابهم بأيديهم يطالعونه وان ليس من مدينة مهما صغرت الا ولها خزانة كتب مسبلة على المطالعة وفى كل مكان رجال عظام يرغب فى محادثتهم للاستفادة منهم .

وقالت : ليس للآداب الالمانية ما جرت العادة بأن يدعى بالعصر الذهبى أى القرن الذى كانت فيه الآداب مرتبة بارتقائها لحماية زعماء الامة فان ليون العاشر فى ايطاليا ولويز الرابع عشر فى فرنسا وفى القرون القديمة بركليس وأغسطس قد أطلقا اسميهما على عصريهما ولك أن تعد عهد الملكة حنه أزهر عصور الآداب الانكليزية ولكن هذه الامة الالمانية التى تقوم بنفسها ما كانت قط مدينة لملوكها برجالها الاعاظم .

مدارس المانيا

١١٥

قال أحد علماء الفرنسيس للعلم العملى عند الالمان شدة وتفوذ لاتجد مثلها فى أمة من الامم فان جميع طبقات المجتمع يشتركون فيه من الوزير الى صاحب الحانة ومن الصيرفى الجهبذ الى غلام المقهى . وقال آخران نجاح المانيا الصناعى من العجائب . وقال أحدهم الالمان كجيش منظم فيه من كل أصناف العاملين فالجندى جندي والضابط ضابط والقائد قائد والطاهى طاه ولا من ينازع الآخر فى عمله أو يتطاول الى بلوغ مداه . وقال غيره : لاجدال فى أن المانيا بلد

تعمل فيه الآلات الطابعة في المطابع العلمية عملا كثيراً . وذكر أحدهم [1] ان السائح الذي يجتاز المانيا يدهش في العادة من أنه لا يرى بيتاً قائماً وحده في الاراضي الزراعية بل ان جميع المساكن في الحقول منضمة بعضها الى بعض بحيث يتألف منها أحياناً مدن وهذا مما يدل على فكر الاشتراك المتأصل في العنصر الجرماني الذي يستغرب حال شخص يريد الابتعاد عن أخيه . وهناك شيء آخر وهو أن معظم حكومات المانيا تحظر انشاء المساكن بعيدة عن مراكز القرى حتى لا يحرم الاولاد من الاختلاف الى المدرسة في الايام الممطرة العاصفة ويسأل الوالدان عن تأخر ولدهما اذا تخلف عن المدرسة فاذا تخلف أحدهم يجب على اقربائه أن يبينوا معذرته والا فيجازون أشد الجزاء . وعلى رؤساء المعامل الذين يستخدمون في الخلاء عملة أو موظفين أن يضمنوا لاولادهم حملهم كل يوم الى مدرسة القرية القريبة واذا كثر العملة في بقعة بعيدة تؤسس في الحال مدرسة عامة وتكون في العادة باعانة من صاحب المعمل . وكان من أثر هذه العناية أن قل عدد الاميين في المانيا بحيث لا تجد واحداً في الالف على أنهم لم يكتفوا بتعليم المبادىء فقط بل انك لا تدخل قرية ولا معملا ولا بيتاً الا وتجد الجرائد والكتب في الايدي تتلى ويستفاد منها بين جميع الطبقات .

للتعليم الابتدائي والاوسط في المانيا ميزتان لا نظير لهما في سائر الممالك وهي أنه لا يبعد المتعلم عن العيشة البيتية بين ذويه فيفضلون طريقة المدارس الخارجية على الداخلية أي أن يتعلم التلميذ في المدرسة في النهار ويجيء في الليل يبيت في دار أبيه وهذا التعليم سلم للتعليم الصناعي الذي تختلف درجاته وتراه نظرياً وعملياً في آن واحد . هذا الى ما هناك من دروس الاشياء والمجاميع النفيسة التي تراها في المدارس الالمانية والتعليم بالنظر وبالذهن والعمل والنزهات المفيدة وغير ذلك من أنواع التربية . وما من الماني الا ويتعلم شيئاً من التعليم الصناعي ففي هذه البلاد التي يكاد الناس كلهم يعملون قد وقع في النفوس أنه لا يجوز

---

(١) من مقالة لاحد رجال الفرنسيس في كتاب المانيا العاملة عربناها لمجلة المقتبس ج٥ ص٥١٥

لأحد أن يتعاطى صناعة من الصنائع المقررة قبل أن يتعلمها بالنظر والعمل . وهذا ما أدى الى انشاء كثير من المعاهد الملوكية والامبراطورية والبلدية والخصوصية تقصدها الامة فتستقى من مواردها قوتها المنتجة والعقلية .

وأعظم هذه المعاهد وأقدمها وأشهرها جامعاتها وعددها احدى وعشرون جامعة . وكانت كل أمارة من الامارات الالمانية فيما مضى تحاول أن تكون لها جامعة فاقدمها جامعة هايدلبرغ أنشئت سنة ١٣٨٦ وأحدثها كلية فرانكفورت أسست سنة ١٩١٣ . وقدم الجامعة عنوان شرف لها . ومن أشهر جامعات المانيا جامعة ليبسيك أنشئت سنة ١٤٠٩ وهى تفاخر بان من جملة أساتذتها الفيلسوف لايبنز ومن جملة طلابها كيتى الشاعر وفاكنر الموسيقار . وكل جامعة تنقسم الى شعب أربع وهى الالهيات (على المذهب البرتستانتى والكاثوليكى) والحقوق والطب والفلسفة وهذه أربعة فروع (ا) الفلسفة المجردة وعلم التربية والمنطق (ب) علم اللغات والآداب (ج) التاريخ والجغرافيا وتاريخ الصنائع والموسيقى (د) السياسات وعلم الاقتصاد (هـ) الرياضيات والطبيعيات (وهى الرياضيات وعلم الفلك والحكمة الطبيعية والكيمياء والحيوان والنبات وطبقات الارض) وهاك أسماء هذه الجامعات وتاريخ تأسيسها : برلين ١٨٠٩ مونيخ ١٤٧٢ ليبسيك ١٤٠٩ بون ١٨١٨ هالله ١٥٠٢ برسلاو ١٧٠٢ فرايبورغ ١٤٥٧ غوتنغن ١٧٣٧ مونستر ١٧٧١ هايدلبرغ ١٣٨٦ ماربورغ ١٥٢٧ توبنغن ١٤٧٧ يينا ١٥٥٨ كنغنبرغ ١٥٤٤ كيل ١٦٦٥ ورتسبورغ ١٤٠٢ كيش ١٦٠٧ أرلانكن ١٧٤٣ كرابفسوالد ١٤٥٦ روشتون ١٤١٩ فرانكفورت ١٩١٣

وهذه الكليات [1] مستقلة حرة ولكنها منظمة بنظام واحد . والجامعات مهما كانت وجهتها في تعليمها نظرية أو عملية لا تنافس فى اعداد مهندسين وصناع والمباحث التى يستفيد منها أمثالهم يرونها فى الجامع الكيماوية والعلوم الطبيعية فى المدارس الصناعية هى التى يتخرج فيها أرباب الهندسة والصناعات وهذه

(١) الجامعات الالمانية فى القرن العشرين لكروشته
R. Cruchet : Les Universites Allemandes au X X e siecle

المدارس تابعة لكل امارة تخرج كل سنة ثلاثة آلاف مهندس يدرسون فيها أربع سنين هذا عدا من يتخرجون من المدارس الثانوية الصناعية ويحرز لقب « دكتور » تلامذة المدارس الصناعية العالية كما يحرز المتخرجون فى الجامعات. ولقب دكتور أشرف الألقاب وأعلاها فى ألمانيا . والالمان أحرص الأمم على لقب دكتور حتى انك اذا لم تطلق هذا اللقب الشريف على من ناله عدَّ ذلك منك سخرية وفى ذلك دليل كبير على ميل هذا الشعب للعلم والتلقب بألقابه .

وفى هذه المدارس يتجلى ميل الألمان للأخصاء فيعلمون ما يعلمه غيرهم من الأمم فرداً واحداً لخمسة أفراد قائلين ان الذهن لا يتسع لاكثار المواد عليه . والألمان لا يحرصون على تعليم الهندسة لأذكى أذكيائهم بل يريدون أن يجعلوها قريبة المنال من كل أحد وهم يستعملون كل الطرق التي يرونها نافعة لئلا يتعبوا الفكر على غير طائل باغراقه مدة ساعات فى حل قضية ولذلك ترى الأساتذة يأخذون تلامذتهم الى معامل خاصة ليطلعوهم بالعمل على ما ينبغي لهم الاطلاع عليه من الآلات والأدوات . وكل معامل المدرسة وغرفها وحجر كتبها وصفوفها منارة بالكهرباء أو بالغاز على صورة لا تضر بصحة العيون حتى انه ليقل جداً عدد الحسر فى الألمان لشدة العناية بالعيون . وهكذا لا تمر بقرية ولا قصبة ولا مدينة ولا عاصمة فى ألمانيا الا وتجد فيها مدارس صناعية كبيرة وصغيرة على نفقة الحكومة أو البلديات تعلم الصناعات المختلفة . ومن هذه المدارس ما هو أشبه بقصور الملوك منه بالمدارس لما حوى من المرافق والردهات والاروقة والساحات والأدوات .

***

من الكليات نشأت الانقلابات الكبرى فى الفلسفة والدين والعلم (المقتبس م ٦ ص ١٣٧) ومنها نشأت الوحدة الالمانية وكان الالمان الى ذاك العهد أمة فكر وشعر يقولون فى أنفسهم انهم تركوا البر لجارتهم فرنسا تتصرف فيه على

ما نشاء والبحر لانكلترا تسرح فيه وتمرح ولم يبق لهم الا الاحتفاظ بالسماء منزل العقل . والوحدة السياسية التي كان يراها بعضهم من الخيال قد تحققت من طريق العلم والعمل بفضل الجامعات التي كانت مركز الحياة الوطنية . والغاية من هذه الجامعات أن لا تخرج علماء صرفاً ولا رجال صناعات ممتازين بل ان تهذب طلابها تهذيباً يتيسر لهم معه أن يستعدوا لدخول المجتمع والتصدر فيه فليست الغاية اذاً أن تخرج تلك الكليات أساتذة وحكاماً ورجال دين للحكومة ولا أن تعد محامين وأطباء للأمة بل أن تعلمهم تعليماً عملياً وتلقنهم الخطة التي يجب عليهم أن يسيروا عليها وتقفهم على أساليب البحث والنقد وتقوى فيهم ملكة أخلاق العلماء كالعفة وخلو الغرض وسعة الفكر وتلقنهم شيئاً من العلوم المساعدة وأن يطلقوا رائد الطرف اجمالا في الميدان الذي يجب عليهم أن يجروا فيه وبالجملة تؤهلهم الى أن يتموا هم بأنفسهم ما بدأ به أسلافهم .

يتعلم الطالب المتخرج فى جامعة المانية ماهو العلم اذا اقترن بعلم خاص . فلا يكتفي بشهادة ينالها فيحق له بها أن يقضى أو يشفى أو يعلم أو يلقن الدين لمواطنيه بل ينبغي له أن يتمرن سنة فى الفرع الذى يريد الاخصاء فيه ثم يقدم فحصاً بعد أن تكون المدرسة قد أعدته للنظر الاجمالى فى الحياة العلمية . ولرجال الدين والاساتذة والمحامين والقضاة والموظفين والاطباء فى المانيا الذين ينشأون من الجامعات طبقة خاصة ومنزلة سامية بين قومهم لا ينالها الا الضباط ولكن الصيارف والتجار وأرباب الصناعات والاملاك مهما بلغوا من الغنى والذكاء وخدموا المصلحة العامة هم بمنزلة دون أولئك الذين تخرجوا باساتيذ الجامعات . وتناغى القوم فى الاعمال الحرة لقن طبقات الامة الالمانية ان أرباب الصناعات والتجارات وهم من طلاب المال والغنى لا يعيشون مهما بلغوا من الذكاء الا للثروة ولذلك تكون منزلتهم فى الانظار دون منزلة العاملين بأفكارهم وعقولهم

تضمن الجامعة الالمانية للطالب فيها تهذيب العقل من جهة وتربية الارادة والخلق من جهة أخرى وذلك باطلاقها حرية الطالب فيها فتعامله معاملة رجل حر

عاقل له حق التصرف بأمواله ولسان حالها يقول : « اعمل ما يروقك واعلم فقط انك ستجني مازرعت » وفى الاناشيد الالمـانية شيء كثير يشير الى أن حرية الطالب أثمن شيء وانها من أوصافه الخاصة به . فالغنى لايحضر دروس الجامعة للحصول على معارف تنفعه لاحتراف حرفة فى المستقبل وما هـذا الطلب الا ثانوي بل ان الغاية التى يسعى وراءها فى سنيه الثلاث فى الجامعة هو ان يصبح رجلا وتكون له شخصية . يعينه على ذلك أساتذته وأترابه . ومن هنا نشأت فائدة جمعيات الطلبة لان الطالب يتعلم فيها أمرين مهمين الطاعة واحترام الناس له . والطلبة المتقدمون يطبعون على ذلك الطلبة المتأخرين أو المحدثين بمحافظتهم على قواعد لهم يسنونها فينبعث فى الطالب شعور الشرف وعزة النفس فى الحياة المشتركة وتقوى ارادته على الصدمات فهو اذا خلص من سلطته فى منزله بين أبويه يكون لتلك الجمعيات عليه شيء من السلطة الادبية فبالجامعة لايصبح رجلا عالما ومهذباً فقط بل صاحب أخلاق . قال أحد العارفين أن الجامعات الفرنسوية تنقصها الحرية والجامعات الانكليزية ينقصها العلم وفى الجامعات الالمـانية لا ينقص هذا ولا ذاك

قالت مدام دى ستايل : ان بلاد المانيا التى ارتقى فيها البحث والنظر ارتقاء بعيداً يسوغ أن تعد وطن الفكر ومن المحال أن لايكون كتاب الالمـان وهم أكثر كتاب اوربا علماً ونظراً مستحقين ساعة من العناية للبحث فى آدابهم وفلسفتهم . وذكرت أن العلماء كانوا يشتغلون فى عهدها ثلاث عشرة ساعة فى بعض بلاد المانيا على أسلوب ونظام وتساءلت عن النتيجة التى يحصلون عليها فى بضع سنين . وقالت : امتلأ شمالى المانيا بجامعات هى أكثر كليات أوربا علماً وما من بلد حتى ولا انكلترا توفرت فيه أساليب التعلم وتهذيب القوى مثلها هناك والجامعات البرتستانتية أرقى من الجامعات الكاثوليكية وجميع المجد الادبى الذى اختصت به المانيا يرجع الى هذه المعاهد . وقال أحد كتاب الفرنسيس أن تربية الجامعات الالمانية تبتدئ حيث تنتهى تربية عدة أمم فى أوربا

قام مجد المانيا قديماً بمن نبغ فيها من الفلاسفة ثم بمن نبغ فيها من القواد والجند وعجدها اليوم مناط الا قليلا بارباب الصناعة والتجارة من أبنائها . حاجة المدنية الحديثة ماسة للاخصاء فى العلوم والتفرد فى الصناعات والمانيا لاتجهل أن قوتها فى جهاد الامم السلمي بمن لديها من الاخصائيين الكثيرين الذين لا نظير لهم عند الامم الاخرى بكثرتهم وتنوعهم . فقد كان كيتى يرى ضرورة الاختصاص الذى به فقط يصبح المرء عضواً نافعاً فى المجتمع فان حسن المعرفة واحسان عمل شيء واحد يورث ارتقاء كبيراً أكثر من أن يعمل المرء نصف عمل ويشغل نفسه فى مئة مسألة . وان أول واجب على الانسان أن يتعلم صناعة واحدة تعلما حسناً فالمتوسطون بذكائهم يكون منهم أرباب صنائع وأرباب الذكاء الواسع يصبحون رجال التفنن حتى أن النابغة نفسه يرى في الشيء الوحيد الذى يحسن القيام به رمزاً لكل ما يعمل حسناً واشارة لكل جهاد نافع ومثمر

أن ألمانيا تفاخر وحق لها الفخر بأنها موطن كبار الفلاسفة أمثال « كانت » و « ليسنغ » و « ليبنز » و « شوبنهور » و « فيختى » ومن الشعراء « كيتى » و « شيلر » وأن من ربوعها قام الاصلاح الدينى فقلب لوتيروس بدعوته الغرب كل مقلب وأنها وطن « ورتمبرغ » مخترع الطباعة أول محسن للمدنية

أخلاق الالمان

١١٦

عرفت من أخلاق الالمان فى الحرب الاخيرة كما عرف كثيرون غيرى من الاتراك والعرب يبوسة فى الطباع لم تعرف فى أخلاق النمساويين والمجريين مثلا وذلك لان معظم من وردوا على بلادنا لذاك العهد كانوا ضباطاً والجند أشداء الشكيمة صعب مراسهم ، وأهل بروسيا من بين الالمان خاصة يشتكى من شدتهم

حتى المتحدون معهم أمثال أهل بافاريا . ولعل لاختلاف المذهب دخلا فى هذا الاشمئزاز لان بروسيا برتستانتية وبافاريا كاثوليكية أو لان بروسيا هى التى سيطرت على المانيا ووحدت كلمتها . وكيف كان الحال فالامم الاوربية لايصح عليها الحكم خارج بلادها بل يحكم عليها بما يُرى عليه فى أرضها وعقر دارها

قالت مدام دى ستايل : يجب على من أراد أن يعرف بروسيا أن يدرس سيرة مؤسسها فريدريك الثاني الذى كان يجمع الى خشونة الجندى رقة المدنى ويمزج روح الجندية بالعدل المدنى وكان من القيد في محل والحرية في آخر بحيث يعجب به كل من يقرأ سيرته ويرى آثاره فى أمته ٠ كان فيلسوفا تخرج بفلسفة القرن الثامن عشر الفرنساوية فعدلت فيــه الاستبداد الذى فطر عليــه الحاكم المطلق . وكان لايشق عليه أن يسمع كلمة السوء توجه اليه فيترك الناس وحريتهم يقولون فيه مايشتهون . وكان هذا من غرائبه . وقد أعطى المحاكم حريتها بحيث كانت تحكم على أقرب الناس إليــه وكثيراً ما تحكم فى مسائل سياسية تخالف ارادة الملك ومن المتعذر ادخال الظلم الى محاكم ألمانيا . قالت ان فى الألمان بعض الاستعداد لاختراع أساليب تؤهلهم للتخلى عن السياسة للأخذ بالعرف ولـكن اذا كان برادإحقاق حق أو ادارة مصلحة لا سبيل لأن يدخل فى عقولهم غيرمبادىء العدل فانفكر النظام فيهم دعاستقامة قلوبهم يطالب بالعدل كأنه يدخل النظام فى كل شىء .

وقالت أيضاً : الألمـان هم بالاجمال مخلصون وصادقون ونددران يرجعوا عن أقوالهم والغش صنعة لا أثرلها عندهم وهى غريبة عنهم واذا حدث ان تسلل الغش الى ألمانيا فذلك حسداً من أهلها للاجانب فيقتدون بأخلاقهم لـكى يظهروا مثلهم فى الحذق وحتى لا يكونوا أنفسهم مغشوشين ولكن الشعور الحى وطيبة القلب تؤدى فى الحال بالالمان الى أن يشعروا بأن لا قوة الا ما جاء من طبيعة المرء وان اعتياد الحشمة لا يجعل فى الانسان استعداداً للاحتيال ولو أراده . واذا شوهدت فى الأمم اللاتينية سياسة غريبة فى الحذق للتملص من جميع الواجبات

فالامة الالمانية ولها الفخر فى ذلك ليس لها استعداد لهذه الليونة الجريئة التى تلين كل الحقائق لاجل المصلحة وتعبث بجميع العهود أمام كل النظريات . وما الالمان الا أمة عرفت بالقدرة على العمل وفطرت على حب النظر والفكر وهما خاصيتان ملازمتان لها

وقال جناب شهاب الدين : ما من صنف من الناس يحتقر الصنف الآخر فى ألمانيا بل جميع الطبقات متساندة ويحاول الالمان أن ينظروا الى أصحابهم وأعدائهم على نسبة حقيقية ويعرفون أعداؤهم معرفتهم لاصحابهم ولا ينظرون الى أحد بمجهر الشعر والحس كأن يعطوا أصدقاءهم درجة تفوق استحقاقهم ويضعوا أعداءهم الى دركة هى دون مرتبتهم الحقيقية فكما يقيس الالمانى أخاه ويفصله ويزنه ويعاينه ويحلله هكذا يعمل مع غير الالمان .

وقال لشتنبرجه : للألمان مرونة فى الفكر تسهل عليهم ادراك ما تنتجه قرائح الاجانب وعدم محاباة فطرية تهيئهم لفهم بقية الشعوب والحكم عليهم بأسلوب شامل ونظام عام ينظر فيه الى الكفاآت والهبات . وقال أيضاً : الالمان يعجبون وحق لهم العجب بما اتصفوا به من الجد والثبات والاستقامة فى العمل والنظام والترتيب خاصة .

وقالت مدام دي ستايل أيضاً : للالمان فى الآداب عناية بالغة بما يأتى عن طريق الاجانب كما لهم عناية بسياستهم وقليل من الأوهام الوطنية . ان من الصفات الحسنة فى المرء انكار ذاته واعتبار الآخرين ولكن وطنية الأمم يجب أن تكون الى حب الذات والانانية . ان إعجاب الانكليز بأنفسهم قد كان له شأن عظيم فى قيام جامعتهم السياسية ولطالما كان حسن ظن الفرنسيس بأنفسهم العامل النافع فى نشر نفوذهم فى أوربا . والكبر الشريف الذى عرف به الاسبانيول قد جعل منهم فيما مضى ملوكا على جزء من العالم .

ان الحس فى الالمان — على ما قاله فوليه — كالحس فى الانكليز من نوع البلغمي الحاد النصف دموى وهو بطيء التأثر . فالشعور والادراك فى الالمان

قليل مضاؤهما ورقتهما . فكما أن التأثرات تطول اثارتها فى الجملة تجدها اذا هاجت الى الشدة والدوام فاحساسهم بطىء واضطرابهم شديد وهذا معدل ما يحكم به عليهم . والادراك الجرمانى مزيج من الحقيقة والخيال فتجد فيه ميلا شديداً الى الماديات مثل حبه لرخاء العيش واميالا خيالية يكون منها القنوط وجمع الفكر والغناء . ان للطبيعة والمناخ تأثيراً فى ادراك الشعوب يدعوهم الى السرور أو الانقباض والالماني متقلب من نفسه يستغرق ساعات فى السرر القليل الغلظة وله ساعات من السويداء وكثيراً ما يكون متشائما لا متفائلا وليس فى فطرته اجمالا ان الطبيعة صالحة والمرء طيب فيحذر ويراقب ويتهم غيره ونفسه ويرى الجهة السوداء في الاشياء والطبيعة الابليسية فى الانسان

الالمانى متشبع بفكرة الخطيئة الاصلية وبضعفنا الطبيعى عن بلوغ الخلاص والسلامة وهو على شيء من الخشونة فيه استعداد للرحمة ولا يشعر بحاجة الى الاجتماع كما هو الحال فى الافرنسى بل يكتفى بنفسه مختاراً ولا يجد فيه باعثاً جوهرياً على أن يبوح بذات نفسه ويبث عاطفته وله غرام تكنه جوانحه لا على طريقة سكان الجنوب الصفراويين العصبيين بأمزجتهم وهو محصور فى بعض أفكار فى الحب أو البغض وفى دائرة خاصة من الطمع الشخصى . وعلى الجملة فان الالمانى يولع بعمل يعلق عليه بعض الشأن أو بعض المهمات التى تختلف مكانتها أو بعض المبادىء الاخلاقية والفلسفية والدينية والوطنية

الالمانى كالافرنسى متحمس ولكن بغير طريقة هذا . الفرنساوى حاد يهيج ويطفح . أما الرأس الجرمانى فيحمى ويشتعل فى داخله ببطء ولكن بصورة متصلة فهو كنار فحم أرضى قد ينبعث منه دخان أحياناً لا كنار أغصان تلتهب التهاباً شديداً بل كنار تبن أما الانكليرى فان الاحساس العملى قد نظم ادراكه تنظيما بحيث ترى حماسته فى شعره لا فى سلوكه . الالمانى يكتم حقده فهو حقود منتقم ويظهر ما فى نفسه لمن يكرهه فهو يبغض البولونى والرومى واليهودي ويصرح ببغضه لهم اما بغضه لعدوه الموروث أى الفرنساوى فادهى وامر

ذكاء الألماني كاحساسه بطيء فى حركته ثابت مستقر وكثيراً ما يكون متثاقلا عارياً عن المرونة والرقة ولا يهتم للاشكال والفروق بل يبدو متيناً مقاوماً ثابتاً حراً متعلقاً كل التعلق بأهداب الحق . الألماني يعمل فيما اتجهت همته اليه بنشاط ليس وراءه غاية وبحث طويل فليس هو من أرباب البديهة بل ان فكره يدور ويرجع طويلا فى أصعب المسائل . قال كيتى : ان الألمان يحبون أن يبينوا ما عملوا. وقال شيلر : ان الألمان لا يكذب بعضهم بعضاً أصلا فمن العبث أن تقدم اليهم أطعمة جيدة فلكى يتناولوها بشهوة يودون أن يسألوا عن أسمائها . ويظهر انكماش الألمانى وبحثه المتصل البارد من ذوقه فى التوسع فى العلم ودرس اللغات . والألمانى كما قال روبرتسون تاجر بالجملة والمفرق فيما يختص بالعلم . وقال لايبنز ان الخلق المتأصل فى الألماني هو حب العمل وهى صفة ثمينة للعلم والفلسفة . ان حب البحث والاختراع والتركيب والبناء خاصة جوهرية فى العقل الجرمانى . وكم من ألماني لو ان المولى مسك بيمينه الحقيقة و بشماله البحث عنها لكان قال كما ذكر ليسنغ . يارب انى آثرت البحث ومفتاح الحقيقة بيدك وحدك .

ان رأساً منظما كل التنظيم مضافاً الى مزاج رزق كمية صالحة من التأنى تنشأ منه حركة معتدلة فى مجرى الافكار تقوم منها الممثلات الخارجة والافكار المتممة أمام الفكر . فالتفكر فى هذه الحالة يصبح طبيعة ثانية . ولقد اشتدت حياة التفكر فى الالمانى حتى انه ليقتنع بها أحياناً . وليس الالماني ممن يكتفى بالبسائط بل يحب النظر فى القضية ونقيضها فقد كان بسمرك يقسم العالم الى قسمين مختصرين أحباب الامبراطورية الالمانية وأعداؤها . والالماني أيضاً يحب الترتيب الى طبقات ويحب منها ما كان ملتبساً مشتبكا . ويحب أن يصفّ أفكاره طبقات وعلى نظام بحسب المناسبات المجردة لا المعقولة ليتيسر له بعد ذلك أن ينظم أعماله على حسب مبادئه وهو فى العادة ينظر فى مبدإين أو ثلاثة فتراه لا يحب اختصار ساحة النظر بل يحب أن يرى أموراً كثيرة فى وقت واحد ونظره واسع مضطرب ويرتاح الى المتناقضات والمبهمات وأعماله تشعر بعمله وطول مراجعته الكثيرة للكتب فى الخزائن .

وأهم ما فى الخلق الألمانى الارادة وهي خلق جدير فيه بالاحترام . فان النشاط والدؤوب هما من الصفات الاولى فيه ومنها نشأ الصبر فى احتمال المصاعب الملازمة للنجاح والمواظبة والتنظيم والتعلق بالواجب وكان من ذلك منشأ الشخصية التى عرف بها الجرمانى والمصدر الاكيد لنشاطه الدائم . الالمانى مزيج من قوتين احداهما وحشية والثانية بنيت على الفكر والتأمل وفيه الشدة البربرية والتعليم الراقى وفيه حب الشهوات وحب العبادة والتصوف وحب القتال وحب الدين والصلابة المعقولة والشعور العقلى فهو من المولعين بالحقائق وبالخيالات فى آن واحد أو كما قال نيتشه الفيلسوف الالمانى : « ان للروح الالمانية معابر ومجازات وفيها مغاور ومخابئ وخلوات ولها غرام بكل مجهول . الالمانى يعرف الطرق السرية التى تؤدى الى الفضاء والخلاء فكما ان شبيه الشيء منجذب اليه هكذا الالمانى يحب الغيم وكل ما هو قاتم وجديد وفيه إظلام ورطوبة وغشاوة يرى آية فى التحقيق ويتعلق بكل مالم يبت شيء فى حقيقته وهو فى دور الجنين وعلى أهبة التأليف والنمو . وليس الالمانى موجوداً بنفسه بل يوجد ولذلك كان الايجاد هو العمل الحقيقى فى الالمانى وكما له فى الدائرة الكبرى للافكار الفلسفية . »

الالمانى شخصية مفطورة على الطاعة ومن لايحترف حرفة ولا يعرف بلقب من الالقاب لا يعد فيهم شيئاً وفيه بعض جفاء حتى قال بسمرك يوماً اننا معاشر البروسيين لم نرزق قريحة تحبينا الى الخلق. وهم يحترمون كل الاحترام المعنى الداخلى فى الامور وقلما يحفلون بالصور الخارجية وكثيراً ما نرى الالمانى جلفاً فلا يصرف وقته فى الباس ما يقتنع فيه شكلا لطيفاً لانه لا يعلق مكانة مهمة على هذا الشكل وكثيراً ما أهمل الحرية السياسية لانه كان موقناً أن حرية فكره لم تمسس . قال فوليه الذى لخصنا عنه ما تقدم : لايعدم الالمانى ملجأ على الدوام وأعنى به شخصيته .

مثال من مزارع المانيا

١١٧

بلغ من انتشار العلم فى المانيا بين عامة الطبقات ان خصت الزراعة بادىء بدء بالعناية الكبرى وهاك ما كتبه هوره الكاتب الفرنساوى فى وصف مزرعة أحد أشراف الفلاحين فى سيليزيا من بلاد بروسيا ومنه تدرك أن أمة بلغ غرامها هذا الحد كيف لا تغنى وتسعد قال ما ملخصه : قد يظن ظان أن أشراف الفلاحين فى المانيا هم دون أشراف المدن بمعارفهم ورقة شمائلهم ولطف مأتاهم والحقيقة أنه لا ينقصهم شىء من ذلك . توفروا على استثمار مزارعهم فكانت زراعة المانيا بهم وبفلاحيها تأتى بمورد لا يقل عن أربعين فى المئة من اللازم لعيش المانيا والباقى تناله من صناعاتها . وثلاثة أرباع سكان المانيا يعيشون فى المدن والثلث فقط يعيش فى الحقول وندر أن يكون الفلاح مالكا ولا سيما فى المانيا الشمالية حيث تكثر الاملاك الواسعة بيد شخص . هذا وثلث سكان فرنسا يعيشون فى المدن التى يربو سكانها على أربعة آلاف نسمة والثلثان الآخران يعيشان فى الحقول لان من الفلاحين أصحاب أراض .

وصلت الى المكان الذى واعدني اليه ذلك البارون لازور مزرعته فرأيت في المحطة خادماً ينتظرنى وله عربة تساق على خط حديدى فأخذنا نقطع الحقول والمروج حتى وصلنا الى منزله الذي جمع بين لطافة الحديث وجلال القديم وفى وسطه برج قامت حواليه أربعة أبراج وسقف القصر من القرميد ومن كل جهة سرادق ذو طبقتين لهما نوافذ تشرف على الحديقة وهى من أجزاء المزرعة والاشجار الضخمة تغطى بأغصانها وظلالها أبراج القصر وفى داخله ثلاث قاعات احداها حوت الطرف الجديد الساذج وهناك غرفة المائدة فرشت بالخشب الابيض ودهاليز وأدراج مزينة بعظام الايائل وحمر الوحش

انتهيت الى مكتب الشريف الريفي فرأيت بجانبه آلته الكاتبة وأوراقه في أضابيرها وآلاته الهاتفة مربوطة مباشرة مع كل قطعة من ملكه وهناك مقويات فيها السندات والوصولات والمكاتبات والاحصاءات . وفي جانبها خزانة كتبه ومعظمها زراعي يبحث في عمران الارض وتربية الماشية واختيار السماد وقد طبع لوحات ذات عمد ليقيد فيها الحاصلات وفحواها وصفتها وأساليب زراعة الارض وواردانها وغلة كل بيعة من الحبوب والحيوانات . فيكفيه أن يفتح سجلا ليعرف بالدرهم ما صرفه على البذار والسماد ونفقات الحرث والحصاد والدرس والتعشيب وثمن حاصلاته والربح الصافي من أرضه .

وهناك ميزان يزن فيه القمح والجاودار وفي جانبه آلة لقطع حبات الشعير والحكم على نوعها وآلة أخرى تشبه الانبيق يتحقق بها اذا كانت الأرض تحتوي القدر اللازم من الكلس وفي فناء الدار آلة للمطر وأخرى للحرارة يراد منهما الوقوف على الجو والمقابلة بين اختلافاته ومعدل نزول الامطار التي سقطت خلال السنة مع الاشارات المشابهة لها في أنحاء أخرى ليرى فيما اذا كانت هذه الاحداث الجوية متناسبة مع جودة المحصول . وفي جانبها لوحات كتب عليها يوماً فيوماً تبدل الحالات الجوية في ذاك المكان منذ سنين . واذ كانت المزرعة بعيدة عن المدينة كثيراً أقام البارون صاحبها في أحد أطرافها معملا لتوليد الغاز لاضاءة قصره بالاسيتلين .

تتألف مزرعته من ٢٠٠٠ هكتار من الارض خاصة بزراعة الحبوب كالحنطة والقرطمان والجاودار والشعير والشوندر و ٨٠٠ هكتار غابات و ٥٠٠ هكتار مروج و ٥٠٠ هكتار بحيرات و ٥٠٠ هكتار بور أي أن مساحتها تربو على أربعة آلاف هكتار من حيث المجموع .

وبعد تناول الطعام والتنزه قليلا في أحد مماشي الحديقة الوارفة الظلال ركبنا عربة مع صاحب القصر فقال لي وهو باسم : ترى الآن اننا لا يلحقنا عار البطالة فان عملي منوع يشبه عمل وزير الدولة وادارة هذا الملك وحدها تحتاج الى عمل

متواصل فان تقارير المزارع المختلفة ترد على كل أسبوع فنها مافيه أن كمية كذا من البطاطا قد أرسلت الى معمل النشا ومنها أن كمية كذا من الشوندر تحتوى كذا من السكر ترسل غداً الى المعمل ومنها ان آلة حديثة للزراعة جرت تجربتها فى أرضنا فبعثوا يبلغونى نتيجة تجاربها ويجب على النظر فى حسابات الاستثمار والبحث في كل شيء فأكون تاجراً وزارعاً وصانعاً معاً لانى استخدم بنفسى بعض الغلات كالبطاطا مثلا ومع هذا لا أستطيع أن أتولى كل عمل فلنا مفتشون كفاة لكل فرع من فروع الزراعة تعين الحكومة أو الولاية بعضهم وآخرون تدفع لهم نقابات أصحاب الاملاك رواتبهم وندفع نحن مشاهرات بعضهم . وهكذا تجد غنمى يفتشه موظف عهد اليه تفتيش القطعان فى المملكة كلها وهو الذى يقدم لأصحاب الاملاك التيوس اللازمة للتناسل وتكون مختلفة بحسب جنس الغنم. ولى مفتش لغاباتي عينته غرفة الزراعة فى الولاية وآخر للالبان التى تجمع من عامة اصطبلاتى وحظائرى . وهذا التفتيش نافع للغاية وذلك أن لبن البقرة اذا لم يكن فيه سمن كاف يزاد فى علفها وتراح . ومفتش السقى يبحث عن أقنية السقيا وعن المجارى الكبرى وعما اذا كان الزرع جيداً أو خرجت فيه الاعشاب الرديئة القاتلة له . وهناك مفتش يبحث عن الابقار وتناسلها وآخر عن الخيول المطهمة

وصلنا الى حقول فيها أحجار من المحبب «كرانيت» فقال لى صاحبنا أنه لايكفي خمش الارض فى الحرث بل ان السكة البخارية تخرج الى سطح الارض كل ما يتخللها من الاحجار التى نجمعها لنبلط بها الاماكن اللازمة أما السماد فانه يغير كل سنة ماعدا البوتاس الذى يبقى سنتين وثلاثاً وانى أنفق فى السنة من ٥٠ الى ٦٠ الف فرنك ثمن السماد الكيماوى والنشادر الذى نستعمله غال أيضا

وهناك انبسطت أمامنا حقول البقول المنوعة وأرانى صاحبى عن بعد مزرعة صغيرة فقال : هذا نموذج المزارع العادية . مزرعة مساحتها السطحية ١٥٠ هكتاراً من جيد التربة زرعت كلها ولها غابة صغيرة على الرابية وفى المنحدر بيوت بعض الفلاحين وحقول الغلات والبطاطا والشوندر . ويعيش فى جوار هذا المالك كما

يعيش فى جوار معظم كبار المالكين أناس أحرار من صغار الفلاحين يملكون قطعاً صغيرة من الارض يعيشون كما يعيش القطر فى ظل بلوطة ولا من ينغص عليهم عيشهم ومن يملك من عشرة الى عشرين هكتاراً من الارض يشتغل لحسابه الخاص وتعينه أسرته ومن يملك هكتاراً أو اثنين يؤجر نفسه مياومة للسيد المالك العظيم ومن المزارع ما أثقلته الديون بحيث لا يوازى دخلها فائدة ديونها

أما الاشراف فلهم غرام بالارض ومنهم من يستطيعون أن يستثمروا أموالهم فى الصناعة وغيرها بفائدة ٦ أو ٧ فى المئة فيؤثرون أن يستثمروها بأنفسهم فى أملاكهم ولا تأتيهم بأكثر من اثنين ونصف فى المئة فترى الواحد منهم اذا ورث أباه او أخاه يبادر لحضور دروس الزراعة كاحد الطلبة سنتين ثم ينقطع بجمله الى الزراعة والى تربية البهائم ومتى مات الاب يرث البكر من أولاده ملكه . وفى الغالب ان الملك هنا لا يقسم لانه مؤلف من حظائر واهراء ومحطات يستحيل فصل بعضها عن الآخر وعلى البكر أن يقدم لاخوته وأخواته ما يوازى حصتهم نقداً واذا لم يكن عنده نقد يرهن ملكه واذا لم يجد وهنا يضطر الى بيعه ومعظم أرباب الاملاك الواسعة يورثون البكر من أولادهم فيبقى الملك كله له بمعنى ان الوالد اذا لم يكن اقتصد مالا فى حياته يبقى أولاده بدون فلس بعده وربما بقى أكثر الاولاد فقراء لانهم اذا أخذوا نقداً فيكون جزئياً لا يكفيهم ليعيشوا ومن هنا ترى معاهد كثيرة فى ألمانيا أخذت على نفسها اعاشة البنات الشريفات ممن تقدمن فى السن ولم ينلهن من آبائهن ما يستطعن به أن يعشن فلم يلبثن بعد العز والرفاهية أن يعشن عيش القلة والفاقة . وألمانيا الآن فى صدد تغيير هذا النظام الجائر .

رأينا فى طريقنا راعى الغنم وراعية البط والاوز وقال صاحب المزرعة ان جميع اللبن المستخرج من بقراته يبعث به الى المعمل القريب لاستخراج الزبدة والجبن وجميع ما عنده من البهائم يطعمه بمطعوم الامراض التى يخشى أن تصيبها ولا سيما الثيران والخنازير . وأرانى الانبار . ومما قاله ان سعر الحبوب تعينه لجنة

أحدثها الفلاحون وصادقت الحكومة عليها واللجنة تسهر على أن تكون الاسعار التي تذكر في الصحف هي الأرقام الحقيقية وتختار الحكومة لمراقبة السوق أناساً من أرباب الأملاك وآخرين من التجار .

حاذينا حقولاً واسعة مزروعة بطاطا فقال صاحب المزرعة انى أنفق فى الخريف نحو ثلاثة آلاف فرنك علاوة على المقرر فى الأجور لقلع البطاطا من مزارعى وأجرة العامل فرنك فى النهار وغلتى من هذا الصنف خمسة ملايين كيلو وبعد أن آخذ منه بذارى وما يلزم للمزارعين عندي أعمل منه نشا لأن عصارة النشا سماد للأرض ولا أعمل منه الكحولاً لأن عصارته غير نافعة وقد كثرت عليه الرسوم. وغلتى ٧٠٠ ألف كيلو من الجاودار و ٣٠٠ ألف كيلو من الحنطة والشوفان والشعير. أما الشوندر فأنا مرتبط مع نقابة زراع الشوندر وأنا من أعضائها ولها معمل سكر من أكبر المعامل فى ألمانيا فنبعث لها به بعد أن يحلل المعمل نموذجات منه يرسل لنا بكشف يبين لنا درجات السكر المستخرج من كل صنف من أصنافه وفيما اذا كنا قصرنا في تسميده وتربيته لنكون من قابل على بصيرة .

وبالقرب من معمل النشا قامت بيوت جديدة للعملة بنيت من الآجر وكل بيت فيه مخدعان أرضيان وعقد (قبو) للبن والبقول وغرفة فى الطبقة الأولى وأنبار عام لعدة من الاسر يضع فيه كل واحد فى ناحية معينة غسيله وفى مقابل هذا الحي اصطبل للحنازير والماعز

وعدد من يعملون فى هذه المزرعة من ٢٠٠ الى ٣٠٠ شخص يدخلون فى ١٢٥ أسرة وفى أيام الحصاد يستجلب كثير من العملة زيادة على الموجود ويدفع لكل مزارع مئة مارك (١٢٥ فرنكا) فى السنة نقداً يتناولها على أربعة أقساط ويجب أن يكون الرجل متزوجاً والمرأة تعين زوجها فى الصيف أيام الحصاد وفي الخريف فى استخراج البطاطا وفى الشتاء فى درس القمح واذا لم يكن للعامل زوجة يجب أن يكون له ولد فى سن صالحة ليعمل ومتى عملت المرأة يدفع لها فى اليوم ٧٥ سنتيما فى الشتاء وفرنك وربع فى الصيف لان النهار يكون أطول . والعامل يأخذ

فى السنة ١٢٥٠ كيلو من الحبوب المختلفة كالشعير والحنطة والجاودار و٣٠٠٠ كيلو من البطاطا وحطباً ولحما يساوى ٦٠ ماركا ولكل واحد ١٢٥٠ مترا مربعاً من الارض يزرع فيها بقولا من مثل الملفوف والشوندر وعلف بهائمه وتكون في العادة عنزة وبقرة وأحياناً يقوم صاحب الارض بتغذية عنزتين وبقرة لكل مزارع عنده أو يعطيه لبناً يوازى ماتخرجه له بقرتان وعنزة ويعلف كل عامل فى زريبته خنزيرين يبيع فى العادة الواحد ويملح الثانى يستعمله فى طعامه. وله الحق أن يربي دجاجاً يجعله فى محله واذا مرض المزارع أو العامل تدفع عنه أجرة الطبيب وثمن الدواء واذامات أو أحد أسرته يصنع له نجار المزرعة تابوته وخشبه من صاحب المزرعة ولا تدفع أسرته الا أجرة القس . والمزارعون ممتنون من عيشهم لان ما يأخذونه من الغلات يكفيهم ولهم غرام بأكل البطاطا والدهن وقلما يتناولون اللحم لان العملة البولونيين وأكثر المزارعين منهم لا يتناولون اللحم واذا استأجرناهم خصوصاً بعد عودتهم من الخدمة العسكرية يتطلبون اللحم اذ يكونون قد اعتادوا تناوله فى الجيش . واذا شاخ المزارع يستبقيه سيده ويطعمه ويؤويه فيدفع السيد عن كل عامل يستخدمه ١٠ دوانق (بننغ) فى الاسبوع وهو يدفع مثلها لصندوق المتقاعدين أى ٥ ماركات فى السنة وفى آخر السنة يحول هذا المبلغ لا سمه فى صندوق التوفير .

وعلى صاحب المزرعة أن يدفع ضريبة على ريع أملاكه وضريبة لمقاطعته وضريبة لمديريته ورسماً للمدارس وآخر للكنائس بدفع ثلثها السكان وثلثيها صاحب المزرعة وهو عرضة على الدوام للتفتيش والانتقاد يوجهه اليه مفتشو العمل وحذراً من وقوع حوادث فى المعمل والمزارع والحقول يجب علينا أن نضع السلالم على الجدران وأن نجعل درجاتها معققة وعربات العلف تكون مقطورة على صورة كذا ولا نجد فى ذلك غضاضة علينا لاننا نرى فى هذه العناية مبدأ حسناً . والقانون قانون تجب الطاعة له

ووصف الكاتب مزرعة بجانب مزرعة مضيفه ابتاعها منذ اثنتي عشرة سنة

وضمها الى مزرعته الاولى وجعلها لصيد الدراج وغيره . وهو يأخذ دخلا وافراً من اسماك بحيراته قال : ولقد أخذت اعلم بعد أن رأيت ما رأيت فى مزرعة هذا الشريف أن الزراعة الالمانية ليست من عمل الفلاح أو الشريف العطل بل من أعمال مثل هذا الرجل المولع بالترقى والمتوفر على تربية الماشية والنظر في الهندسة الزراعية والاحداث الجوية وطبقات الارض والعامل والمربى للصيد والاسماك والصياد والتاجر الخبير وعلمت حب البروسى لارضه وما يبذله من الجهاد العجيب الذى جعل من رمال بومرانيا و بطائح براندبورج غابات مدهشة وحقولا خصيبة وقدرت قدر الذكاء فى اختيار الاساليب النافعة والشعور بالرقي والذوق فى الابداع وفكر التضامن والجهاد الممزوج بالصبر الطويل الذي أكره الطبيعة الشحيحة فى تلك الارض على أن تعطي بعض المواد التى يكنها صدرها وكل شىء يحسن الانتفاع به فالارض غير الصالحة للزراعة تجعل فيها غابات والبحيرات تطم وتردم أو توسع وتحفر بحسب اللزوم وكل سنة يجدد صاحب المزرعة مئات الالوف من الاشجار المثمرة وغيرها ومنها ما ينتفع منه ابنه وكل يوم يعمل عملا جديداً ويبتدع أو يفكر فى طريقة يتفنن بها للانتفاع أكثر من أرضه .

قال العالم الفرنساوى وقد دامت زيارتى أرض الشريف الالمانى ست ساعات فى المركبة ولم نر كثيراً من أنحائها واثنى على حسن وفادة الالمان لضيوفهم وقال ان أقراء الضيف عندهم لامثيل له فى أوربا اللهم الا روسيا . ولا عجب فى عمل الالمانى فقد خلق وفطرته تقول له لاتقف يريد المزيد دائما . وهو يملّ من البطالة بعد قضاء بضعة أسابيع فى الراحة . أما الافرنسى فيريد أن يستمتع بالحياة بأسرع مايمكن ويبذل لذلك جهده والانكليزى ينتظر ارثه بأن يعمل قليلا مكثراً من الالعاب الجسمية والرياضات البدنية والامريكي يود لوينال أكثر من جاره أما الاسبانيولى فهو أشبه بالشرقي يحلم بكأس من الشكولاتا يكرعها و بلفافة من التبغ يدخنها فى كل أيام حياته

هذا ما تلقفناه من كتاب برلين وقد طبع قبيل الحرب العامة وما ندرى اذا

كانت الحرب قد زادت فى هم المزارعين من تلك الامة بعد أن اشتدت ضائقتها على مواد الغذاء يوم حصرت من جهاتها الثلاث وتعذر ارسال الغلات اليها الا من سهول المجر المشهورة بحبوبها وكانت قلة التغذية عندها من جملة الدواعى فى إلقاء السلاح وطلب الصلح من الحلفاء

الصحة فى المانيا

١١٨

الاهتمام بالنظافة ظاهر الاثر فى كل مكان من بلاد ألمانيا والحشمة وجمال الهندام العام هما جماع الشعور اللطيف الذى يحس به الغريب في مدنها . واذ كان هذا النظام عاماً فى جميع الأعمال والادارات والدور الخاصة نشأ منه شعور بالرفاهية وحسن اللقاء وجمال الذوق . تتنزه فى الشوارع اللطيفة التى تزين وتطهر كل يوم بين أناس يكتسون أجمل الثياب ولا ترى عليهم الا أمارات السعة حتى فى احياء العملة وأنت على ثقة اذا ركبت الترام والقطار من ان أحداً لا يبصق وتركب فى الدرجة الثانية والثالثة وأنت على يقين من البعد عن القذارة فى المركبات أو الاختلاط المضر بالركاب وقد اتخذت جميع أسباب الحيطة حتى لا يقع مايكدر وقد عينت حقوق كل فرد وواجباته تعييناً صريحاً فاذا حدث اشكال يقتص لذلك النظام العادل

هذه الحالة فى النظافة العامة على كثرة حسناتها للفكر والاعصاب قد نشأت من انتباه الحكام ومن خضوع المحكوم عليهم للاوامر فلك بعد هذا أن تعلق صحيفة على حدود ألمانيا تكتب عليها : « هنا تطبق مفاصل القانون » . ومن أجل هذا أتى تفوق الالمان على غيرهم فى هذا المعنى تفوقاً لا ينازعهم فيه منازع فى أمور الصحة العامة وتطبيق القوانين لان للبلاد المتمدنة قوانين واحدة تقريباً

والاختلاف فى التطبيق فقط وهذا سببه خضوع الافراد وبفضل معاونة الامة للحكومة فى ألمانيا معاونة فائقة سريعة تقدم علم الصحة تقدماً لم يعهد فى بلد كما هو فيها . كان مونتسكيو يقول اذا دخلت بلداً لا أسأل عما فيه من الشرائع بل أسأل عما طبق منها .

وبعد فيقال على الجملة ان ليس في المدن الكبرى فى ألمانيا غبار أصلا والرش متواصل فى كل ساعة لا يقف الا ليترك المجال للكنس وكما ان ليس ثمت غبار فليس هناك وحل . ومتى أمطرت السماء تنصرف مياهها الى المجارى ويمسحها المساحون بآلات من المطاط وفى برلين وجميع المدن تجد أناساً فى الشوارع واقفين لالتقاط السرقين والقمامات . والسيارات الرشاشة ترش أربعين كيلومتراً فى الساعة من الطرق الواسعة وبدورة خفيفة ترش ساحة كبرى مهما عظمت دع الترامو ايات الرشاشة التى ترش الشوارع الرئيسة والطرق المعبدة لتسهل تنظيفها وكسحها ان كان ثمت قمامات أو ورق . ومن غفل من المارة وهو نادر جداً وألقى ورقة ولو صغيرة على الارض يجد من يرده الى الصواب وينبهه الى التقاط ورقته ولو كانت ورقة الترام ووضعها فى الصندوق الخاص بها . وفى الخريف يكنس الكناسون بمكانس ميكانيكية ما يتساقط من أوراق الاشجار فى الشوارع والحدائق والمتنزهات والاماكن العامة ويعهد بتنظيف الارصفة فى العادة الى أصحاب الاملاك فلا يخالف القانون منهم أحد وصاحب الملك مسؤول عنك اذا مررت برصيفه وتزحلقت بقشرة برتقالة أو وقعت فاندقت عنقك وتفادياً من الوقوع فى مثل هذا الخطأ يعهد صاحب الملك بتنظيف الرصيف أمامه الى شركة تتقاضاه فى الشهر ثلاثة ماركات ويضمن نفسه من كل ما يصيب انساناً أمام محله من المضار

لتسهيل النظافة العامة تتفنن البلديات فى استجادة طرق جمع القمامات ووضع لوائح منوعة دقيقة وابتداع أدوات عملية لكسح القمامات على أيسر وجه . ومن أدهش الطرق التى عمدت الى اتخاذها بلدية شارلوتنبرغ من احياء برلين انها اضطرت كل مالك أن يكون لديه على الدوام ثلاثة صناديق عالية يضع المستأجرون

فى الاول الرماد والغبار وفى الثاني الورق والعلب والمقوّى وفى الثالث جميع فضلات المطبخ من بقايا اللحم والعظام والبقول والخبز وذلك لان هذه البلدية رأت ذات يوم ان من الجنون أن تترك لادارة القمامات مثل هذه الفضلات التى يتيسر الانتفاع بها فابتاعت خنازير وهى تغذى الآن ألوفاً منها بما يفيض من السكان من هذه الفضلات والبلدية تتولى رفع هذه القمامات على حساب المستأجرين بأجرة زهيدة بواسطة عربات تطرح من صناديقها ولا يحدث منها غبار ولا غيره أما القمامات فانهم يجرون عليها تجارب ليفصلوا البوتاس عن حامض الفوسفور والنشادر لتباع من المزارعين سماداً كياوياً .

وان مدينة برلين لتنفق مالاً طائلا على كنس المدينة ويتولى الامر عشرون ألف كناس وجنائني ويقبض الواحد ثلاثة ماركات ونصف مارك في اليوم (وهذا قبل الحرب) وتزيد مياومته ربع مارك كل ثلاث سنين وان مدينة متوسطة الشأن مثل ميانس التى يبلغ سكانها مئة ألف نسمة لتصرف كل سنة ٧٠٠ ألف فرنك على تنظيف الشوارع . وهكذا تجد كل ادارة عامة من مثل السكك الحديدية والفنادق تنفق مبالغ على تنظيف زجاجها ومقاعدها وأثاثها ورياشها والبلديات تهتم بصحة السكان حتى انها كثيراً ما تقضى بالهدم على بناء قديم مراعاة للصحة وتنسى مكانته التاريخية أو تتناساها . وكل دار يراد بناؤها في بروسيا يقدم مصوّرها الى الشرطة أولا والناس يشكون والمهندسون يتذمرون من شدة هذه المطالب

ولذلك ترى صاحب الملك اذا أراد بناء شئ أن يرسل مصوره قبل سنة من الشروع فى بنائه واذا صادف أن المصور المقدم ليس فيها لغرفة الخادم القدر اللازم من الهواء لا يرخص ببناء البيت فيجب ان يكون لكل طبقة علو متوسط وأن يكون لصحن الدار مساحة تحسب على قدر علو الأبنية تضمن دخول الهواء ونفوذ النور وبعض الأراضى تبقى بلا بيع لانها ليست من الفساحة ليبنى بها بحسب قانون الشرطة والشرطة تتصعب اليوم بالسكنى فى الطابق السفلى تحت سطح

الأرض وكان ذلك مألوفا من قبل واذا سمح به فلا يكون الا اذا ثبت أن هناك كمية من الهواء وللسقف بعض العلو وبعض النوافذ . وتقضى أوامر البلديات أن تكون ميضآت المعامل طاهرة كافية واذا لم تكن كذلك تجبر الحكومة صاحب المعمل أن تكون كلها مستوفاة من كل وجه .

لاحظ الناظرون أن المرء كلما تقدم نحو الشمال يجد الاهتمام بالنظافة بالغاحده وأن شعوب الجنوب قذرة وأن للفلامنديين ولوعا بالغسل والمسح يكاد يكون كالمرض المستحكم ، ومع هذا فقد قضت الحال فى ألمانيا أن تستعمل الشدة فى القانون لتطبيق قواعد الصحة واذا كان استعمال الحمامات آخذا بالانتشار سنة عن سنة فذلك بفضل ما تبذله جمعية أخذت على نفسها الدعوة الى النظافة وهذه الجمعية برئاسة طبيب مشهور فى برلين وله تأثير فى جميع المانيا فتدعو جمعيته الى عقد المؤتمرات وتنشر المنشورات وتبث دعاتها تحمل من مدينة الى أخرى دعوتها وتعطى المديريات ما يلزمها لانارة العقول مجانا وتمد اليها يد المعاونة بلا مقابل ويشترك فى هذه الجمعية وزراء وأمراء وعلماء ، ويهتم بها كبار الحكام اهتماما زائداً وهى عبارة عن ١٤٠٠ عضو يدفعون تقاسيط ، وقد نجحت هذه الجمعية بأن قضت على جميع المدن الالمانية تقريباً أن تجعل لها حمامات بلدية وكثير من القرى لا تحرم من هذه الحمامات وقد أخذت الجمعية تصرف اهتمامها الى القرى

ولا تنشأ مدرسة بدون قاعات للاستحمام وقد لاحظ الاطباء انه منذ أخذ الطلبة بالاستحمام أصبح آباؤهم أكثر نظافة من قبل وأنشأوا يختلفون الى الحمامات عن رضى وشعار هذه الجمعية : « حمام فى الاسبوع لكل ألمانى » وبفضل هذا العمل الذى أسس منذ بضع سنين أنشأ كل جندى وكل نوتى يستحم مرة فى الاسبوع . وانك لترى شركات السكك الحديدية وادارات المعامل وجميع أرباب المشاريع الضخمة تبادر الى تسهيل أمر الاستحمام على العملة كل أسبوع وتعطى أنواطاً من الفضة الى كل مجموع أوفرد يستحقون المكافأة مقابل تنظفهم وقد جروا على مثل هذه الطريقة فى الولايات المتحدة وفى اسوج فأخذت الحركة نحو النظافة فى ازدياد .

وكثير من مدن ألمانيا تحتوى اليوم على محال لاستحمام الغوغاء أحدثتها البلديات وجعلت فيها أحواضاً من الماء الجارى ومنها ما يتغير مرتين فى اليوم ومقاصير للاغتسال بالماء الحار أو البارد ومستحمات وغير ذلك .

وأما كن الاستحمام فى برلين وهمبورغ وهانوفر ومونيخ قصور حقيقية . ومن المدن الصغرى مثل غوتنغن وسكانها ٣٥ ألفاً ماله حمامات أكثر استعدادا وحسناً من حمامات العواصم ويكلف الانغماس فى ماء الأحواض عشرة بنن (أى جزءا من عشرة أجزاء من المارك) وهى أبداً فى حالة معجبة من النظافة ويبدو ماؤها الاخضر الازرق صافياً كمياه البحيرات ويقضى على من يسبحون فيه أن يعركوا أبدانهم كلها بالصابون وأن يرسلوا الماء عليها قبل نزولهم اليها والمقاصير نظيفة صحية مزينة بالستور الوردية وهناك معلمون يلقنون من يريد دروسا في السباحة ويختلف عمق الحوض فى العادة من ٧٥ سنتيمترا الى ٣ أمتار و ٢٥ سنتيمترا مما يتيسر معه الانغماس في الماء كما يريد السابح وطول الحوض من ٤٠ الى ٦٠ مترا .

وتكون الحمامات الحارة فى مقاصير من القيشانى لها مستحمات جميلة مستحدثة والحمام يكلف ٦٠ بنن فى الدرجة الاولى و ٢٥ فى الثانية ويتولى شؤون الحمام أناس لهم مهارة فى أيديهم ورشاقة فى حركتهم ، ولا يجد الداخل في الدهاليز والادراج المصنوعة من الحجر و لمرمر ذرة من الغبار ، وان حماماً واحدا فى برلين ليستحم فيه فى اليوم ثلاثة آلاف انسان دع المضخات (الدوش) ويبلغ فيها عدد المستحمين ليلة بعض الاعياد الكبرى سبعة آلاف وبعض الحمامات يستحم فيها كل السنة مليون شخص ويتناول أولاد المدارس فى برلين والمدن الصغرى بطاقات مجانية أو ذات أسعار طفيفة تخولهم دخول الحمامات .

وقد أوصى المسيو مولر فى مونيخ بمليونى فرنك لانشاء مكان للاستحمام العام فأضافت البلدية الى ذلك ٥٠٠٠٠٠ فرنك فتم العمل وقام البناء على شاطئ الايزر فى آخر ممشى فيه أشجار ضخمة فاذا دخلت الى هذا الحمام صرت الى مكان

فرش بالرخام وبنى بالقيشانى اللامع وفيه وفى أحواضه من التأنق واللطف شيء كثير كما أن فيه من الطهارة والنظافة ما تقر به عيون المستحمين . وأقامت بلدية مونيخ حماماً مجانياً فى الصيف استقت ماءه من الايزر وهو يتغير مرتين فى اليوم ومنها حمامات شمسية مجانية .

***

نظافة الطعام كنظافة الاجسام معتنى بها كل العناية في بلاد المانيا فلها ادارة اسمها ادارة صحة المأكل تراقب اللحوم وتفحصها بالمجهر فاذا وجدتها مريضة أو مضرة تغرم بائعها وذابحها وكذلك السكر فانك اذا أخذت قطعة منه واشتبهت فى كونها من الجنس العاطل تأخذها الى معمل مكتب الصحة وفى الحال يحللها ويحكم على بائعها بالعقوبات الشديدة . ولا يشرب أحد فى برلين الا من الآبار الارتوازية التى قد ننفق على الواحد منها ثمانية ملايين فرنك . ولا تسل عن مراقبة الصحة للالبان فكل يوم ينبث كثير من المفتشين يستوقفون مركبات الحليب فى الشوارع ويوزن فاذا رأوه مطابقاً لما قضت به الصحة فبها والا فيكفتونه فى الشارع ويعاقبون حامله بأشد العقوبة ولذلك ترى الغش قليلا جداً فى هذه الاصناف . وفى برلين معامل كثيرة للألبان منها معمل كبير يصله كل يوم من الضواحى على بعد مئة كيلو متر ١٤٠ ألف لتر من اللبن فيعقمه في معمل كبير فيه ألفا عامل وكل هذا اللبن يوزع على المنازل فى ٢٥٠ مركبة .

لم تكتف الحكومة والمجالس البلدية في المانيا بتحسين أسباب الصحة العامة والسهر على نظافة المساكن وجودة المواد الغذائية بل تراها تحمى الصحة العامة بواسطة ادارات المراقبة الطبية التى تعمل على الدوام بكل ما فيها من قوة بفضل ذمة الموظفين الذين عهد اليهم التوفر على العمل فاذا حدثت مثلا اصابة بالجدرى أو الخناق أو التيفوئيد أو الطاعون أو الكوليرا لاتلبث أن يبلغ أمرها مكتب الصحة ففى الحال يعطي الامر بالتطهير ويخف الطبيب الرسمى الى الدار الملوثة يتولى جميع أساليب التطهير فى أسرع من لمح البصر . وفى المدارس ادارة البحث

الطبي تعمل على الدوام فتفحص جميع الاولاد فى كل وقت واذا لاحظت أقل مرض أو انحراف طرأ على ولد تعزله عن رفاقه وتطبه فى الحال والذين تأصل فيهم المرض تبعث بهم الى البحر فى الغابات أو الى المصاح . وقد انشأت جمعية الصليب الاحمر ستين مصحاً من مثل هذه وتساعد عدة جمعيات في الانفاق عليها ويمدها كثير من المدن بالمال .

والعناية بالغة فى الحذر من مرض السل فتراقب المدارس جدّ المراقبة بواسطة أطباء مفتشين لهم اختصاص بهذا المرض مشهود لهم به وهم فى خدمة هذا الديوان لا يسوغ لهم أن يطبوا أحداً غير أبناء المدارس يبحثون فى صحة التلامذة بصورة منتظمة ويعطى كل تلميذ ورقة كل مدة تنبئ بأنه سالم من هذا المرض حتى يبلغ سن الرشد ويدخل فى الخدمة العسكرية وهكذا يقضى التلميذ مدة دراسته وهو يتقلب بين أيدى الاطباء يبحثون فى صدره وقامته ووزنه وغدده وأسرته وما كان فيها من الامراض الى غير ذلك مما يقضي التنبه له بالقضاء على المرض من أساسه .

ويعزل المصابون بالسل وفقر الدم والخنازير وعلة القلب والصرع والهستريا كل واحد عن الآخر ويعلم في مدرسة الهواء الطلق وسط غابة فى ضاحية برلين وهذه المدرسة تفتح أبوابها فى نيسان وتغلقها فى كانون الثاني وهى على غاية من السذاجة فى بنائها ومرافقها ويكثر فى ارجائها النور والهواء ولهم نوافذ متحركة ذات مقاعد من خشب جعلت بقدر قدّ الولد . والمدرسة عبارة عن أكواخ منظمة يريدون منها أن يعيش الطفل فى سذاجة ويرجع الى الفطرة الاولى فى حالته ويعتنون فى المدرسة بتنظيف الجسم من وراء الغاية وفى هذه المدرسة يدخل الذكور والاناث على حد سواء

فى المانيا ٢٥ مجمعاً علمياً لصنع مطعوم الجدرى ولذلك لا يموت أحد فيها بهذا المرض ولها مجامع علمية تنظر فى ارتقاء الدروس العلمية وانتشار علم الصحة دع مجامع كوخ ومجامع الصحة في المملكة التي تبحث بمن فيها من العلماء في الابحاث

البكتريولوجية المنوعة مثل فحص الشاى والقهوة ومنافعها ومضارها ومثل البحث في المرض الزهرى الذى كانت الحكومة السبب فى اكتشاف دوائه ومنها جمعيات تبحث فى مياه الأنهار التى تلوثها المعامل

والمستشفيات فى برلين من أنظف ما رأى الراؤون وأكثرها استعداداً خذ لذلك مستشفى فيركوف العالم الكبير فانه بدئ بانشائه سنة ١٨٩٩ ونجز فى سبع سنين وكلف ٢٥ مليون فرنك على أرض مساحتها السطحية ٢٧ هكتاراً وهو على طريقة جعلت سرادق سرادق ففيه ٦٢ بناية ويسع الفى مريض وحجمه كحجم مستشفى همبورغ وهما أعظم مستشفيات المانيا وفيه ٩٥ طبيباً و٣٧٥ ممرضة وممرضاً وعدد الخدمة ٣١٢ وفيه جميع أنواع الراحة وفيه تتولد القوى الكهربائية للانارة والدفء وغير ذلك

تاريخ المشرقيات فى المانيا[1]

١١٩

كان نهوض الدروس العربية فى المانيا خلال القرن التاسع عشر وان كانت اللغة العربية قد درست فى المدارس الالمانية فى القرون السابقة ولكن تدريسها لم يكن على أسلوبنا هذا بل كانت الغاية منه تفسير الكتب العبرانية . وكان بعض المدرسين من الالمان فى القرن الثامن عشر قد ابتدأ ابتداء حسناً فى العلوم العربية ومن مشهوريهم يوحنا يعقوب ريسكه المتوفى سنة ١٧٩٧ فى ليبسيك الذي نشر تاريخ أبى الفداء ونقله الى اللاتينية وغير ذلك من الكتب العربية ومنهم أولاف غوستاف تيكسن المدرس فى الجامعة الروستوقية ومؤلف كتاب جليل في النقود العربية . ولم يشتهر الالمان في هذا العهد كبير اشتهار

(١) كتب لنا هذا الفصل بالعربية صديقنا العلامة الاستاذ بروكلمان صاحب تاريخ آداب اللغة العربية المشهور فله منا الشكر الجزيل

في أمور الشرق غير أن النمساويين كانوا فى تجارات وصلات سياسية مع الدولة السنية العثمانية وعلى هذا نهضت فى فينا الدروس التركية التى جددها العلامة فون هامر المتوفى سنة ١٨٥٦ وكان هو أيضاً محباً للآداب العربية ونشر كتاباً جسيما فى تاريخها لكنه لم يبلغ الغاية فيه لنقص تعمقه فى أسرار العربية .

كان فى ابتداء القرن التاسع عشر العلامة المشهور سلفسترى دى سامى يدرس العلوم العربية فى المدرسة الشرقية فى باريز وهو مجدد الدروس العربية فى أوربا خصوصاً على الصرف والنحو فقصد باريز بعض الطلبة الالمان ليأخذوا عنه العربية منهم مالينوخ لبرخت فليسز (١٨٠١ - ١٨٨٨) وماينوخ ايفلد (١٨٠٣ — ١٨٧٥) فكانا هما مؤسسى الدروس العربية الجدية فى المانيا فقد أصبح الاول مدرساً للغات الشرقية في مدينة ليبسيك والثانى شغل مثل هذه المهمة فى غوطنغن . حرر ايفلد الكتب الجليلة فى الصرف والنحو والعروض العربي ونشر فليشر الكتب العربية مصححة غاية التصحيح منها تفسير القرآن للبيضاوى . ونقد أيضاً العلوم العربية خصوصاً كتاب النحو لشيخه دى ساسى نقداً مفيداً وألف فيه كثيراً من الرسائل الجليلة ثم أسس الجمعية الشرقية الالمانية التى نشرت مجلتها المشهورة وكثيراً من الكتب العربية المشهورة لاسيما كتاب الكامل للمبرد لمصححه ريت الانكليزى ومعجم البلدان لياقوت تصحيح وستنفيلد وشرح المفصل لابن يعيش تصحيح يان وكتاب الآثار الباقية للبيرونى تصحيح سخاو

قصد طلبة الالسنة الشرقية مدينتي غوطنغن وليبسيك فكان من مشاهير تلامذة ايفلد تيودروس فولدكه المولود سنة ١٨٣٦ الذى كان مدرساً فى مدينة ستراسبورغ منذ سنة ١٨٧١ الى أن فتحها الفرنساوية سنة ١٩١٨ فالف فولدكه تاريخ القرآن الذى جدده فى الطبع الثانى فريدريك شوالى وصحح دواوين بعض شعراء الجاهلية وترجم من تاريخ الطبرى الجزء المتعلق بالدولة الساسانية وحرر غير ذلك من الكتب الجليلة في اللغات السامية خصوصاً السريانية . ومن

تلامذة فولدكه ادوارد سخاو مؤسس المدرسة الشرقية فى مدينة برلين وبروكلمان مؤرخ الآداب العربية وناشر كتاب عيون الاخبار لابن قتيبة خليفة سخاو فى المدرسة البرلينية وغيرهما من المستشرقين المشهورين فى المانيا وغيرها .

ومن أشهر تلامذة ايفلد يوليوس ولهوسن (١٨٤٤ — ١٩١٨) خليفته الثانى فى مدرسة غوطنغن وله من الكتب المشهورة تاريخ اليهود وتاريخ الدولة الاموية وكتاب جليل فى دين العرب فى الجاهلية وطبع الجزء الثاني من ديوان هذيل الذى كان نشر الجزء الاول منه كوسغرتن المتوفى سنة (١٨٨٠) فكانت همة تلامذة ايفلد وهمة تلامذة تلاميذه فى نقد تاريخ العرب ودينها وآدابها لكن فليشر وتلامذته كانوا متخصصين أكثر منهم فى النحو العربى ونقد اللغة ومن مشاهير تلامذة فليشر العلامة توربكة (١٨٣٧ — ١٨٩٠) الذى نشر كتاب درة الغواص للحريرى والقسم الاول من المفضليات ، ومنهم أوغست مولر (١٨٢٨ — ١٨٩٥) مؤرخ الدول الاسلامية وغيرهم كثير من المستشرقين المشهورين

ومن تلامذة دي سامى فى المانيا ماعدا ايفلد وفليستر كثير منهم غوستاف فلوغل (١٨٠٣ — ١٨٧٠) الذى نشر كتاب كشف الظنون لحاجى خليفة وكتاب الفهرست لابن النديم وألف رسائل كثيرة في تاريخ الآداب العربية وويلهلم آلورد (١٨٣٨ — ١٩٠٢) الذى صحح دواوين الشعراء الستة والاصمعيات ودواوين الرجاز العجاج ورؤبة والزفيان وصنف فهرست المخطوطات العربية فى دار الكتب البرلينية فى عشرة أجزاء جسيمة فانتشرت العلوم العربية فى جميع المدارس الالمانية ونهضت نهضة جليلة فنشر منذ ١٢ سنة غير مجلة الجمعية المشرقية الالمانية المجلة الخصوصية فى تاريخ الاسلام التى أنشأها كارل ماينوخ بكر المولود سنة ١٨٧٦ وهو الآن من النظار فى وزارة المعارف فى برلين

الممالك الجديدة

١٢٠

قالوا ان القومية هى أن يقوم أهل عناصر من أصل واحد لهم تقاليد ولغة مشتركة فيؤلفون مملكة واحدة سياسية . وهذا المبدأ قد قلب العالم الاوربي رأساً على عقب مدة تربو على ألف سنة فتحاربت شعوبها كلها حتى تؤسس ممالك كبيرة من القوميات الصغيرة . أما السادة الجدد فى العالم فينزعون اليوم الى غاية تخالف تلك وهى أن يحرروا الممالك الصغيرة من سلطة الممالك الكبيرة التى خضعت لسلطانها . يريدون اليوم أن ينفضوا أيديهم من سلطان الغريب ليحكموا أنفسهم بأنفسهم .

وحدث ان الشعوب المحكوم عليها اذا كانت مؤلفة من عناصر مختلفة أن يضطهد القوى منها الضعيف . وحوادث كثيرة تبين درجات هذا الاضطهاد فقد رأينا آخر امبراطرة النمسا لما عفا عن المجرمين السياسيين يوم جلوسه خرج من المطابق ثمانية عشر ألف سجين اعتقلهم الحكام الذين كانوا من العنصر السائد

ليس فى أوربا عنصر خالص من الدخلاء بل فيها مجموعة عناصر تكونت بالهجرة أو بالمحيط الواحد أو بالمصلحة المشتركة أو بالدين المتحد فتمازجت مع الزمن وألفت عنصراً بعينه . وأكثر هذه العناصر اختلاطاً العنصر الانكليزى الذى تألف من أجناس وأجيال مختلفة وكان هو ولغته المفتحة الصدر لكل جديد أول الشعوب الاوربية التى ألفت أمة منظمة تعرف نفسها [1] وقد ساعد الانكليز على ذلك أمران موقعهم الجغرافى والنظام الشديد الذى أخضعهم اليه

(١) فلسفة العهد الحديث للدكتور غوستاف لوبون Gustave Le Bon : Psychologie des temps modernes
والقومية ونقيضها لرامساي موير Ramsay Muir : Nationalisme et nilernationalisme
والمقابلة بين القوميات لارنولد فان كنيب Arnold van Genneb : Craite comparatil des nat.onalites

الفاتحون الاجانب من أهل الدول المنظمة من القرن الحادى عشر الى القرن الثانى عشر . ثم جاءت فرنسا وكونت قوميتها

بيد ان مبدأ القوميات لم يقل أحد الساسة به الا بعد الثورة الافرنسية الكبرى أواخر المئة الثانية عشرة للميلاد وفكرة القومية حديثة فى الجملة والفضل للفرنسيس فى أول من دعا اليها ثم لماريني (١٨٧٢) الايطالى أول عامل فى الدعوة الى الوحدة الايطالية وسرت دعوته الى الأمم المشتتة والقوميات المبعثرة فاستفادوا منها ثم للحركات القومية التى لفتت أنظار أوربا من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٧٠

فلا بدع اذا قلنا ان الانكليز والايكوسيين والفرنسيس كانوا فى مقدمة شعوب أوربا بل العالم الذين تشبعوا بروح القومية وانتهوا بتنظيم ممالك وتوطيد أركان جامعات وكلهم من عناصر مختلفة وأجيال من الناس كثيرة . ثم تألفت اسبانيا والبورتقال وهما أيضاً من عناصر متباينة جداً وقد أخذا درساً فى قوميتهما من حربهما الطويلة مع العرب وفهما معنى الوحدة بزعامة رؤساء مستبدين ملؤوا صدورهم كبرياء حتى حملوهم على أن يفتحوا الفتوح فى الخارج

لا جرم ان العوامل فى تأليف القوميات كثيرة منها الوحدة الجغرافية ووحدة العنصر واللغة والدين والاشتراك فى المصالح الاقتصادية وكل أمة تتحد لا بد لها من أحد هذه العناصر لقيام أمرها وليس وجود أحد منها بعينه ضربة لازب . وقد تألفت فى القرن الماضى سبع دول ثنتان منها كبيرتان وهما ألمانيا وايطاليا فنادى كل منهما بوحدته وقد قامت الاولى بصنع أهلها أنفسهم وقامت الثانية بمعاونة دعاة القومية فى الامم وبهمة رجالها أما الدول الخمس الصغيرة فهي اليونان وبلجيكا وصربيا ورومانيا وبلغاريا

ولنا أن نقسم تاريخ أوربا السياسى الى دورين . عمر الدور الأول ألف سنة تألفت خلالها الممالك الكبيرة من القوميات الضعيفة والثاني وهو حديث تداعت فيه أركان الممالك التى أسست ببطء كروسيا والنمسا والعثمانية وانقسمت الى ممالك وتجزأت أجزاء من القوميات ولقد كان اندماج الممالك الصغيرة فى ممالك قوية

على ما يظهر من النواميس الثابتة فى التاريخ فأن فرنسا وانكلترا وألمانيا وايطاليا التى كانت فيما مضى مؤلفة من ولايات منفصلة هى نموذج من هـذا التمازج ولم يكن عاما على اطلاقه اذ وجدنا قرب تلك الممالك الكبيرة ممالك صغيرة كهولاندا واسوج والدانيمرك وسويسرا قد نجحت بالاحتفاظ باستقلالها ، وتزعم انها ستحتفظ به أبد الدهر .

وان الدول الثلاث روسيا والعثمانية والنمسا المستبدة التى طالما قاتلت مبادئ القومية قد قتلت بها فتمزقت كلمتها بعد ان كانت تحكم مائتين وخمسين مليونا من أجيال الناس فى أوربا وآسيا ومن كان يظن ان الحرب العامة التى نشب أوارها سنة ١٩١٤ ووضعت أوزارها سنة ١٩١٨ تنشأ منها ممالك جديدة ، وتتألف قوميات فقد انسلخ من جسم ألمانيا والنمسا وروسيا مملكة كبرى وهى جمهورية بولونيا التى كانت تلك الدول الثلاث تقاسمتها بينها فى القرن الثامن عشر وسكانها ثمانية وعشرون مليونا ونشأت أربع جمهوريات فى شمالى روسيا وهى جمهورية فنلندا واستونيا وليفونيا وليتوانيا ونشأت جمهورية أوكرانيا فى الجنوب الغربى على شواطئ البحر الاسود ، وكذلك جمهوريتا اذربايجان والكرج جنوبى قافقاسيا .

وانبتر من جسم الدولة العثمانية سورية وفلسطين والعراق والحجاز واليمن

ومن النمسا انفصلت المجر مؤلفة من مئه ألف كيلو متر مربع ونحو ثمانية ملايين من المجريين وكذلك جمهورية التشكوسلوفاكيا المأهولة على الأكثر من الصقالبة كالتشك فى بوهميا والمورافيين والسلوفاكيين وهى ١٤٥٥٠٠ كيلو متر مربع ونحو ١٤ مليونا من السكان ، ومملكة اليوغوسلافيا ، وهى مؤلفة من الصربيين والخروابيين والسلوفيين . وهى مملكة الصرب القديمة أضيفت اليها مملكة الجبل الاسود والبلاد السلافية فى الجنوب من النمسا القديمة مثل البوسنة والهرسك ومساحتها ٨٠ ألفا وسكانها ١٠ ملايين ومملكة رومانيا التى اتسع حجمها من بلاد المجر والروس التى غالب سكانها رومان ومساحتها ٣٠٠ ألف

كيلو متر وسكانها ١٣ مليوناً . وأصبحت النمسا القديمة جمهورية صغيرة ينزلها العنصر النمساوى أو الألمانى ومساحتها ٨٢ ألف كيلومتر وسكانها ٦٢٠٠٠٠٠ وهذا أفظع أنواع البتر فى الممالك .

وأخذت ايطاليا اقليمى الترانتن وفريول وجزءاً من اقليم ايستريا وتوسعت اليونان من الأراضى البلغارية والعثمانية وأضيفت الى البلجيك أراضى أو بين ومالميدي وأخـذت الدانيمرك من ألمانيا جزءاً من شلشويق هولستاين بلادها القديمة واسترجعت فرنسا ولايتى الالزاس واللورين ففقدت ألمانيا عشر ممالكها قبل الحرب . وانقلبت جمهورية بعد ان كانت ملكية مقيدة وفقدت تركيا سبعة ملايين من السكان وانفصل عنها جميع البلاد العربية وانقلبت روسيا الى جمهورية اشتراكية مؤلفة من العنصر السلافى فقط ويخرج منها بضع جمهوريات كبرى ، وانقرض آل رومانوف قياصرة روسيا وطرد آل هوهنزولرن امبراطرة ألمـانيا وآل هابسبورغ امبراطرة النمسا وفصلت الدولة العثمانية الدين عن السياسة فأصبح خليفة فروق ولا سلطان له على الامور الزمنية وسلطته روحية صرفة .

كان القطار قبل هذه الحرب يجتاز بنا فى الرحاتين السالفتين زهاء عشرين ساعة فى أرض امبراطورية النمسا والمجر فقطعنا المسافة من حدود بافاريا الى حدود ايطاليا هذه المرة مجتازين بأراضى النمسا فى ساعات قليـلة وفقدت النمسا بلادها الصناعية وبلادها الزراعية وأصبحت فينا الجميلة عاصمة لا رابض لها الا قليلا تجوع وتعرى وكانت عاصمة خمسة وخمسين مليوناً انفصلوا عنها باسم القوميـة وكانت تعاملهم بالشدة كلما رفع دعاتهم رؤوسهم للمطالبة بحقوقهم الطبيعية فلما أمكنتهم الفرص قلبوا لها ظهر المجن .

آثار العرب فى ايطاليا

١٢١

رسخت أقدام العرب فى جنوبي ايطاليا ولا سيما فى جزيرتى صقلية وسردانية أيام كان المسلمون كما قال ابن خلدون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر (يعنى بحر الروم) من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للامم النصرانية قبل بأساطيلهم بشىء من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعلومات من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنرقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم وكان أبو القاسم الشيعى وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية على جزيرة جنوة مرات فتنقلب بالظفر والغنيمة ... والمسلمون خلال ذلك قد تغلبوا على الاكثر من لجة هذا البحر وسارت أساطيلهم فيه جائية ذاهبة والعساكر الاسلامية تجيز البحر فى أساطيلهم من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية فتوقع بملوك الفرنج وتثخن فى ممالكهم كما وقع فى أيام بنى أبي الحسين ملوك صقلية القائمين بدولة العبيديين وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم الى الجانب الشمالى الشرقي منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائر الرمانية لا يعدونها وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الاسد بفريسته اهـ

ولقد أبقت العرب فى البلاد التى حكمت فيها زمناً مصانع كثيرة من قصور منيعة ومنازل شامخة شريفة كما قال الادريسى وكثيراً من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار والجامع الاعظم فى بلرم عاصمة صقلية الذى كان بيعة فى الزمن الاقدم وأعيد على حالته فى سالف الازمان وصفته الآن (فى عهد الادريسى) نغرب عن الاذهان لبديع مافيه من الصنعة والغرائب

المفتعلة والمنتخبة والمخترعة من أصناف التصاوير وأجناس التزاويق والكتابات

وذكر ابن حوقل أن في بلرم ثلثمائة مسجد ونيفاً وقد كثرت الجوامع في أكثر المدن مثل قطانية ولم يبق الآن [1] من تلك الابنية الفاخرة التي شيدها العرب شيء غير أن في بلرم أو في غيرها من مدن صقلية مباني وقصوراً اقتفى مهندسوها مثال المباني الفاخرة التي شيدتها الامم الممدنة المعاصرة للعرب ومن تلك المباني قطران جليلان اسم أحدهما قبة واسم الآخر زيزا ولعل أصله في العربية عزيزة (أو زيزاء) فكانت مباني العرب هذه مثالا لمن خلفهم من سائر الامم لحذا الخلف في أبنيتهم حذوها

وفي متاحف ايطاليا وخزائنها سيوف وآلات نقلت من الشرق ولا تزال محفوظة فيها . وأهم ما في ايطاليا من آثار العرب كتبهم المحفوظة في خزائن ميلانو ورومية وغيرهما من العواصم الايطالية ولم تبرح شواهد بعض القبور المكتوبة بالكوفي أو بالقلم النسخي ماثلة في تينك الجزيرتين . نورد مثالا منها لما نشره المستشرق امارى الايطالي [2] ومنه يستدل على ارتقاء الادب العربي على ذلك العهد ·

من ذلك ما كتب على شاهدة قبر في بلرم :

لله العزة والبقاء وعلى خلقه كتب الفناء ولكم في رسول الله أسوة حسنة . هذا قبر ميمونة بنت حسان بن علي الهذلي عرف بابن السوسي توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس السادس عشر من شهر شعبان الكائن من سنة تسع وستين وخمسمائة وهي تشهد أن لااله الا الله وحده لا شريك له .

انظر بعينك هل في الأرض من باقي أودافع الموت أوللموت من راقي
الموت أخرجني قسراً فيا أسفي لم ينجني منه أبوابي واغلاقي
وصرت رهناً بما قدمت من عمل محصى عليّ وما خلفته باقي
يا من رأى القبر إني قد بليت به والترب غبر أجفاني وآماقي

(١) محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب باعتبار علاقتها بأوربا وخصوصا بايطاليا للعلامة اغناطيوس جويدي

(٢) الكتابات العربية في صقلية Amari : Le epigrafi arabiche di Sicilia

فى مضجعي ومقامى فى البلى عبرٌ   وفى نشورى اذا ماجئت خلاقي

وفى كتابة أخرى : بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء وله ما ذرأ وبرأ وعلى خلقه كتب الفناء وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة وعزاء...

وكتب على شاهدة قبر فى نابلى

وكيف يلذ العيش من هو سائر   الى جدث يبلى الشتات منازله
ويذهب رسم الوجه من بعد ضوئه   سريعاً ويبلى جسمه ومفاصله

وكتب على قبر رجل اسمه يسين بن على بن يعيش توفى عام أربع وسبعين وستمائة :

بعـدت فما فى العيش بعدك طيب   وغبت عن الدنيا فلست تؤوب
مقيم الى أن يبعث الله خلقه   لقاؤك لا يرجى وأنت قريب
ووجهك يبلى كل يوم وليلة   وودك لا ينسى وأنت حبيب
عليك سلام الله ما ذر شارق   وما اهتز فى دوح الاراك قضيب

وكتب على شاهدة فى بلرم : هذا قبر ابراهيم بن خلف الديباجى توفى سنة أربع وستين وأربعمائة وهو يشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله وان الجنة حق وان النار حق وان الصراط حق وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من فى القبور . على ذلك حيي وعليه توفى وعليه يبعث ان شاء الله رحم الله من دعا له بالرحمة والمغفرة آمين رب العالمين

ومن القبريات المسيحية ما كتب بالعربية أيضاً

توفيت أنه أم القسيس اكريزنت قسيس الحضرة المالكة الملكية العاليـة العلية المعظمة السنية القريسية البهية المعترة بالله المنزوزة بقدرته المنصورة بقوته مالكة ينطاليه وانكبردة وقلورية وصقلية وافريقية معزة أمام رومية الناصرة للملة النصرانية صرمد الله مملكتها يوم الجمعة العشر العشرين من اوسة سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ودفنت بالجامع الأعظم ثم نقلها ولدها بالمستنجيد الى هذه

الـكنيسة حنت مخايله يوم الجمعة أول ساعة العشا . العشرين مائة سـنة أربع وأربعين وخمسمائة وبنى على قبرها هذه الـكنيسة وسمى الـكنيسة حنت أنه على اسم أم مريم ودعا لها بالرحمة آمين آمين آمين وفى أول الكلام اشارة الصليب .

الحضارة الغربية

١٢٣

. يجدر بنا وقد انتهى بنا نفس الـكلام على ممالك أوربا العشر التى زرناها وخبرناها بما رأيناه وسمعناه وقرأناه عنها منذ وعينا على أنفسنا مافصلناه للقارئ فنأتيه بنبذة تدلنا على ما قامت به فى الجملة كل أمة من هذه الامم من العمل النافع لهذه الحضارة الغربية الحديثة التى بهرنا خبرها ومخبرها وأن نبين منشأها والسر فى وصولها الى هـذا الحد فنقول : يمكن ارجاع الامم الرئيسية فى أوربا الى ثلاث عناصر مختلفة . العنصر اللاتينى والعنصر الجرمانى والعنصر الاسكلافونى فالعنصر اللاتينى هم الطليان والفرنسيس والاسبانيون والبورتقاليون وقدورثوا من الرومان مدنيتهم ولسانهم . والالمان والسويسريون والانكليز والاسوجيون والدانيمركيون والهولانديون هم من الشعوب التوتونية والروس والبولونيون هم من الشعوب الاسكلافونية . قالت مدام دى ستايل أن الامم التى كان تهذيبها العقلى من أصل لاتينى هى أعرق فى المدنية من غيرها وورثت الا قليلا من ذكاء الرومان ومهارتهم فى ادارة أعمال هذا العالم وقبل أن تتأصل فيهم النصرانية قاموا بانشاء معاهد اجتماعية بنيت على أساس الوثنية ولماجاءت أمم الشمال تفتح بلادهم قبلت هذه الامم أخلاق البلاد التى افتتحتها . وهذه الملاحظات تختلف ولاشك باختلاف الاهوية والحـكومات والحوادث التاريخية فقد أثرت سلطة الـكنيسة مثلا فى ايطاليا آثاراً لاتمحى وكان من نتائج الحروب الطويلة مع العرب أن قويت العادات العسكرية وفـكرة الاقدام على العظائم فى الاسبانيين . ويقال

أما الشعب الانكليزى الممزوج من عناصر جرمانية ورومانية كالشعب الافرنسى ولكن على صورة معكوسة وكذلك أخته الفتاة أميركا فقد اشتهرا فى ميدان السياسة وكانت لهما اليد الطولى فى تأليف الحكومة الدستورية فسعيا لترقية المبدإ فى الحكومة الملكية المقيدة وتأليف المجالس النيابية وقيام الجمهورية لا جرم أنهما كانا يهتمان خاصة بحرياتهما الوطنية ومصالحهما العامة ولكنهما كانا ولا جدال المثالين الاولين فى عالم السياسة الحديث ، والى هذين الشعبين يرجع الفضل على الحرية وما جهزت به من الأسلحة المشروعة والضمانات الحقوقية .

وكان لأميركا عمل عظيم فى باب حرية الوجدان والفصل بين الدين والسياسة والانكليز أرقى من الفرنساويين من حيث الشعور بالتقاليد واحترامها فقد بنوا بناءهم السياسى على أسس تاريخية مضمونة على حين قاما سلم الفرنسيس الا فى قلب كل ما كان لهم ليقيموا البناء من جديد ، ولانكلترا وأميركا الفضل الأعظم فى ترقية الفنون العلمية والصناعات والبحرية والتجارة فى العالم . وما من شعب يشبهها من حيث البحث عن الطرق العملية حتى كادت تنقلب هذه الصفة فيهم أحيانا الى أنانية باردة فى التقدير والسرد . والعلم مدين للانكليز والأميركيين بشىء كثير من النجاح الذى بلغه . ولئن كان استعداد انكلترا للفنون الجميلة أقل من استعداد غيرها فانها انبغت أعظم شاعر فى العالم .

قال وامتاز الشعب الألمانى خاصة بالخدمات التى خدم بها الحرية السياسية والدينية والعقلية فقضى أولا على سلطة رومية المستبدة ، وهيأ للقوميات مجالا متسعاً لتتألف جامعتها ويقوم أمرها وحال فى القرون الوسطى دون استرسال البابوات فى تسلطهم تسلطاً عاما . ونادى فى القرن السادس عشر بحرية الوجدان وأثار العقول ببيعه وتربيته الحديثة ، ثم ان جهاده الدائم فى البحث عن الحق وغيرته المتناهية فى العلم وعقله المستقل الفعال والميول الأدبية التى فطرت عليها نفسه وتحمسه بالجميل والجيد — كل هذا نشأت منه سلسلة من الأعمال العلمية والادبية والصناعية والفنية التى نفعت الانسانية .

وقد جاء زمن ظن فيه الناس ان الشعب الألمانى الآخذ نفسه بهذه الأعمال قد نسى أن يجعل له مقاما فى الحركة السياسية الجديدة . وذلك ان مملكة ألمانيا الرومانية قد تداعت أركانها وظهر أن تخالف العناصر والدول والاديان يحول دون توحيدها وتترك الأولية للغريب . وما كانت ألمانيا تظهر بأنها مثيلة لجاراتها الا فى ساحة الافكار والعقل وكانت حكومتها السياسية أحط منها بكثير ، فحال دون اجتماع القوى المتفرقة وربطها برباط محكم ما فطر عليه الألمانى من الجفاء فى العشرة والتصلب في الرأى والشدة فى الشكيمة واخلاص عدة من القبائل لامرائهم الى التى ما بعدها . وقد عرفت بروسيا الاستعداد السياسى والحربى فى الأمة الألمانية فقامت الامبراطورية الألمانية مملوءة قوة ونشاطاً بين أمم أوربا وحاولت تحرير الأمم وان تنقذ العقول من تربية اليسوعيين البليدة ومن وثنية البابا المعصوم .

هذا ماقاله بلونشلي الألمانى فى الامم التى رأيناها وكان لها شأن فى الحضارة وقال ولز الانكليزى (مجلة العرفان م ٨ ج ٢) أن نور العلم والمدنية أتانا من طريق العرب لامن طريق اللاتين . نعم أن العرب حملت للامم الاوربية كثيراً من أساليب الحضارة أبانوابها كما فى دائرة المعارف الافرنسية الكبرى أنهم حذاق فى صناعة الحرب وحذاق فى صناعة السلم . نقلوها الى جنوبى ايطاليا وفرنسا واسبانيا ومنها انتقلت الى سائر الامم الغربية ونقل الصليبيون عن المسلمين طائفة صالحة من هذه الطرق مدة حروبهم معهم نحو قرنين فى الشام ومصر

أخذ الغرب عن العرب ما وسعه أخذه والباقى اقتبسه كما قال بلونشلى من المدنيتين الرومانية واليونانية واذا أنصفنا لانجد مدنية الغرب الا تتمة المدنيات القديمة بما فيها من وثنية أقرت النصرانية بعضها ولا تزال الى اليوم ظاهرة الأثر فيها كما أقر الاسلام بعض عادات الجاهلية . وقد وصل الغربيون بالمدنية الى مهذه الدرجة من الرقى بالعمل والثبات وحسن التنظيم ، وأهم ما أنجح مقاصدهم قويت اه من سلطة الملوك ووضع الحكومات فى نظام معين ارتقى بالزمن وتسلسل

الفكر فى أعمالهم وأنظمتهم الاجتماعية ، ثم ان لهواء بلادهم دخلا كبيراً فى رقيهم دعاهم الى العمل والانكماش والحرص والاقدام على العظائم أكثر مما كان من ابن آسيا وأفريقية .

وقد عملت كل أمة فى الغرب بحسب موقعها وتقاليدها والاحوال التى طرأت عليها . هذا فى الامم الكبرى أما الامم الصغرى فقد أحسنت الى الحضارة على قلة أسبابها فأنشأت لها امجاداً ربما كانت أعرق فيها من الامم العظيمة . وربما كانت المدنية أرسخ قدماً وأشد مرونة فى الدانيمرك واسوج ونروج وسويسرا وهولاندة والبلجيك أكثر من الامم القديمة العظيمة التى شغلت بالحروب وكاد حبها يمتزج بأجزاء روحها . وأصبحت حياتها وحياة أبنائها معلقة على تحديد سلاحها وتفننها فى سياستها لاستصفاء بلاد غيرها وتكبير رقعة سلطانها واغفال المعنويات فى الاحايين والنظر الى الماديات فقط (١)

---

(١) قال درابر الاميركى بعد أن وسع العرب ملكهم وأيدوا كلمتهم حولوا أفكارهم نحو المعارف والعلوم فامتاروا فيها وبرزوا على معاصريهم اذ كان من مبدإ هم أن يرقوا ويمتحنوا وقد حسبوا الهندسة والعلوم الرياضية وسائط للقياس ومما تجدر ملاحظته انهم لم يعتمدوا فيما كتبوه فى الميكانيكيات والسائلات والبصريات على مجرد المطريل على المراقبة والامتحان بواسطة الآلات وذلك ماصيرهم مبتدعى الكيميا وقادهم لاختراع ادوات التصفية والتبخير ورفع الاثقال ودعاهم الى استعمال الربع والاصطرلاب فى علم الهيئة واستخدام الموازنة فى الكيمياء مما خصوا به دون سواهم والى صنع جداول للحادية النوعية وعلم الهيئة كالتى اصطنعت فى بغداد والاندلس وسمرقند وذلك جعلهم أيضا يوجدون تحسينات عظيمة فى قضايا الهندسة وحساب المثلثات واختراع الجبر واستعمال الارقام العديدة فى الحساب وكان هذا كله من نتائج استعمالهم طريقة الاستدلال والامتحان . ولم يقرروا فى علم الهيئة لوائح فقط بل رسموا خرائط النجوم المنظورة فى فلكهم أيضا مطلقين على ذوات القدر الأعظم اسماء عربية لاتزال ترد على كراتنا الفلكية وقد عرفوا حجم الأرض بقياس درجة سطحها وعينوا الكسوف والخسوف ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة وقرروا طول السنة وادركوا الاعتدالين ولا حظوا أشياء بثت نورا هرأ على نظام العالم واختص علماء الفلك من العرب باختراع الآلات الفلكية لقياس الوقت بالساعات المتنوعة وكانوا السابقين فى استعمال الساعة الرقاصة لذلك وهم انشأ را فى العلوم العمليه علم الكيمياء وكشفوا بعض أجزائها المهمه كحامض الكبريتيك وحامض النتريك والكحول وهم الذين استخدموا ذلك العلم فى المعالجات الطبية اذ كانوا أول من نشر المركوبات والمستحضرات المعدنية وهم قرروا فى الميكانيكيات نواميس سقوط الاجسام وكان لهم رأى جلى من جهة طبيعة الجاذبية ورأى

أما الامم التي استقلت في العهد الاخير كاليونان ورومانيا وبلغاريا ويوغوسلافيا وتشكوسلوفاكيا وبولونيا وفنلندا وغيرها فأكثرها ذات مدنيات قديمة عرض لها ما مزق شملها زمناً لسلطان جائر قبض بمخالبه على أعناقها واستعادت بعد الحرب حالتها السياسية في الجملة فأصبحت كل واحدة تحيا باسم القومية كما حييت الممالك الكبرى من قبل وكلها تحتذى مثال الدول المنظمة القديمة وتأخذ عنها أحدث الأساليب حتى أصبح بعضها موضوع اعجاب المنصفين من الباحثين مثل يونان ورومانيا وبلغاريا بأنها نهضت في مدة قليلة ما كان منه مثال للشرق في أمة تريد أن تحيا وقد رأينا مصر والاستانة أخذتا بحظ وافر من الحضارة الحديثة وتوشك أن تأخذ سائر البلاد المستعدة في هذا الشرق القريب — ولا سيما بلاد العرب والفرس — حظها من مدنية تعبت أوربا قروناً طويلة في نسج خيوطها وقادت بألوف الألوف من البشر لقيام نهضتها وقتلت عشرات الملايين من الجنس الاصفر والاحمر والاسود بل والابيض لتقيم محلهم المستعمرين من أهلها وعسى أن يكون شأن العرب والفرس من ذلك شأن يابان أخذت عن الغرب ما مست اليه حاجتها ومزجته بمدنيتها القديمة فهي خير مثال يحتذى والسلام

﴿ انتهت الرحلة الثالثة وبها انتهت الرحلات الثلاث ﴾

سديد بالقوات الميكانيكية واصطنعوا في الهيدروستاتيك الجداول الأولى الحادية النوعية وكتبوا مقالات على عوم الاجسام وغرقها في الماء واصلحوا في علم البصريات خطأ اليونان بكون الشعاع يصدر من العين ويمس المرئي فيظهره . أما هم فقالوا ان الشعاع يمر من المرئي للعين ودهموا مسوس انعكاس النور أو انكساره واكتشفوا طريق الشعاع المنحني في الهواء وبرهنوا على انا نرى الشمس والقمر قبل الشروق وبعد الغروب قال والذي يدهش كثيراً ان نتصور أشياء نفتخر أنها من مواليد وقتنا ثم لا نلبث ان نراهم سبقونا اليها فتعليمنا الحاصر على النشوء والارتقاء كان يدرس في مدارسهم وحقاً انهم وصلوا به الى الاشياء الآلية وغير الآلية فكان المبدأ الرئيسي في الكيمياء عندهم المظهر الطبيعي في الاجسام المعدنية (انتهى معرباً من مقالة في مجلة النعمة بقلم الاستاذ عبده كحيل)

فهرس غرائب الغرب

الجزء الثانى

الرحلة الثالثة



الخطأ والصواب

« وقعت بعض أغلاط مطبعية فى الجزء الأول والثانى من غرائب الغرب وها نحن أولاء نصححها ونترك بعض أشياء يهتدى القارئ اللبيب من نفسه الى وجه الصواب فيها »

« الجزء الأول »

صفحة ٧ سطر ١٢ خطأ — لحدودها — صواب لحدوها ص ٢٥ س ١٣ أى — أيا ص٣٧س ١٨ رأو — رأوا ص ٣٩ س ٥ تسعة أعشار — أحد أعشار ص ٦٨ س ١٣ Chieis — Thiers ص ٦٩ س١٤ اعانتهم — أعانهم ص٧٤س١٢ الصلاة - الصلات ص ١٠٢ س ٦ أونقلت - لو نقلت ص١١٦س ٨ لويز الرابع — لويز الرابع عشر ص ١٣١ س ٢٥ La pulicite — La publicite ص ١٣٩ س ٩ ستاسبورغ — ستراسبورغ ص ١٥٥ س ١٢ الا وأخذ — الا وأؤخذ ص١٦٢ س ٢٤ بها ان — بها ابن ص ١٩٦ س ٢٤ بألا يفكرون — بأنهم لا يفكرون ص ١٩٥ س ٥ تحتاج حسن — تحتاج فى حسن ص ١٩٩ س٢٤ مقدماً — مقدساً ص ٢٠١ س ٣٠و٣١ والتقبن — وانتقبن . والتخصب — والتخضب ص ٢٠٧ س ١٢ شاهدة — شاهد ص ٢١٧ س ٧ التثبت — التنت ص ٢١٦ س ١ دينياً — وبيا ص ٢١٩ س ٧ مقعد - معتقد ص ٢٢٤ س ٢٠ قانون — قانوناً ص ٢٢٩ س ٢٤ ليعملا — ليعملوا ص٢٣٢ س ١٠ مازوتى — مازونى ص٢٣٣ س٦و٢١ الميتر — المنبر . عد مثلها — عن مثلها ص٢٣٤س٦و١٤ اعانات المدارس — اعانات لمدارس يتمخضون - يتمحضون ص ٢٤٧ س ١٣ ازدهاء — ازدهار ص ٢٤٨ س ١٦ وبيزاء — وبيزا ص ٢٤٩ س ٦ الاسلامى - الاسلام ص ٢٦٠ س ١٦ يعالجها — يعاجلها ص ٢٦١ س ١٦ ليتمثل — يتمثل ص ٢٨٨ س ١ أعمادها — اعتمادها ص ٢٨٩ س ٨ قصدوا — فصدوا ص٢٩٢ س ١٥ عادة — عادات ص ٢٩٧ س ١ الآخريان — الأخريان ص ٣٠٩ س ٨ برنال — برنار

٣١٠و٣١١ (الصفحة ٣١٠ والاربعة الاسطر الاولى من صفحة ٣١١ تابعة للحاشية الواردة فى صفحة ٣٠٩ بالحرف الدقيق) ص٣١٤ س٢٢ المجرد — المجر ص ٣٢٠ س١٩ بقضاء — بفضاء ص ٣٢٣ س ١١ الوالدين الذين — الوالدين الذين ص٣٢٦ س ١٨ الوجود — الوجوه ص٣٢٨ س٢٢ ووجدنا — ووحدنا ص ٣٢٩ س ١٥ الغلامنديين — الفلامنديين ص ٣٣٣ س ٢٥ Aitin la Gréce nocnelle -- Martin : La Grèce nouvelle ص ٣٣٤ س ٢٥ تمدنيه — تمدينه ص ٣٣٥ س ٣ الا باستخدام — الا بالاستخدام ص ٣٣٦ س ١٦ لا أنسى — لا أنس .

« الجزء الثاني »

ص ٦ س ١٨ والكوانلوب — والكوادلوب ص ١١ س ٢٤ derines — dérivés ص ١٥ س١٢ بارتو — بارتو ص ١٧ س ٢٢ بل مقلدين أو مجتهدين — بل مقلدين و مجتهدين ص١٨ س٢٠و٢١ Ram Band — Seignobses, Rambaud — Seignobos ص ١٩ س ١٣ وكانت — وطافت ص ٢١ س ٢٥ فيسبومي الملاح القلودنسى — فيسبوس الملاح الفلورنسى ص ٢٢ س ١٥ باستعمال — باستعمار ص ٢٣ س ١٥ رفعتها — رقعتها ص ٢٥ س ١٨ برناروس — برناردس ص ٢٧ س ٥و١٥ نقحة — نفحة . بضائع — بصنائع ص٢٨ س٢١ تبهجتك — تبهجك ص ٢٩ س ٩ ما اشتهر بنيها — ما اشتهر فى بنيها ص ٣٠ س ١٨و١٩ وساحتها — ومساحتها . و٤٠٠٠ هكتاراً و٤٠٠٠ هكتار ص ٣٢ س١٧ و ٢٢ غير نكير — من غير نكير . وان لم يفهما — فهو وان لم يفهمها ص ٣٤ س ١ ساره ساين — سان ساين ص ٣٩ س ١٤ مقولا — معقولا ص ٤١ س ٤ لا فرقا — لا فرق ص٤٤ س١٠و١١ مع الحياة — مع المياه وهذا — هذا ص٤٦ س٧ على هنيته — على هينته ص ٤٨ س ٢٢ L' Encyclopedie — L Encyclopeodie ص ٥٢ س ١٧ أن يرسل — أن يرحل ص ٥٥ س ٤ علماً لمعاجم — على المعاجم ص ٥٦ س ١١و١٨ جوها لابريل — جوهان بريل . والسنكريتية . . . الآرتية — السنسكريتية . . . الآرية ص ٥٧ س ١٤ عيينة — عبيد ص ٥٨ س ٢١ بلندرا

أكثر — بلندرا كثر ص ٦١ س ١٠ غير القسيس — غير القسيسين ص ٦٣
س ٦و١٦ وتعريف — وتصريف . وبكريج — كمبريج ص ٧٠ س ١٦ الناس
أربعة — الفلس أربعة ص ٧١ س ٨ بخطر غريب — بحظ غريب ص ٧٣ س ١٨
و١٩و٢٠و٢٢ Essou'd, nue — Essaid'une — Taine — Caine
peuple anglais au X I X siecle — peuple anglais au X L X e sicil
Européens - Enropéເne ص ٧٩ س ١٢ وجدت — وجوت ص ٨٠س ٢
شادوا — ساووا ص ٨٧ س ٢٠ والمباهات — والمباهاة ص ٨٩ س ٢٠
والزماندلين والنرماندبين ص٩٠س٨ كأنه — كأن ص ٩٧ س ١٤ العربية —
الغربية ص٩٨س١٦و٢٤ تدفعها — يدفعها . Bleue — Blene ص ١٠١ س ٣
تق أشخاص — تق الأشخاص ص ١٠٥ س ٦ صرحت — حرصت ص ١١٢
س ١٨ Lavisse — Lauisse ص ١٢١ س ٧ فشتيلية — قشتيلية ص ١٢٥
س ١٣و١٦ وان يعـدل — وأين يعدل . أنارها — أنهارها ص ١٢٩ س ٨
شاهدها — شادها ص ١٣٩ س ١٦ مائلة — مائلة ص١٤١س٢١ Justituto —
Instituto ص ١٦٨ س ٧ و٢٣ و٢٤ طليلة — طليطلة . المتوخات — المتوخاة .
ويبوءه — ويبوئه ص١٧٤س٤ فن — فن شقائه ص ٢٠٥ س ٢٣ Cataica —
Catholica ص ٢١٨ س٥و٦ بالتصرف — بالتصوف . الامنة — الامةص٢٢٢
س ٢٤ تساعد — ساعد ص ٢٢٣ س ٤ الكتلانكيين — الكتلانيين ص ٢٢٤
س ٣و٤ وزارته — ووزارته . يقين — تعيين ص ٢٢٩ س ٢٢ غريانا — غويانا
ص٢٣٠س١٤ الشائقة — الشائعة ص ٢٣١ س٣و١٥و٢٠ الاعتناء — الاغتناء .
وطنيتها — وطنيتها . وما تدرى أيلتئم — وما ندرى أيتم ص ٢٣٨ س١٤و٢٣
و٢٤ متوافر — متواز . درسله — درسد . Jules — Gules ص ٢٤٣ س ٩
و٢٢ الواردات — الولادات . اشتغلت — استغلت ص ٢٤٦ س ١ القرن
التاسع — القرن التاسع عشر ص ٢٤٧ س١٢و١٩ والفيناسيتين — الفيناسيتين .
مساحة — ساحة ص٢٥٠س٩ البروستية — البروسية ص٢٥٢ س٢٤ سادوثا —
سادوفا ص ٢٥٦ س١٨ و١٩ و٢٤ كنغنبرغ — كنغسبرغ . كيش — كيل .

كرابغسوالد — كرايغسوالد . روشتون — روشتوت . لكروشته - لكروشه ص٢٥٩ س٣ فالغني — فالفتى ص٢٨١ س٨ و٢٠ و٢١ فليسز — فليشر . فولدكه — نولدكه . فولدكه — نولدكه ص ٢٨٢ س١٤ و١٨ فليستر — فليشر . المجاج — والمجاج ص ٢٨٣ س ٢٢ و٢٣ internationalisme — niternationalisme Traité — Craite ص٢٨٤ س٤ الثانية عشرة — الثامنة عشرة ص ٢٨٧ س١٦ ضربت — ضريت ص ٢٨٨ س٦ قطران — قصران ص ٢٩٠ س١ حنت — سنت ص ٢٩١ س ٢٤ و٢٥ evolutions — Bruyssel — Brnyssel e'volutions ص ٢٩٤ س ١ تبسط — قسط